

مَوْعِ الطَّرِيقَةِ الدُّوْمِيَّةِ الْخُلُوتِيَّةِ

الْعِبَادَةُ فِي الْإِسْلَامِ

وَأَثَرُهَا

فِي الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ

عَقِيدَةٌ

٥٥٥٥

تَأْلِيفُ

د. الدَّامِغِ مَحْمُودٍ

كَلِيَّةُ أَصُولِ الدِّينِ

بِهَيْسَر

بِسَوْنِجِ

دَقِيقٌ

مَوْقِعُ الطَّرِيقَةِ الدُّومِيَّةِ الْخَلَوْتِيَّةِ

مكتبة / د. القطب محمد طه
رقم القيد / ٥٥٢٤
تاريخ / ١٩٩٧/٩/١٢
٨

مَوْقِعُ الطَّرِيقَةِ الدُّوْمِيَّةِ الْخَلَوِيَّةِ

العبادة في الإسلام

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور / القطب محمد طلبة
القاهرة

العبادة في الإسلام

وأثرها

في الفقه والجماعة

تأليف

الدكتور علي عبد اللطيف منصور

الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية



دار الصلوة للطباعة والنشر والتوزيع
بالخرقة

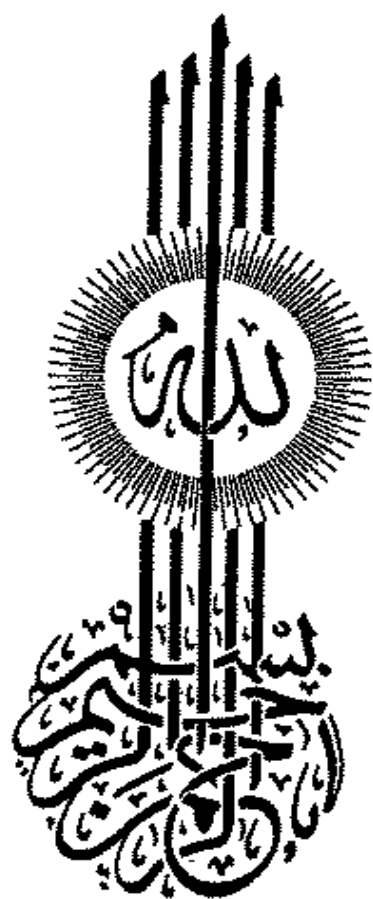
حقوق الطبع محفوظة



دار الصفوة
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

ش. م. - القاهرة - البحر الأحمر : ٤٤١٣١٥ / ٤٤١٣١٦ - كاسبي : ٤٤١٣١٥ - القاهرة : ٤٤١٣١٦ - كاسبي : ٤٤١٣١٦ - كاسبي : ٤٤١٣١٦



تقدمة

بقلم : محمد زكك الطين محمد أبو القاسم

خلق الله تعالى الإنسان على صورة فريدة متميزة ؛ فيها جماع ما في هذا الكون من الخصائص ، والعناصر :

ذلك : أنه مخلوق من الطين ؛ في مراحل ، وأطواره ، ومُمدُّ بكل ما في الغرائز من ؛ حاجات ، ومطالب ... ومزود بطاقة الروح ، بكل ما فيها من سمو ، وإشراق ، وهو - في نفس الوقت - ممنوح طاقة الفعل ؛ بكل ما فيها من معاني ؛ الإدراك ، والتمييز ، والمفاضلة ، والحكم .

ذلك الذي وصفه بعضهم بقوله :

وتحسب أنك جِرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر ؟

وهو : إذ خلق على هذا المستوى من الخلق ، وكُنَّ على هذه المنزلة من الإعداد ، المتميز ؛ فقد كَرَّمَ بشتى ألوان التكريم : الناشئة عن طبيعة الخلق ؛ كما في معرفة الأسماء - حسبما يراه فريق من المحققين -

أو المترتبة على حكمة الخلق ؛ كما في إسجاد الملائكة له ؛ سجود إجلال ، وتقدير - بيقين - لاسجود عبادة ، وأنقياد ، وهو أسمى ما يكون من التكريم ، وأعظم ما يكون من التجلُّة ، والاحترام .

بل إن قضية التكريم - فيه - لم تكن وقفاً على أصله ممثلاً في شخص آدم عليه السلام .

وإنما كانت سمة لازمة للنوع الإنساني - كله - على مدى الأزمنة ، والامكنة ، وفي كل حال ...

يقول الخالق جل ، وعلا :

﴿ ولقد كرمتا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ .

وفي تسخير ما سخر الله تعالى : من كونه الأعلى والأدنى ، مانعرف ، وما لانعرف - لخدمة هذا الإنسان : أبلغ آية على هذا التكريم ، وأسمى دليل على هذا الإجلال ..

وهذا يأتي تساؤل لا بد منه ... وهو : لم ذلك كله ؟
في حين أن الإنسان يحمل في ضمن تكوينه الطبيعي : ما كان سبباً إلى الاستفسار عن حكمة التكريم الإلهي للإنسان : إذ قالوا :
﴿ اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟
قال : أنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

ومن تأمل قضية : الخلق الإنساني يجد : أن القرآن الكريم يؤسس ذلك كله على قاعدتين أساسيتين :
الأولى : أنه مخلوق لأسمى رسالة .
الثانية : أنه مخلوق لأشرف غاية .
فأما رسالته فهي : الخلافة عن الله في الأرض .
﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ .

والخلافة - في معناها الإجمالي - : إدراك الممكن من علاقات الخلق ، والإستفادة بها في تسخير الكون للخير ، وإقامة منهج الله تعالى فيه ، وتحقيق مراد الله تعالى من عباده .
وهو ما يتم به تحقيق القاعدة الثانية :
وهي : أنه مخلوق لأشرف غاية .

إذ يقول خالقه ، ومبدعه الحكيم :
﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من

رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿١﴾ .
وحتى هاتين القاعدتين - المتمثلتين في الرسالة والغاية - من تأملهما
جيداً يجد : أن كل واحدة فيهما تفيض بعائدها على شرعة الأخرى .
لذلك : فإن فهم أكثر الناس لمفهوم العبادة - في حقيقته - دون
المراد منها ، أو مخالفاً للمقصود بها ..

وكم كانت حاجتنا ، وحاجة الأجيال من بعدنا ملحة لكى نجد : من
يبصرنا بحقيقة العبادة ، وصحة أدائها ، وصور قبولها .
- خاصة في هذه العصور التى اختلفت فيها الموازين ، واضطربت
القيم ، واختلطت المفاهيم - .

ولقد كانت في هذا المجال جهود مباركة ، ودراسات ذات شأن
- ولاشك - لايجوز لنا أن ننساها ، أو نغفل دورها في إحياء مفهوم
العبادة ، أو تقريب مدلولها .. والتبصير بها ، وذلك مثل : كتاب
العبادة : للمغفور له فضيلة الدكتور عبد الحلیم محمود .
وكتاب العبادة - أيضاً - لفضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى .

ومنهج البحث الذى نقدمه للقراء .. - اليوم - .. هو : نسج
متميز - باعتباره : دراسة متخصصة ، مستفيضة موثقة ، متنوعة لكل
أطراف الموضوع ، وشتى آفاقه : تلتزم المنهج العلمى الدقيق في
التعريف ، والتقسيم ، والاستدلال ، والاستنتاج .

بالإضافة إلى ما يتميز به - عن الدراسات الأكاديمية - من :
سلاسة الأسلوب ، وجاذبية العرض ، وإشراق المأخذ ، ووجدانية
الاستنباط

شأن مؤلفه : العلامة الفاضل : الأستاذ الدكتور على عبد اللطيف
منصور - ولا نزكى على الله أحداً - في مسيرة حياته ، وطبيعته الفذة
المتميزة : بسعة الاطلاع ، وسهولة الأداء ، وقوة الإقناع ، وبساطة
العبارة

في سمت : يدل على الغاية ، ويرشد إلى القدوة .. وتواضع جم :
تحصنه عزة المؤمن ، وخشية الله : - غير مقتعلة ، ولا متكلفة - قائمة على
فهم دقيق للحياة ، ومعركة باصرة بالناس ، لا يشوبها شائبة الانطواء ،
بل يدعمها ممارسة عملية للدور الرسالي الناشئ عن : فقه في الدين ،
وبصر بالحضارة والتطور .

وإذا كان القاريء الكريم يراه - أحسن الله جزاءه - في هذا
الكتاب : كاتباً سلساً ، جذاباً ، ومفكراً : دقيقاً ، وعالمياً فاقها .
فقد عرفت منابر الدعوة : في مصر ، وفي ليبيا ، والكويت .
ومقاصير العلم : في الأزهر الشريف ، والجامعة الإسلامية بالمدينة
المنورة .

وأجهزة الإعلام : في الإذاعات القرآنية والبرامج العامة في ليبيا ،
والملكة العربية السعودية ، ودولة الكويت .

عرفته رجلاً متميز الأسلوب ، متميز العرض ، متميز الفكرة ..
- ومن هنا - كان هذا الكتاب - الذي نقدمه ، للقراء - : جماع
ما يتطلع إليه الباحث من مواطن الفهم ، والدارس المتفحص عن دقائق
العلم ، والمسترشد إلى أفضل مناهج الدعوة .
بما يحويه البحث من استيعاب الكتاب ، وروح الكاتب .
سائلين الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه وثقلاً في ميزان
حسنات مؤلفه ، وإن يجعله نافعاً - لنا ، وله - ولجميع المسلمين .

وهو حسبنا ونعم الوكيل



الفرقة : في الرابع والعشرين من رمضان المبارك ١٤١١ هـ .
الموافق ٩ من إبريل ١٩٩١ م .

مقدمة الكتاب

الحمد لله ، نحمده على نعمته ، ونشكره على عطائه ومنته ،
ونستعينه على القيام بواجب شكره وعبادته .

ونسأله من فضله المعونة والتوفيق ، والهداية لأقوم طريق : فإن
مفاتيح الخير كلها بيده ، ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك
لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ .^(١)

ونصلي ونسلم على سيدنا محمد ، خاتم أنبيائه ، وقدوة أحبائه
وأصفيائه ، الرحمة المهداة والتعمة المسداة ، والسراج المنير ، والنور المبين .
ورضى الله عن آله وأصحابه : الذين اعتصموا بحبله ، وتخلقوا
بخلقه ، ونهجوا في التعرف إلى ربهم والإقبال عليه نهجه ، فأذاقهم الله
حلاوة قربه ، ومنحهم الصفر من وده ، وحبه ، وأثنى عليهم في كتابه ،
وأعلى شأنهم بين أوليائه وأحبابه ، وذلك هو الفوز العظيم .

وبعد :

فإن السر في خلق الإنسان ، وتشريفه بالعقل ، وإمداده بالمعارف
ومواجهته بالخطاب هو أن يعبد الله وحده ، ويتعرف إليه ، قال جل
شأنه :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من
رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة
المتين ﴾ .^(٢)

ولما كان الإنسان قد خلق لهذه المهمة العظيمة ، ورزق من المواهب
ما يؤهله للقيام بها ، والدعوة إليها ، والجهاد في سبيلها كانت منزلته

(٢) سورة الذاريات : ٥٦ - ٥٨

(١) سورة فاطر : ٢

عند ربه تابعة لمعرفة ذلك ، والقيام به ، والغيرة عليه .

وَلَا وَزْنَ لِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ مَعَارِفٍ وَأَعْمَالٍ إذا نسي العبد هذا الواجب ، أو تهاون به وقصر فيه ولو أن إنسانا افترض فيه القيام بكل ما كلفه من واجبات نحو نفسه وأسرته وجماعته ، ثم أهمل عبادة ربه فهو مقصر ، ولا ينفعه ذلك عند ربه ، ولو أن إنسانا افترض فيه معرفة كل ما يستطيع عقل بشر أن يعرفه ، ثم لم يعرف ربه فهو جاهل ولا تنفعه تلك المعرفة عند ربه .

وَالْعِبَادَةُ إِذَا كَانَتْ صَحِيحَةً أنارت للعبد طريقه ، وعبدت مسلكه ، وأثمرت له حب الله وخشيته ، وقربه ومودته ، وارتقت به إلى مقام الإحسان .

وإنها لغاية الغايات أن يصل عبد إلى هذه المنزلة من الحب والقرب ، ويحقق الحكمة التي خلق من أجلها أفضل تحقيق ، ويصبح عبدا ربانيا ، يفيض من عقله وقلبه وعلمه وأدبه ، وحكمته ورحمته على إخوانه المؤمنين ثم على الناس أجمعين ، فيعرف الناس بربهم ، ويذكروهم بعفوه وغفرانه ، وقضله وإحسانه ، كما قال جل شأنه :

﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون** ﴾ . (١) سورة السجدة : ٢٤

كذلك : فإن الأمة التي تؤمن بربها ، وتستجيب لأمره وتقف عند حدوده ، وتسارع في مرضاته ، وتستقيم على طريقته ، وتجاهد في سبيله .

مثل هذه الأمة تلقى من ربها المعونة والتوفيق ، والنصر والتأييد .

والوعود الربانية للمتقين والمحسنين والمؤمنين في ذلك يضيق بها نطاق الحصر :

﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم في**

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴿ ^(١) .

ولما كان أكثر الناس قد غفلوا عن هذا الأمر العظيم ، وقصروا فيه ، وتهاونوا به ، مع أنه - كما علمنا - مصدر خيرهم وعزتهم ، وينبوع رفعتهم وسعادتهم - فقد انشرح صدرى للكتابة فى موضوع العبادة وآثارها والحكم التى تترتب عليها ، ليكون ذلك بياناً للناس ، يذكر المؤمنین ، وينير الطريق للعابدين ، ويضع مادة أمام الدعاة والمرشدين . وقد جعلت عنوان هذا البحث : -

العبادة فى الإسلام واثرها فى الفرد والجماعة

ولقد شجعنى على الكتابة فى هذا الموضوع ما أشعر به من شدة الحاجة إليه .

فقد فترت صلة الناس بربهم ، وانصرف كثير منهم عن العبادة ، بل عن الدين جملة وتفصيلا ، وفسقوا عن أمر ربهم ، وأقبلوا على شهواتهم ومآربهم غير مباليين بعواقب ، أو مفكرين فى نتائج ، فأظلمت قلوبهم ، وانطمست بصائرهم وصدق فيهم قول الحق سبحانه : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ ^(٢) .

وتحولت العبادة لدى كثير من الناس إلى عادات مألوفة ، لها مظهر العبادة ، وليس فيها حقيقتها وروحها ، فلم تثمر لأصحابها ما تثمره العبادة الصادقة من خلق حميد ومسلك سديد ، وصدق خشية من الله ، ورجاء فيه ، وحب له .

(١) سورة النور : ٥٥

(٢) سورة مريم : ٥٩

والله أسأل أن يجعل من هذا البحث منارا للسالكين ، وهداية
للحائرين وتذكرة للعابدين ، وأن يثبت به الإيمان . ويقوم به
الأخلاق ، وأن يجعل منه غذاء للأرواح ، وشفاء لما في الصدور ، إنه
ولي التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد بنيت هذا الموضوع على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب
وخاتمة :

ثم ذكرت أهم المراجع التي اعتمدت عليها مرتبة على حروف
المعجم ، وذكرت أسماء مؤلفيها ومحققيها وناشريها .

وراعيت في الآيات القرآنية ذكر سورها وأرقامها ، وفي الأحاديث
النبوية عزوها إلى مخرجيها معتمداً على الأحاديث الصحيحة ، معرضاً
عن الأحاديث الضعيفة مكثفياً من الأحاديث الشريفة بقدر ما هو
ضروري لبيان الفكرة وإقامة الحجة .

وأحمد الله سبحانه فقد كان توفيقه لي ومعونته أكبر من جهدي
وعملي والحمد لله واعود فأعترف بأنه لو أتيح لي فرصة مراجعة
الكتاب مرة أخرى فربما حذفته وأضفت وقدمت وأخرت وهذا شأن
البشر وسبحان من تفرد بالكمال والحمد لله في كل حال .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب كل من اطلع عليه ، ونظر فيه ،
واعتنى به ، وأن يجعله هداية للقلوب ونوراً للبصائر ، فإنه ولي
ذلك ، والقادر عليه ، لا حول ولا قوة إلا به ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

تمهيد

الكائنات خلق الله

إن نظرة إلى هذا الكون العظيم الخلق ، البديع الصنع ، المحكم التدبير لتملاً قلوب المنصفين إكباراً وإجلالاً وإعظاماً واحتراماً للخالق العظيم ، والمدير الحكيم ، الذي خلق فسوى وقدر فهدى ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى وخلق كل شيء فقدره تقديراً .

فهذه السموات قد رفعت بغير عمد تراها ، زينت بالمصابيح ﴿ ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ .^(١)

ترى الشمس التى جعلها الله سراجاً وهاجاً ، تمنح الحياة ، وتشر الضوء والحرارة ، وترى النجوم والقمر تسبح فى أفلاكها فى نظام دقيق ، وإحكام وإتقان ، بلا تقديم ولا تأخير .

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ .^(٢)

وهذا بعض حديث القرآن الكريم فى الدعوة إلى التأمل والنظر فى هذا الكون : السماء وما حوت .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ .^(٣)

﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فىهن نورا وجعل الشمس سراجاً ﴾ .^(٤)

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش

(١) سورة الملك : ٥

(٢) سورة يس : ٣٨ ، ٤٠

(٣) سورة ق : ٦

(٤) سورة نوح : ١٥ ، ١٦

وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات
لعلكم بقاء ربكم توقنون ﴿١﴾ .

فإذا ما وجهنا أنظارنا إلى الأرض ومن فيها من إنس وجن ، وما فيها
من حيوانات وحماة فهذه جبال جدد بيض وحر مختلف ألوانها وغرايب
سود ، وفي الأرض معادن مختلفة ، وفي الأرض جنات وعيون ، وزروع
مختلفة الأشكال والألوان .

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل
صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل
إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٢)

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج
بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا
به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد
وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ﴾ (٣) في الأرض بحار وأنهار .

﴿ هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون
لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من
فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٤) .

إلى غير ذلك من الآيات البينات في الأرض والسموات التي نحس
بعض ظواهرها وآثارها ، ونخفي علينا معظم أخبارها وأسرارها بما يدهش
النظر ، ويحير الفكر ، ويبهز الألباب ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي
تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به

(١) سورة الرعد : ٢

(٢) سورة الرعد : ٤

(٣) سورة ق : ٧-١١

(٤) سورة فاطر : ١٢

الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب
المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴿١﴾ .

هذه الكائنات وتلك المخلوقات العلوية والسفلية بمن فيها وما فيها
لا بد لها من خالق أوجدها وبارئ فطرها ، وصانع ألقنها إنه الله رب
العالمين .

﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ (٢)

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ (٣)

﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد
بكم ، وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج
كريم ، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون في
ضلال مبين ﴾ (٤)

وبأدنى نظرة لمن عنده مسكة من عقل ، أودرة من تفكير في هذه
الآيات التي تتحدث عن مخلوقات الله في الأرض أو السموات يدرك أن هذا
الخلق العجيب وذاك الترتيب المحكم المتقن لا يستغنى عن صانع يديره ،
وفاعل يحكمه ويقدره .

وهذا منطق الفطرة المستقيمة - فالفطرة السليمة تشهد بكونها مقهورة
تحت تسخيرها ، ومصرفة بمقتضى تدبيره ﴿ أفي الله شك فاطر السموات
والأرض ﴾ (٥)

والعقل السليم يشهد بكمال الصانع ، وحسن تدبيره وشمول قدرته
وسعة علمه ويقول مع أولى الألباب ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا
سبحانك ﴾ (٦)

(٢) سورة الزمر : ٦٢

(٤) سورة لقمان : ١٠ - ١١

(٦) سورة آل عمران : ١٩١

(١) سورة البقرة : ١٦٤

(٣) سورة فاطر : الآية الأولى

(٥) سورة إبراهيم : ١٠

**الكائنات مسخرة للإنسان
والإنسان مخلوق لعبادة ربه والتقرب إليه**

الكائنات كلها علوها وسفليها من سموات وأرضين وما فيها من شمس وأقمار من ثوابت وسيارات ، من ملائكة وإنس وجن ، مما نعلمه وما لا نعلمه ، هي خلق الله وملكه ، وهو سبحانه المهيمن عليها ، والمتصرف فيها ، والمسخر لها ، له الخلق والأمر ، وله السلطان والقهر ، هو المنفرد بالخلق والاختراع ، والمتوحد بالإيجاد والإبداع :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ ﴾ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴿ ^(١) . ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين ﴿ ^(٢) .

هذه الكائنات التي هي خلق الله وملكه ، وتحت هيمنته وسيطرته ، مسخرة للإنسان ميسرة له ، يستخدمها وينتفع بها ، ويستفيد منها . ونظرة إلى بعض الآيات التي تحدثت عن تسخير هذه المخلوقات سواء في الأرض أوفى السماء ترينا عظيم فضل الله ، وحيل كرمه ، وواسع جوده ، وعظيم إحسانه .

﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴿ ^(٣) .

(١) سورة المؤمنون : ٨٤ - ٨٩

(٢) سورة فصلت : ١١

(٣) سورة إبراهيم : ٣٢ - ٣٤

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴾^(١)

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال :
كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لى : «يامعاذ أتدرى ما حق الله
على العباد ؟»

قلت : الله ورسوله أعلم . قال :
«حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»^(٢)
وحقه عليهم لا يستطيعون الوفاء ببعضه .
يقول الشيخ محمد خليل الخطيب رحمه الله وأثابه :
ولن تفى من حقه بذرة ولو أطعت ماحييت أمره

فهو الذى خلقك من العدم ، وأمدك بأسباب الحياة ، صورك فى
أحسن صورة ، ورزقك من الطيبات ، وسخر لك الكائنات ، وفضلك
على كثير من خلق تفضيلاً .

﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾^(٣)

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به
من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر
لكم الأنهار ﴾^(٤)

﴿ ألم نجعل له عينين ولسانا وشفّتين وهدينا النّجدين ﴾^(٥)

(١) سورة البقرة : ٢١ - ٢٢

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة الاسراء : ٧٠

(٤) سورة ابراهيم : ٣٢

(٥) سورة البلد : ٨ - ١٠

ومن أجلك أيها الإنسان أنزل سبحانه كتبه ، وأرسل برسله ليأخذ بيدك إلى الحياة الطيبة التي تقوم على الوفاء بالحقوق ، ورعاية الحرمات ، والشكر للمنعم ، ولتكون حياتك على هذه الأرض في ظل الحب ، والتراحم ، والخير والإيثار وليذكرك بوظيفتك في هذه الأرض ، وأنت مستخلف فيها وأن حياتك فيها إنما هي فترة ابتلاء واختبار .
فمن عقل عن الله ما أراده الله اجتاز هذه الفترة كريماً طيباً ، ولقى ربه راضياً مرضياً .

وأما من غفل وقصّر ، وتهاون وأعرض ، ونسى المهمة التي خلق لها فلن يجنى إلا ما غرس ، ولن يلقى إلا الخزي والحسرة والندامة يوم توفى كل نفس ما عملت ، فليذكر المسلم ذلك ولا يغفل عنه .
ففي ذكره النجاة والسعادة ، والحسنى وزيادة .

لله على خلقه حق الطاعة وعليهم واجب الاستجابة

سبق أن عرفنا أن هذه الكائنات خلق الله ، وأنها مسخرة للإنسان وأن الإنسان مخلوق لله : إليه يتعرف ، وله يتعبد ، ولو جهه يقصد ؛ وذلك لأن الله تعالى خالقه ، ومالك أمره ، ومدير شأنه ، ومصلح حاله ، والقائم به ، لاملجأ ولا منجى منه إلا إليه منه الخلق والبداية ، وإليه المرجع والمصير . ﴿ إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ ^(١) .

وإذا كان الله سبحانه هو الخالق البارئ المصور المدبر الحكيم الغنى . . . الغنى عما سواه ، والمحتاج إليه كل ماعداه ، فإن له سبحانه على عباده المخلوقين المملوكين المرزوقين حق الطاعة ، وعليهم واجب الاستجابة وتحقيق العبادة ، حقه سبحانه وهو المتفضل بالإيجاد والإمداد أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . . .

الانسان مخلوق لله ليعبده ويتعرف إليه :

وإذا كان الله تعالى قد خلق كل شيء وسخره للإنسان ، فما السر في خلق هذا الإنسان ؟ وما الغاية من وجوده فوق هذه الأرض ؟ وهل خلقه عبثا ؟ حاشا لله .

إن أفعال العقلاء ، منزهة عن العبث ، والإنسان لا يرضى لنفسه أن تكون أفعاله عبثا ، أنت أيها الإنسان لا ترضى لنفسك بالعبث أفترضى

(١) سورة يونس : ٤

لربك مالا ترضاه لنفسك أيهيك الكمال ولا يكون موصوفا به ؟ حاشاه

إنه خلق السموات والأرض بالحق .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ ^(١) ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ ^(٢)

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ ^(٣) .

وإذا كانت الكائنات المسخرة لك قد خلقت بالحق ، والحق ناموس الكون فأنت لم تخلق عبثا ولن تترك سدى ﴿ أفحسبتم أنها خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ ^(٤) ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . . ﴾ ^(٥) لقد خلقت بالحق ، وكلفت بالحق من الحق ، وأنت في سعادة بمعرفة الحق والاستجابة له ، ومن أعرض عن الحق فقد ضيع نفسه ، وخسر حياته ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن لا يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ ^(٦) .

والله تعالى هو المالك لكل شيء له ما في السموات وما في الأرض خلقا وإيجادا وملكا وتصرفا .

ويذكر الله عباده بتفردده بخلق الكون والسيطرة عليه ، والتصرف فيه ، والتدبير له ، ويصرف القول في ذلك تذكيرا لعباده ، وتسجيلا لحقائق لا

(١) سورة الحجر : ٨٥

(٢) سورة الجاثية : ٢٢

(٣) سورة الدخان : ٣٨ ، ٣٩

(٤) سورة المؤمنون : ١١٥

(٥) سورة القيامة : ٣٦

(٦) سورة يونس : ٣١ ، ٣٢

تحتري فيها نفس مستقيمة وفطرة سليمة . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ
السموات والأرض ﴾ ^(١) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ
وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٢) ﴿ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾ ^(٣) ﴿ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ^(٤)
﴿ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٥) ﴿ اللَّهُ مَلِكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ ^(٦) ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ^(٧) ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ
فِي الْمُلْكِ ﴾ ^(٨) ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْتَبِهُوا ﴾ ^(٩) ﴿ اللَّهُ
مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ^(١٠) ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ^(١١) ، ﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(١٢) ﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ^(١٣) ﴿ يَسْجُدُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ
وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(١٤) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(١٥) .

-
- (١) سورة البقرة : ١٠٧
(٢) سورة آل عمران : ٢٦
(٣) سورة آل عمران : ١٨٩
(٤) سورة المائدة : ١٧
(٥) سورة المائدة : ١٨
(٦) سورة المائدة : ١٢
(٧) سورة التوبة : ١١٦
(٨) سورة الأسراء : ١١١
(٩) سورة الزمر : ٦
(١٠) سورة الشورى : ٤٩
(١١) سورة الزخرف : ٨٥
(١٢) سورة الحديد : ٢
(١٣) سورة الحديد : ٥
(١٤) سورة التغابن : ١
(١٥) سورة الملك : ١

وإذا كانت هذه الآيات وغيرها تدل على ملكية الله للسموات والأرض وما فيها فإن له على مخلوقاته حق الطاعة المطلقة وعليهم واجب الاستجابة التامة ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ ^(١) ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ^(٢) .

وإذا هم استجابوا لربهم بإطاعة أمره وعبدوه حق عبادته امتثالاً لأمره ، ووفاء بحقه ، واعترافاً بآلائه ، وشكراً على نعمائه ، فإنه تفضلاً وتكرماً — يرضى عنهم ويزيدهم توفيقاً ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ ^(٣) .

وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » ^(٤)

وإذا رضى الله عن شيء فقد دعا إليه ، وحبيب فيه ، وأمر به ، ووجب على العباد ، أن يسمعوا ويطيعوا ويحققوا وينفذوا عرفاناً بقدر المنعم الوهاب وشكراً لصاحب الآلاء المتفضل الجواد .

وإذا كان كل شيء قد سخر لك أيها الإنسان فأنت مخلوق لله : لمعرفته ، ولعبادته ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ^(٥)

ما أكرمك وما أعظمك أيها الإنسان إذا عرفت ربك وأدركت الغاية من

(١) سورة الإسراء : ٤٤

(٢) سورة الحشر : ١

(٣) سورة الزمر : ٧

(٤) رواه مسلم

(٥) سورة الذاريات : ٥٦

خلقتك ، أنت مخلوق كريم على الله ، أنت نفخة من روحه ﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾^(١)

جعلك الله خليفته في الأرض وأسجد لك ملائكته تكريماً لك وتثريفاً ، وعلمك ما لم تكن تعلم ﴿ الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان ﴾^(٢) وأنت بفطرتك - ما لم تلوث - متعبد تطلب معبودك .

ومن رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه لفطرته ولا للعهد الذي أخذه عليه يوم (أَلست بربكم) وإنما أقام له الآيات في الأنفس والآفاق ، وفي الأرض والسموات ، وأرسل له الرسل ، وأنزل من أجله الكتب وحذره من الغرة به ، والغفلة عنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾^(٣) .

فأنت أيها الإنسان لك بداية ولك نهاية وبدايتك معروفة . ﴿ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ونهايتك معلومة ﴿ . . ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾^(٤) ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾^(٥) .

وبعد هذه الحياة فسوف تصير إلى الحياة الأخرى وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً . فإذا حققت عبوديتك لمعبودك وربوبتك لخالقك فأنت من السعداء وإذا ساقك الجحود والكفران واستكبرت عن طاعته ومعرفته وما خلقت من أجله فأنت الجاني على نفسك ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾

وشتان بين من يهان ، ويحق عليه الحرمان والخذلان ، ويستغيث ولا مغيث ، ويصطرخ ولا منقذ ولا مجير ، ويجابه بالسوء بكيته وتنكيلا

(١) سورة ص : ٧٢

(٢) سورة الرحمن : ١ - ٤

(٣) سورة الانفطار : ٦ - ٨

(٤) سورة المؤمنون : ١٥ ، ١٦

(٥) سورة الروم : ٤٠

وتعديها ، شتان بين هذا وبين من يكرم بدار السلام ويلقى التحية والسلام
من الملك القدوس السلام ومن ملائكته المقربين وعباده الصالحين
﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم
عقبى الدار ﴾ ^(١) ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب
الجنة هم الفائزون ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الرعد : ٢٤

(٢) سورة الحشر : ٢٠

الباب الأول **العبادة وما يتعلق بها**

تعريف العبادة :

العبادة هي الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان وكرمه ، وأمده بقوى التفكير والتعبير ، وجعله خليفة في الأرض ، وأمده بأسباب البقاء والمعاش . ومن أجل ذلك خلق له الكائنات ، وسخر له المخلوقات قال سبحانه وتعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (١) .

وقد يكون من المفيد هنا ، بل من الضروري أن نتحدث عن معنى العبادة في اللغة ، ثم عن مفهومها لدى علماء الشريعة ، ثم نبين مدى شمولها واتساعها معقبين على كل ما نذكر بما يوضحه ، ويبين الرأي فيه ، وذلك لكي يتجلى أمام أبصارنا مفهوم كلمة العبادة ، وتتضح أطراف الموضوع الذي نحن بصدد بحثه ، والحديث عنه .

ولنبداً بعرض معناها في اللغة باعتباره الأصل ، ثم نشئ بأقوال علماء الشريعة وآرائهم ، ثم نختم ببيان مدى شمول العبادة لكيان الإنسان كله ، ثم لحياته جميعها ، فنقول وبالله التوفيق ، وهو الهادي لأقوم طريق : -
العبادة في اللغة :

أصل العبادة في اللغة : التذليل من قولهم طريق معبد ، أى بكثرة الوطاء عليه ، ومنه أخذ العبد لذله لمولاه .

والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب في المعاني يقال ، تعبد فلان لفلان - إذا تذلل له ، وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة ، طاعة كان للمعبود أو غير طاعة ، وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل

(١) سورة الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

فهي عبادة ، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة والفهم والسمع والبصر .^(١) .
والعبدية والعبودية والعبودة والعبادة : الطاعة .

والاعتباد ، والاستعباد : التعبد ، وتعبد : تنسك ، وتعبد فلانا : اتخذناه عبداً . العبد الإنسان حراً كان أو رقيقاً ، يذهب بذلك إلى أنه مريب لباريه عز وجل ، والعبد المملوك خلاف الحر قال سيبويه : هو في الأصل صفة قالوا : رجل عبد ، ولكنه استعمل استعمال الأسماء ، والجمع أعبد وعبيد ، مثل أكلب وكليب ، وهو جمع عزيز ، وعباد وعبد ، مثل سقف وسقاف وسقف ، وأنشد الأخفش :

انسب العبد إلى آبائه أسود الجلدة من قوم عبد

ومنه قرأ بعضهم وعبد الطاغوت ، ويقال : فلان بين العبودية والعبودية والعبدية ، وأصل العبودية الخضوع والتذلل وفي حديث أبي هريرة : (لا يقل أحدكم لمملوكه : عبدى وأمتى وليقل : فتاى وفتاى) هذا على نفى الاستكبار عليهم وأن ينسب عبوديتهم إليه ، فإن المستحق لذلك الله تعالى هو رب العباد كلهم والعبيد .

وجعل بعضهم العبادة لله بخلاف العبدية وغيرها فهي تجعل لله وللمخلوقين . قال الأزهري : ولا يقال عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله ، ومن عبد دونه إلهاً فهو من الخاسرين . وأما عبد خدام مولاه فلا يقال عبده .

قال الليث : ويقال للمشركين هم عبدة الطاغوت . ويقال للمسلمين عباد الله يعبدون الله . والعايد : الموحد . قال الزجاج : قوله : وعبد الطاغوت معطوف عطف النسق على من لعنه الله ، المعنى من لعنه الله ومن عبد الطاغوت من دون الله عز وجل قال : وتأويل عبد الطاغوت

(١) المخصص لابن سيدة : ١٣ / ٨٦

أى أطاعه يعنى الشيطان فيما سول له وأغواه ، قال : والطاغوت الشيطان . وقال فى قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد ﴾ أى نطيع الطاعة التى يخضع معها وقيل : إياك نوحى قال ومعنى العبادة فى اللغة : الطاعة مع الخضوع ومنه طريق معبد إذا كان مذكلاً بكثرة الوطء .

وقوله تعالى : ﴿ وقومها لنا عابدون ﴾ ، أى دائنون . وكل من دان للملك فهو عابد له

وقال ابن الأثيرى : فلان عابد ، وهو الخاضع لربه المنقاد لأمره ، وقوله تعالى : ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ أى أطيعوا ربكم ، والمتعبد المنفرد بالعبادة والمعبد : المكرم المعظم كأنه يعبد قال :

تقول : ألا تمسك عليك فإننى أرى المال عند الباخلين معبدا

والتعبد : التذليل ، وبغير معبد : مذل ، وطريق معبد : مسلك مذل ، ذكر الأثيرى الأقوال فى قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ ^(١) ثم قال : ذكرت الأقوال وفيه قول أحسن من جميع ما قالوا ، وأسوغ فى اللغة ، وأبعد من الاستكراه ، وأسرع إلى الفهم . روى عن مجاهد فيه أنه يقول : إن كان لله ولد فى قولكم فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم بما تقولون .

قال الأثيرى : وهذا واضح . وما يزيده وضوحاً أن الله عز وجل قال للنبي ﷺ قل يا محمد للكفار : إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين لإله الخلق أجمعين ، الذى لم يلد ولم يولد ، وأول الموحدين للرب ، الخاضعين المطيعين له وحده لأن من عبد الله ، واعترف بأنه معبوده وحده لا شريك له ، فقد دفع أن يكون له ولد فى دعواكم ، والله عز وجل واحد لا شريك له ، وهو معبودى الذى لا ولد له ولا والد .

(١) سورة الزخرف : ٨١

قال الأزهرى : وإلى هذا ذهب إبراهيم بن السرى وجماعة من ذوى المعرفة . قال : وهو الذى لا يجوز عندى غيره .

وقوله عز وجل : ﴿ فادخلني في عبادي وادخلني جنتي ﴾ أى فى حزبي قال السزجاسجى فى قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ^(١) المعنى : ما خلقتهم إلا لأدعوهم إلى عبادتى وأنا مرید للعبادة منهم ، وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ومن يكفر به ولو كان خلقهم ليَجبرهم على العبادة لكانوا كلهم عبادا مؤمنين قال الأزهرى : وهذا قول أهل السنة والجماعة .

والتأمل فى هذه النقول التى أوردناها عن هؤلاء الصفوة من فقهاء اللغة ونقلتها يجد أن المعانى التى ذكروها بيانا لهذه الكلمة أعنى كلمة العبادة لا تتجاوز هذه المعانى : الخضوع ، الطاعة ، التذلل ، التمسك . . . ^(٢)

العبادة فى الشرع

يقول ابن تيمية رحمه الله : والعبادة أصل معناها الذل : يقال طريق معبد إذا كان مذلا قد وطئته الأقدام .

لكن العبادة المسامور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له ، فإن آخر مراتب الحب : هو التتيم ، وأوله : العلاقة لتعلق القلب بالمحبيب ، ثم الصبابة لأنصباب القلب إليه ، ثم الغرام وهو الحب الملازم للقلب ثم العشق ، وآخرها التتيم ، يقال : تيم الله أى عبد الله ، فالتميم المعبد لمحبيه .
ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عبدا له ، ولو أحب شيئا ولم

(١) سورة الذاريات : ٥٦

(٢) لسان العرب ، لابن منظور : ٤ / ٢٦٤ - ٢٦٧

يخضع له لم يكن عابدا له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة ، والخضوع التام إلا الله ، وكل ما أحب لغير الله فمحبه فاسدة ، وما عظم بغير تعظيم أمر الله فتعظيمه باطل ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ﴾ . . . الآية ^(١) . فجنس المحبة ، تكون لله ورسوله كالطاعة ، فإن الطاعة ، لله ورسوله ، ولإرضاء الله ورسوله والله ورسوله أحق أن يرضوه . . . والإيتاء لله ورسوله ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٢) الآية .

ويقول ابن القيم : (العبادة : تجمع أصليين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، والعرب تقول : طريق معبد ، أى مدلل ، والتعبد : التذلل والخضوع فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا ^(٣)) . هـ .

ويقول ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والعبادة في اللغة : من الذلة يقال طريق معبد ، أى مدلل . وفي الشرع : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف ، وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحرص أى لا تعبد إلا إياك ولا تتوكل إلا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة ، والدين يرجع إلى هذين المعنيين . وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . فالأول : تبرؤ من الشرك ، والثاني : تبرؤ

(١) سورة التوبة : ٢٤ .

(٢) سورة التوبة : ٥٩ . العبودية لأبن تيمية : ٤٤ ، ٥٥ .

(٣) مدارج السالكين : ٧٤ / ١ .

من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل وهذا المعنى في غير آية من القرآن الكريم كما قال تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه وماريك بغافل عما تعملون ﴾ ^(١) . ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ ^(٢) ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ ^(٣) وكذلك هذه الآية الكريمة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ^(٤) . .



(١) سورة هود : ١٢٣

(٢) سورة الملك : ٢٩

(٣) سورة الزمل : ٩

(٤) سورة الفاتحة ، تفسير ابن كثير ١ / ٢٥٠ .

تعقيب واستطراد

من هنا نستطيع أن ندرك أن العبادة التي قصد إليها الشارع ، والتي تعلّى الإنسان وتشرفه ، وترفع من قدره ومكانته ، وتجعله يحس بإنسانيته وكرامته ، هي تلك التي تجمع بين الخضوع لله سبحانه ، والمحبة له ، والخشية منه .

ومهما اكتملت هذه المعاني في عبد كان أقرب إلى ربه وأكرم عليه ، من غيره ، وأحق بالإمامة في الدين ، وقيادة المتقين ، والحديث عن رب العالمين . .

الخضوع

وهذه هي العبادة في صورتها المثلى : إنها تجمع الخضوع الذي تشترك فيه سائر الكائنات ، وتستظل بلوائه كل المخلوقات ، من ماء وشجر ونبات ، وثوابت وسيارات طوعا أو كرها . والخضوع يعنى طاعة الله ، والاستجابة لأمره ، والمسايرة في مرضاته ، والوقوف عند حدوده ، نعم : إن الكون كله خاضع لله ذى الجلال فى عبادة دائمة ، فى طاعة مستمرة فى خضوع واستسلام لا يشوبهما تمرد ولا عصيان . ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ، ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبـال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ ^(١) .

﴿ والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والأصال ﴾ ^(٢) . . . ﴿ والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة

(١) سورة الحج : ١٨

(٢) سورة الرعد : ١٥

والملائكة ، وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون
ما يؤمرون ﴿^(١)﴾ الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر
يسجدان ﴿^(٢)﴾ .

هذا الخضوع الدائم ، وتلك العبادة الدائمة من الكون كله : علويه
وسفليه ، أرضه وسماواته ، ما علمنا منه وما لم نعلم ، ما أبصرنا وما لم نبصر ،
يتفق وطبيعة هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها ، وتنوع عباداتها ، ﴿ ألم
تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم
صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون ﴾ ^(٣) . ﴿ تسبح له السموات
السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن
لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ^(٤) .

وأساس الخضوع لله تعالى هو الإحساس الصادق بهيبته وعظمته
وسلطانه وقدرته ، وأنه المعطى المانع ، الضار النافع ، المحيي المميت
الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الذي ليس كمثله شيء
وهو السميع البصير ، وإليه المصير يُطعم ، ولا يطعم ، يحير ولا يحار عليه ،
غنى عن كل ما سواه ، محتاج إليه جميع ما عده .

والإنسان يكون في قمة التواضع إذا سجد لخالقه ، ومولاه ، وقام
بحق من خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، وهو بذلك يكون في أسمى
حالات القرب ، وأرجى أسباب القبول . يقول الصادق المصدوق ﷺ :
« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء ﴾ ^(٥) .

(١) سورة النحل : ٤٩ ، ٥٠

(٢) سورة الرحمن : ٥ ، ٦

(٣) سورة النور : ٤١

(٤) سورة الإسراء : ٤٤

(٥) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي

وفي معناه قول الله تعالى لنيبه ﷺ : ﴿ واسجد واقترب ﴾ ^(١) . عن
أبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي رضى الله عنه أنه قال : (كنت أبيت
مع رسول الله ﷺ فأتته بوضوئه وحاجته فقال سلني فقلت : أسألك
مرافقتك في الجنة ، فقال :
«أوغير ذلك»

قلت : هو ذاك ، قال : «فأعنى على نفسك بكثرة السجود» ^(٢) .
وعن أبي عبد الله ويقال أبو عبد الرحمن ثوبان مولى رسول الله ﷺ —
رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليك بكثرة
السجود فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك
بها خطيئة » ^(٣) .

وفي السجود كمال الخضوع والانقياد لمن بيده ملكوت كل شيء وهو
الله رب العالمين ، وفي خضوع العبد لربه نجاحه وفلاحه ، وعزه وشرفه ،
وحرية وكرامته ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في ﴿ يأيها الذين آمنوا
اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ ^(٤) .

وكمال الخضوع إنما يتم إذا استجاب العبد لربه ، وأثره على ما سواه ،
وقدم شريعته على كل الشرائع ، وأمره على كل الأمور ، وعرف معرفة
الشاكرين عظيم حقه عليه ، ورحمته به ، وحيل إحسانه إليه ، وهو إذا لم
يستجب طوعا فهو مستجيب كرها ﴿ أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من
في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾ ^(٥) .

(١) سورة العلق : ١٩

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه مسلم

(٤) سورة الحج : ٧٧

(٥) سورة آل عمران : ٨٣

الحسب :

والإنسان الذى يحس بعظيم فضل ربه عليه ، ويدرك فيض نعمه المتعددة وآلائه المستمرة المتجددة ، وإحسانه الدائم وعطائه المتواصل ، وعفوه وسره ، ورحمته ومغفرته فإنه يحب ربه أعظم الحب ، ويتفانى فى رضائه أشد التفانى .

ومعنى حبه لله أن يحب ما أحب الله ، ويبغض ما أبغض ، يسارع فى مرضاته ، فاراً من سخطه إلى رضاه ، ومن عقوبته إلى مغفرته ، ومن معصيته إلى طاعته ، ومنه إليه .

فالله سبحانه يحب من عباده من كان صادق الإيمان به وكامل الإخلاص له وعظيم التوكل عليه ، وحمل الثقة بوعده ، ثم هو يحب المتقين ويحب المحسنين ويحب الصابرين ، فهو يحب من الأعمال والناس ما أحب الله فبادله الله سبحانه حبا بحب وودا بود . . . ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ ^(١)

إذا كان من البشر من انحرف وخضع وأحب غير الله فإن المؤمنين رأوا أن الله هو مطلوبهم ، وهو مقصودهم ، فلم يحبوا غيره ، ولم يخضعوا لسواه ، ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحُب الله والذين آمنوا أشد حبا لله . . . ﴾ ^(٢) والذين عرفوا ربهم وأحبوه أحبوا رسوله ﷺ الذى عرفهم به ودلهم عليه ، بل لا يتم الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إلى الإنسان من كل شئ حتى نفسه التى بين جنبيه .

يقول عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » ^(٣) .

(١) سورة مريم : ٩٦

(٢) سورة البقرة : ١٦٥

(٣) رواه البخارى

وعن عبد الله بن هشام قال :
كنا مع النبي ﷺ - وهو آخذ بيد عمر - فقال عمر : يا رسول الله ،
لأنت أحب إلى من كل شيء إلا نفسي
فقال الرسول - ﷺ - « لا والذي نفسي بيده - حتى أكون أحب إليك
من نفسك »
فقال عمر : فإنه الآن لأنت أحب إلى من نفسي
فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » ^(١) .
ومعنى الآن يا عمر أى الآن فقط تم إيمانك . . .

ومحبة الله ورسوله هى غاية الغايات ، ونهاية النهايات ، ومطلب
الأخيار الأبرار إذ هى لذة القلب ونعيمه ، وراحته ورحمته ، وجماله وأنسه ،
وما من خلق قبل المحبة إلا هو طريقها ودليلها ، والموصل إليها ، كالتوبة
والصبر ، وما من لذة وثمره ونتيجة بعدها إلا وهى من آثارها ، ولزيادة نور
إلا بتحقيق وجودها وانتشار ظلالها فى قلب المحب ، الذى أحب بعد
معرفة ، وتذوق بعد تجربة .

إن محبة الله ورسوله إذا حلت فى القلب أثرت المحبوب على كل
ماعداه ، وقدمته على جميع من سواه ، وكل محبة بعد ذلك فهى تابعة ،
وكل خوف بعد ذلك كان حرصا على زوالها ورحيلها بعد أن تذوق القلب
رحيقها وجمالها مع تنزيه الله عن الشبيه والمثال ، والصورة والخيال ، وكل ما
يخطر بالبال ، فالله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ^(٢) ،
﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ ^(٣) .

(١) رواه البخارى وأحمد

(٢) سورة الشورى : ١١

(٣) سورة الانعام : ١٠٢

وإذا كان هذا الحب هو الذى ينبغى أن تشد اليه الرحال ، وأن يكون المطلوب فى كل حال فما حقيقته ؟ وهل يمكن إدراك كنهه أو رسم صورته ؟

يرى بعض علماء الكلام أن الحب الحقيقى لا يخلو من مراقبة العبد لله ، وقالوا : إن معنى الحب لله هو المواظبة على طاعته . أما حقيقته فهى محال إلا مع الجنس والمثال .

يقول الإمام الغزالى رحمه الله : ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ولابد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ، ونحن فى هذا الكتاب نبين شواهد الشرع فى المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى . . . (١)

ثم يفيض الإمام الغزالى فى بيان ذلك ونقتبس بعضاً من كلامه المشرق الجميل يقول : اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ورسوله ﷺ فرض وكيف يفرض ما لا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته ؟ فلا بد أن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك بطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل : ﴿ يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٢) . وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه .

وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » (٣) .

وفى حديث آخر : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » (٤) .

(١) الاحياء للغزالى ١٤ / ٢٥٧١

(٢) سورة البقرة : ١٦٥

(٣) رواه الإمام أحمد

(٤) مختصر عليه من حديث أنس

وفي حديث آخر : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه »^(١)
وقال البخاري : ومن والده وولده^(٢) كيف وقد قال الله تعالى : قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم . . الآية^(٣) وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار اهـ .

لأن ختام الآيات ﴿ فتربصوا ﴾ حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿ ومعنى تربصوا . أى انتظروا ما يحل بكم من عقابه ، وشديد نكاله وعذابه ، وهو وعيد من الله لمن كان أهله وماله وما ذكر في الآية أحب إليه وأثر لديه من الله ورسوله والجهاد في سبيله ، فلينظر ما يحل به من الويال والنكال .

وما هدانا الله في ختام الآية إلا ليحفزنا ويشير فينا ما جبلنا عليه وما في استطاعتنا أن نحققه من محبة الله ورسوله ، والجهاد في سبيله ، ولو كنا غير قادرين على تحقيق ذلك ، أو كان فوق طاقتنا لما كلفنا به ، ولكنه سبحانه رحمة بنا يدعونا إلى ما فيه كمالنا ، وتحقيق الغاية من وجودنا ، وهي معرفته ومحبته ، والخضوع له ، حتى نكون قد تحققنا بقوله سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾^(٤) .

فتذوق لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة المناجاة ، وحلاوة الأنس بالحبيب الذي لا يغيب ، والمعبود المشهود ، الرحيم الودود ، الذي يمن على أحبائه ، والظالمين له بآلاء ونعم لا توصف ولا تعد ، ولا يحيط بها إحصاء ولا عد .

(١) متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم

(٢) تخریج المراقى فی الاحیاء

(٣) سورة التوبة : ٢٤

(٤) سورة الذاریات : ٥٦

يفيض على أحبائه في الدنيا - تفضلا وتكرما - نعيما ورحيقا من التلذذ
بذكره والشعور برحمته ، ولذة الأنس بمناجاته ويعطيهم في الآخرة ما يجل
عن الوصف ويعجز عن إدراكه الخيال وفي الحديث القدسي عن النبي ﷺ
فيما يرويه عن ربه : « أعددت لعبادي الصالحين » في الجنة ما لا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بله ما اطلعت عليه ، واقرأوا
إن شئتم قول الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء
بما كانوا يعملون ﴾ (١) .
يقول ابن تيمية رحمه الله :

ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألد ولا أطيب ، ولا أسر ولا أنعم ،
من حلاوة الإيمان ، المتضمن عبوديته لله ، ومحبه له ، وإخلاصه له ، وذلك
يقتضى انجذاب القلب منيبا إلى الله ، خائفا منه ، راغبا راهبا ، كما قال
تعالى : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ (٢)
إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه أو عدم حصول مرغوبه ، فلا يكون
عبداً لله ومحبا لله إلا بين خوف ورجاء كما قال تعالى : ﴿ أولئك الذين
يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه
إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ (٣)
الخوف :

والخوف الذي أضافه العلامة ابن كثير - رحمه الله - إلى تعريف العبادة
ونبه عليه يعطى أن عباد الله بحق الذين عرفوا ربهم ، وخضعوا له ،
واستجابوا لأمره ، وأثمرت لهم هذه المعرفة حبا وشوقا يخشون ربهم ، ويخافون
زوال محبتهم من قلوبهم ، وهم دائما بين خوف ورجاء ورغبة ورهبة .

(١) سورة السجدة : ١٧

(٢) سورة ق : ٣٣

(٣) سورة الإسراء : ٥٧

وقد امتدح الله سبحانه عباده الذين يخشونه ويخافون حسابه ، والوقوف بين يديه يوم العرض عليه ، فقال سبحانه : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ ^(١) وقال : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ ^(٢) وقال :

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ ^(٣) .

وأولو الألباب لا يغفلون عن لقاء ربهم ، والتفكير في أمر آخرتهم ، والابتغال إلى ذى الجلال سبحانه أن يقيهم عذاب النار ، وأن يدخلهم مدخل الأبرار يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ﴾ ^(٤) .

ومن دعوات عباد الرحمن التي يلهجون بها لربهم ﴿ والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ ^(٥) .

وكلمة قوية معرفة العبد بربه كلما اشتدت خشيته منه ، وتعظيمه له ، ولذلك كان الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وهم أعرف الخلق بالحق

(١) سورة الرعد : ٢١

(٢) سورة النازعات : ٤٠ ، ٤١

(٣) سورة المؤمنون : ٥٧ ، ٦١

(٤) سورة آل عمران : ١٩٠ - ١٩٢

(٥) سورة الفرقان : ٦٥ ، ٦٦

جل جلاله ، وأشدّهم حباله ، وشوقا إليه ، ورجاء فيه - أشدّ الناس خشية
لربهم .

وفي القرآن ألوان من دعواتهم التي تكشف عن أحوالهم في ذلك
وصفاتهم .

فهذا هو الخليل عليه السلام يدعو ربه ويقول : ﴿ ولا تخزني يوم
يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ^(١) .
ويدعو يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ربه فيقول : ﴿ رب قد
آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض
أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴾ ^(٢) .

ويخبر سبحانه عن زكريا وآله عليهم الصلاة والسلام في إقبالهم على
رهم ، ورغبتهم فيه ، وخشيتهم منه ، واستحقاقهم من أجل ذلك أجر
العطاء ، فيقول سبحانه : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركني فردا وأنت
خير الوارثين فاستجبنا له ، وهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه ، إنهم
كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا
خاشعين ﴾ ^(٣) .

والنبي ﷺ يقول : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن
واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ » فكان ذلك ثقل على أصحاب
رسول ﷺ فقال لهم : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ^(٤) .
وأخبر عليه الصلاة والسلام عن مدى علمه بالله . وخشيته له فقال .
« أما والله إنني لأعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية - الحديث » ^(٥) وفي رواية

(١) سورة الشعراء : ٨٧ - ٨٩

(٢) سورة يوسف : ١٠١

(٣) سورة الأنبياء : ٨٩ - ٩٠

(٤) رواه الترمذي . وقال حديث حسن

(٥) حديث صحيح متفق عليه .

أخرى : « إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا » ^(١)

والذى لاشك فيه أن تعريف ابن كثير للعبادة أضاف معنى جليلا ونبه إلى أمر عظيم ، ينبغى التيقظ له ، والاتفات إليه ، فالخوف ركن جوهرى من أركان العبادة والإقبال على الله جل علاه ، إذ المطيع الذى انشرح بحب الله صدره ، ولانت بعبادته جوارحه ما لم تهذب الخشية ويقومه الخوف ربما قصر وأهمل ، واطمأن إلى خضوعه ومحبهه ، وأدل بعمله وأعجب بمسلكه ، فأتى من حيث لا يدري ولا يحتسب .

لذلك ينصح النبى الأمين صلوات الله وسلامه عليه فيقول : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » ^(٢) .

وقبل أن نفرغ من الكلام عن العبادة وعناصرها الثلاثة من الخضوع والحب والخشية فإننا نود أن نذكر أن الخضوع الذى يراد هنا إنما هو الخضوع الناشئ عن إسلام الوجه لله ، وكمال الانقياد لشرعة محمد ﷺ ، لا الخضوع للأوهام وما تهوى النفوس .

وكذلك نريد بالمحبة المحبة الصحيحة السليمة التى يعرب عنها قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ ^(٣) .

لا المحبة المزعومة التى ادعاها اليهود والنصارى لأنفسهم كذبا وبهتاناً إذ قالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ ^(٤) وكذبوا حيث حرفوا كتبهم وبدلوها وغيروها وكفروا بما أنزل على محمد ﷺ وهو الحق مصدقا لما معهم ، وشرعوا

(١) حديث صحيح متفق عليه .

(٢) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن

(٣) سورة آل عمران : ٣١

(٤) سورة المائدة : ١٨

لأنفسهم ولأتباعهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم
وويل لهم مما يكسبون ﴾ ^(١) .

وقد دعاهم خاتم المرسلين إلى التكميل والتصحيح ، والسير على
المنهج الصحيح ونادى فيهم بما أوصاه الله إليه بشأنهم : ﴿ قل يا أهل
الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك
به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا
اشهدوا بأننا مسلمون ﴾ ^(٢) .

كذلك فإن المراد بالخوف ما يحض على العمل ، ويدفع إلى الخير ،
ويكف عن الشر والإثم والتقصير قال سبحانه وتعالى : ﴿ وأما من خاف
مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ ^(٣) .

(١) سورة البقرة : ٧٩

(٢) سورة آل عمران : ٦٤

(٣) سورة النازعات : ٤٠ ، ٤١

شمول العبادة للإنسان بجميع جوانبه

عقله ، وقلبه ، وحواسه ، وجوارحه

ليس الإنسان هو هذا الهيكل الترابي فحسب ، ولكن فيه نفحة إلهية ونفخة روحية قال الله سبحانه : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (١) .

إن الإنسان كائن متميز ، ومخلوق مهياً للتكريم والتفضيل ، خلقه ربه في أحسن صورة ، وكملة بالعقل والبيان ، وطبعه في أصل فطرته على إدراك الحق والخير ، وتمييز الطيب من الخبيث .

والله الذي خصه بهذه المزايا العظيمة ، وأهله ليكون خليفة في أرضه ، لم يدعه لعقله ، ولا لما جبل عليه في أصل فطرته .

وإنما أرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين ، محذرين ومذكرين ، وأنزل من أجله الكتب ، حتى يأخذ الرسل بأيدي البشر إلى صراط الله السوي وطريقه المستقيم ، وحتى ينقوا فطرته مما علق بها من انحراف ، واعتراها من ضلال ، وحتى ينظفوا عقله مما يكون قد تراكم عليه من أمراض وأدواء نتيجة لسيطرة الهوى عليه ، وغلبة الشهوات على نفسه ، وحتى يبصروه بأقوالهم وأحوالهم بالطريق الذي يتعين عليه سلوكه ليظفر برضا مولاه ، ورحمة ربه ، ويذكروه بما أودع في فطرته من خير ومعرفة لأن كثيرا من الناس ضلوا وانحرفوا .

بل إن بعضهم علم ، ولكن علمه لم يغن عنه من الله شيئا ، إذ أثر هواء على مولاه ، وهذا كفر غليظ ، وضلال بعيد ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره

(١) سورة ص : ٧١

غشاة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴿ ١ ﴾ .

فهذا الذى عبد هواه من دون الله ما انتفع بالعلم الذى وصله ، ولا البلاغ الذى سمعه ، فعطل ما وهبه الله من نعم التفكير وحسن التقدير ، فأضله الله لعلمه باستحقاقه لذلك ، وقامت الحجة عليه ، فأصبح لا ينتفع بما يسمع ، ولا يعي شيئاً يهتدى به وليس له من حجة يستنيرها (فمن يهديه من بعد الله ؟) .

انحرف كثير من البشر ، وضلوا عن سواء السبيل ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم وذهبوا فى الضلال مذاهب شتى ، وطرائق قلدا ، فممنهم من أنكر الخالق الكريم ، وكفر بالمدير الحكيم ، ومنهم من اتخذ إلهين من دون الله ، ومنهم من اتخذ ثلاثة ، ومنهم من عبد الشمس والقمر والكواكب ، ومنهم من عبد الأحجار والأشجار والأبقار من دون الله ، ومنهم من جعل لكل قوة من قوى الكون إلهاً خاصاً بها ، ومنهم من أنكر الحياة بعد الموت وكفر بالبعث واللقاء . ومنهم من أتبع نفسه هواها وتركها ترتع فى الشهوات ، وتلغ فى الموبقات ، غير واقف عند غاية ، أو مته إلى نهاية .

وهكذا تخبط العقل البشرى فيما يتعلق بالالوهية ، وتخبط كذلك فيما يتعلق بالحياة الآخرة ، وتخبط فى أخلاقه وسلوكه ، وتخبط فى كل مناحى الحياة سواء ما يتعلق منها بالفكر والنظر ، أو بالعمل والتطبيق ، حتى أصبح العقل البشرى لدى السواد الأعظم من الناس وكأنه لا وجود له فى انتفاء الفائدة منه ، وفى هؤلاء الضالين المكذبين يأتى قول الحق جل جلاله : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً ﴾ (٢)

(١) سورة الجاثية : ٢٣

(٢) سورة الفرقان : ٤٤

ويأتى حديثه عن عاقبة أمرهم ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ^(١)

ويأتى حديثهم عن أنفسهم وشهادتهم عليها يوم القيامة ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ ^(٢)

والذى عرف المنعم بفطرته ، وبآثار نعمته ، وبآلائه المتجددة المتواصلة ، الدائمة المتتالية بلا انقطاع : هذا الصنف الذى أعمل قلبه وعقله فى الخير ، فسارع فى الخيرات وفر من المخالفات ، هم أولئك الذين اهتدوا وهم أولو الألباب ، عقوبتهم فى عاقبة أمرها متدبرة ، وقلوبهم من رها وجلة ، وألستهم بذكره رطبة ، وجوارحهم بعبادته والإقبال عليه طيبة لينة .

هؤلاء هم الذين استفادوا من حياتهم ، وانتفعوا بشكر ما أنعم الله به عليهم ، والله سبحانه بمنه وفضله ، وكرمه ولطفه ، جعل لعباده ألوانا من القربات فى العبادة الواحدة فللقلب النية والعزيمة ، والرغبة فى الخير ، ولللسان الذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وللجوارح عباداتها الواضحة الكثيرة المتنوعة .

ولتأمل الآن بشيء من التفصيل والإيضاح بعد هذه المقدمة كيف كانت العبادة شاملة للإنسان بجميع جوانبه : عقله وقلبه ، ولسانه وجوارحه ، حسه ونفسه فنقول :

إن الله - بحكمته - لم يطلب من الناس أن يعبدوه بجوارحهم مغفلا قلوبهم ، أو يعبدوه بقلوبهم تاركا جوارحهم ، ولم يطلب منهم أن يتعرفوا إليه

(١) سورة الاعراف : ١٧٩

(٢) سورة الملك : ١٠

في المسجد وينصرفوا عن أمره حين يباشرون أسباب معاشهم ، ويتقلبون في حرفهم ونجساراتهم ، بل إنسه أراد منهم أن تكون عباداتهم بقلوبهم وعقولهم ، وألسنتهم وجوارحهم وأن يكون تَوَجُّهُهُمْ إليه دائماً على تغاير الأزمنة والأماكن ، وأن يكون التوجه إليه وحده فيعبده مخلصين له الدين ، يقول النبي ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »^(١)

وكلما استطاع العبد أن يحقق ما طلب منه ربه من ذلك في صورته المثلى كلما كان أقرب إلى ربه ، وأحق بعطائه ، وأولى بفضله ونعمائه ، وأكرم عليه ، وأثر لديه ، ولعل خير ما نسوقه في معرض الاستدلال لهذه الحقيقة ما أوصى به الله جل جلاله نبيه وحبيبه محمداً ﷺ ﴿ قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾^(٢) .

يقول الكاتب المسلم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله : هذا الدين فيه ثلاث عبادات يشد بعضها بعضاً ، إحداها للأعضاء ، والثانية للقلب ، والثالثة للنفس فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط ، وعبادة القلب طهارته وحبه للخير ، وعبادة النفس طهارتها وبذلها في سبيل الإنسانية اهـ .

وللعلامة شمس الدين ابن القيم - رحمه الله - كلمات طيبة موفقة في هذا المقام ضمنها مراتب العبودية موزعة على القلب وسائر الخواص ، أثرتنا أن نسوقها بتمامها لما فيها من البيان والتفصيل ، سائلين الله أن يهدي بها سواء السبيل .

قال رحمه الله : ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة ، من

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن

(٢) سورة الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣

كملها كمل مراتب العبودية . وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح ، وعلى كل منها عبودية مختصة .

والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح ، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح ، فواجب القلب منه متفق على وجوبه ويختلف فيه ، فالمتفق على وجوبه كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة والصبر ، والإنابة ، والخوف والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية في العبادة ، وهذا قدر زائد على الإخلاص فإن الإخلاص هو أفراد المعبود عن غيره ، ونية العبادة لها مرتبتان (١) تميز العبادة عن العادة (٢) تميز مراتب العبادات بعضها عن بعض ، والأقسام الثلاثة واجبة . وكذلك الصدق ، والفرق بينه وبين الإخلاص أن للعبد مطلوبا وطلبا فالإخلاص : توحيد مطلوب ، والصدق توحيد طلب .

فالإخلاص : أن لا يكون المطلوب منقسما ، والصدق أن لا يكون الطلب منقسما فالصدق بذل الجهد ، والإخلاص أفراد المطلوب .

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة ، وكذلك النصيح في العبودية ومدار الدين عليه ، وهو بذل الجهد في اتباع العبودية على الوجه المحبوب للرب ، المرضي له ، وأصل هذا واجب وكماله مرتبة المقربين .

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان : واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين . وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ، قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر في تسعين موضعا من القرآن أو بضعا وتسعين وله طرفان أيضا : واجب مستحق وكمال مستحب .

وأما المختلف فيه كالرضا ففي وجوبه قولان للفقهاء والصوفية فمن أوجبه قال : السخط حرام ولاخلاص عنه إلا بالرضا وما لاخلاص عن

الحرام إلا به فهو واجب واحتجوا بأثر (من لم يصبر على بلائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سواى) ومن قال هو مستحب قال : لم يجىء الأمر به فى القرآن ولا فى السنة بخلاف الصبر فإن الله أمر به فى مواضع كثيرة من كتابه .

وكذلك التوكل ، قال تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ^(١) وأمرنا بالإتابة فقال : ﴿ وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٢) وأمر بالإخلاص فى قوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(٣) .

وكذلك الخوف كقوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْهُ ﴾ ^(٥) وقوله : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ ﴾ ^(٦) وكذلك الصدق قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^(٧) . وكذلك المحبة وهى أفرض الواجبات إذ هى قلب العبادة المأمور بها ونهجها وروحها ، وأما الرضا فإنما جاء فى القرآن مدح أهله والثناء عليهم لا الأمر به .

وهذا الخلاف بينهم إنما هو فى الرضا بقضائه الكونى ، أما الرضا به ربا وإلها وهو الرضا بأمره الدينى فمتفق على فرضيته ، بل لا يصير العبد مسلما إلا بهذا الرضا ، أن يرضى بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولا . . والمقصود أن هذه الأعمال واجبتها ومستحبها هى عبودية القلب فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك ، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح ،

(١) سورة يونس : ٨٤

(٢) سورة الزمر : ٥٤

(٣) سورة البينة : ٥

(٤) سورة آل عمران : ١٧٥

(٥) سورة المائدة : ٣

(٦) سورة البقرة : ٤٠

(٧) سورة التوبة : ١١٩

والمقصود أن يكون ملك الأعضاء ، وهو القلب قائما بعبوديته لله - سبحانه - هو ورعته . وأما المحرمات التي عليه فالكبر والرياء ، والعجب والحسد ، والغفلة والنفاق ، وهي نوعان كفر ومعصية . .
فالكفر : كالشك والنفاق ، والشرك وتوابعه .

والمعصية نوعان : كبائر وصغائر :

فالكبائر : كالرياء والعجب والكبر والفخر ، والخيلاء والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والفرح والسرور بأذى المسلمين ، والشهادة بمعصيتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم ، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله ، وتمنى زوال ذلك عنهم .

وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة ، ولاصلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها ، وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد الجسد .

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب ، وترك القيام بها ، فوظيفة (إياك نعبد) على القلب قبل الجوارح ، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلا بأضدادها ولا بد ، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها ، وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه ، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها .

ومن الصغائر أيضا : شهوة المحرمات وتمنيها وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر بحسب تفاوت درجات المشتهى ، فشهوة الكفر والشرك : كفر ، وشهوة البدعة فسق ، وشهوة الكبائر معصية ، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب عليها ، وإن تركها عمزا بعد بذله مقدوره في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب ، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع .

ولهذا قال النبي - ﷺ - « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا هذا القاتل يا رسول الله . فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه » ^(١) فنزله منزلة القاتل لحرصه على قتل صاحبه في الإثم دون الحكم ، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب .
وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه .

عبوديات اللسان لله :

أما عبوديات اللسان الخمس فواجبها النطق بالشهادتين ، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن ، وهو ما تتوقف عليه صحة صلاته ، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله ، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود ، وأمر بقوله ربنا ولك الحمد بعد الاعتدال ، وأمر بالتشهد ، وأمر بالتكبير . ومن واجبه رد السلام وفي ابتدائه قولان : ومن واجبه : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وأداء الشهادة المتعينة وصدق الحديث .

وأما مستحبه : فتلاوة القرآن ، ودوام ذكر الله ، والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك .

وأما محرمه : فهو النطق بكل ما يغيضه الله ورسوله . كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله ، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها ، وكالقدف ، وسب المسلم وأذاه ، بكل قول ، والكذب وشهادة الزور ، والقول على الله بلا علم ، وهو أشدها تحريما .
ومكروهه : التكلم بما تركه خير من الكلام به ، مع عدم العقوبة عليه

(١) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود والنسائي

عبوديات الجوارح لله :

وأما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضا
إذ الحواس خمس وعلى كل حاسة خمس عبوديات . .

عبودية السمع :

فعلى السمع : وجوب الانصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه
السلام من استماع الإسلام والإيمان وفرض منها ، وكذلك استماع القراءة في
الصلاة إذا جهر بها الإمام واستمع لخطبة الجمعة في أصح قولي العلماء .

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع ، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة
راجحة من رده أو الشهادة على قائله أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة
ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك . وكاستماع أسرار من يهرب عنك
بسر ، ولا يجب أن يطلعك عليه ، وما لم يكن متضمنا لحق لله يجب القيام
به ، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه . وكذلك استماع أصوات
النساء الأجانب اللاتي تخشى الفتنة بأصواتهن إذا لم تدع حاجة من شهادة
أو معاملة ، أو استفتاء أو محاكمة ، أو مداواة أو نحوها ، وكذلك استماع
المعازف وآلات الطرب واللهو .

وأما السمع المستحب : كاستماع المستحب من العلم ، وقراءة
القرآن ، وذكر الله ، واستماع كل ما يحبه الله ، وليس بفرض .

والمكروه : عكسه وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه . والمباح
ظاهر .

عبودية النظر :

وأما النظر الواجب : فالنظر في المصحف ، وكتب العلم عند تعين
تعلم العلم الواجب منها ، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام من

الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها ، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها ونحو ذلك .

والنظر الحرام : النظر إلى الأجنبية بشهوة مطلقا وبغيرها إلا الحاجة كنظر الخاطب ، والمستام ، والمعامل ، والشاهد ، والحاكم ، والطبيب ، وذى المحرم .

والمستحب : النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانا وعلمًا ، والنظر في المصحف ، ووجوه العلماء الصالحين ، والوالدين ، والنظر في آيات الله المشهودة ، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته .

والمكروه : فضول النظر الذى لا مصلحة فيه ، فإن له فضولا كما للسان فضول وكم قاد فضوله إلى فضول عز التخلص منها وأعيادها .

وقال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر ، كما يكرهون فضول الكلام .

والمباح : النظر الذى لا مضرة فيه فى العاجل والأجل ولا منفعة .
والحرام : النظر إلى العورات وهى قسيان : عورة وراء الثياب ، وعورة وراء الأبواب ، ولو نظر فى العورة التى وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ، ففقأ عينه لم يكن عليه شئ وذهب هدرا بنص قول رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته وإن ضعفه بعض العلماء لكونه لم يبلغه النص أو تأوله فى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« من اطلع فى بيت قوم بغير إذنه فقد حل لهم أن يفقتوا عينه » .
ورواه أبو داود وفيه (ففقتوا عينه فقد هدرت) - مابين القوسين ليس فى الأصل - .

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله ، كعورة له هناك ينظرها ، أوربية هو مأمور أو مأذون له فى الاطلاع عليها .

أما الذوق الواجب : فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت ، فإن تركه حتى مات ، مات عاصيا قاتلا لنفسه ، قال الإمام أحمد وطاووس : من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار . ومن هذا تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك على أصح القولين وإن ظن الشفاء به فهو مستحب مباح أو الأفضل تركه ؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف .

والذوق الحرام : كذوق الخمر ، والسموم القاتلة ، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب وأما المكروه : فكذوق المشتبهات ، والأكل فوق الحاجة ، وذوق الطعام الفجاءة ، وهو الطعام الذي تفجأ آكله ، ولم يرد أن يدعوك إليه ، وأكل أطعمة المرائية في الولائم والدعوات ونحوها ، وفي السنن أن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس .

والذوق المستحب : أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل ، مما أذن الله فيه والأكل مع الضيف لطيب له الأكل ، لينال منه غرضه ، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب ، وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها للأمر به عن الشارع .

والذوق المباح : ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان .

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم .

فالشم الواجب : كل شم تعين طريقا للتمييز بين الحلال والحرام ، كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة ؟ وهل هي سم قاتل أو لأمضره فيه ؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به ، وما لا يملك ؟ ومن هذا شم المقوم ورب الخبرة عند الحكم بالتقويم ، : (شم) العبيد ونحو ذلك .

وأما الشم الحرام : فالمتعمد لشم الطيب في الإحرام ، وشم الطيب
المغصوب والمسروق وتعمد الشم من النساء الأجنبية خشية الأفتان بها
وراءه .

وأما الشم المستحب : فشم ما يعينك على طاعة الله ، ويقوى
الحواس ، ويسط النفس للعلم والعمل . ومن هذا هدية الطيب والريحان
إذا أهديت لك . ففي صحيح مسلم عن النبي - ﷺ - من عرض عليه
ريحان فلا يردّه ، فإنه طيب الريح ، خفيف الحمل والمكروه كشم طيب
الظلمة ، وأصحاب الشبهات ، ونحو ذلك .

وأما المكروه : فكالعبث واللعب الذى ليس بحرام ، وكتابة مالا فائدة
في كتابته ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة .

والمستحب : كتابة كل ما فيه منفعة في الدين أو مصلحة للمسلم
والإحسان بيده بأن يعين صانعا ، أو يصنع لأخرق ، أو يفرغ من دلوه في
دلو المستسقى أو يحمل له على دابته ، أو يمسكها حتى يحمل عليها ،
أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك ، ومنه : لمس الركن بيده في
الطواف ، وفى تقيلها بعد اللمس قولان والمباح : ما لا مضرة فيه
ولا ثواب .

وأما المشى الواجب : فالمشى إلى الجمعات والجماعات في أصح
القولين لبضعة وعشرين دليلا ، مذكورة في غير هذا الموضع . والمشى حول
البيت للطواف الواجب والمشى بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه والمشى
إلى حكم الله ورسوله إذا دعى إليه والمشى إلى صلة رحمه وبر والديه والمشى
إلى مجالس العلم الواجب طلب تعلمه وإلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن
عليه فيه ضرر .

والحرام : المشى إلى معصية الله وهو من رجل الشيطان . قال تعالى :

﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ ^(١) قال : مقاتل : استعن عليهم
بركبان جندك ومشاتهم فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند
إبليس .

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمسة بالركوب أيضا .

فواجبه : في الركوب في الغزو ، والجهاد ، والحج الواجب .
ومستحبه في الركوب المستحب من ذلك ، ولطلب العلم وصلة الرحم ،
وبر الوالدين وفي الوقوف بعرفة نزع ، هل الركوب فيه أفضل أم على
الأرض ؟

والتحقيق : أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة ، من تعليم
المناسك واقتداء به وكان أعون على الدعاء ، ولم يكن فيه ضرر على الدابة .

وحرامه : الركوب في معصية الله عز وجل .

ومكروهه : الركوب للهو واللعب وكل ما تركه خير من فعله .

ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ولا تحصيل وزر

والمباح : ما لا منع فيه من الله ولا تبعه ، ولا فيه مصلحة دينية ، ولا تتعلق
له بالشرع .

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس ، فاللمس الواجب ، كلمس
الزوجة حين يجب جماعها والأمة الواجب إعفافها .

والحرام : لمس ما لا يحل من الأجنبية . .

والمستحب : إذا كان فيه غض بصره ، وكف نفسه عن الحرام ،
وإعفاف أهله .

والمكروه : لمس الزوجة في الإحرام للذة .

وكذلك في الاعتكاف ، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه .

ومن هذا لمس بدن الميت - لغير غاسله - لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة
الحى تكريما له ، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله فى قميصه فى أحد
القولين ولس فخذ الرجل إذا قلنا هى عورة .

والمباح : إذا لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية .
وهذه المراتب أيضا مرتبة على البطش باليد ، والمشى بالرجل .
وأمثلتها لا تخفى فالتكسب المقدور للتفقة على نفسه وأهله وعياله :
واجب . وفى وجوبه لقضاء دينه خلاف . والصحيح : وجوبه ليمكنه من
أداء دينه ولا يجب لإخراج الزكاة وفى وجوبه لأداء فريضة الحج نظر . والأقوى
فى الدليل وجوبه لدخوله فى الاستطاعة : وتمكنه بذلك من أداء النسك
والمشهور عدم وجوبه . ومن البطش الواجب : إهانة المفطر ، ورمى
الجمار ، ومباشرة الوضوء والتيمم . .

والحرام : كقتل النفس التى حرم الله قتلها ، ونهب المال المعصوم ،
وضرب ما لا يحل ضربه ، ونحو ذلك ، وكأنواع اللعب المحرم بالنص
كالنرد ، أو ما هو أشد تحريما منه عند أهل المدينة . كالشطرنج . أو مثله
عند فقهاء الحديث كالإمام أحمد وغيره ، أودونه عند بعضهم . ونحو كتابة
البدع المخالفة للسنة تصنيفا أو نسخا ، إلامقرونا بردها ونقضها وكتابة الزور
والظلم والحكم الجائر والقذف والتشيب بالنساء الأجانب وكتابة ما فيه
مضرة على المسلمين فى دينهم أو دنياهم . ولا سيما إن كسبت عليه مالا
﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ ^(١) وكذلك كتابة
الفتى على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله ، إلا أن يكون مجتهدا غططا
فالإثم موضوع عنه .

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء هى القلب واللسان ، والسمع

(١) سورة البقرة : ٧٩

والبصر ، والأنف ، والفم ، واليد والرجل ، والفرج والاستواء على ظهر الدابة (اهـ)^(١) .

وهذا التفصيل وبذلك البيان الدقيق العميق يتجلى ويتبين لنا كيف شملت العبادة في الإسلام كيان المسلم كله ، ظاهره وباطنه ، سره وعلانيته ، وجعلته في عبادة دائمة في جميع حالاته وكافة شئونه ، وهذا يكون قد حقق عبوديته ، وحقق أو تحقق بقول الله عز وجل : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾^(٢) .

ثانيا : شمول العبادة للحياة جميعها وللدين كله :

ليست العبادة في الإسلام ، انزواء وانطواء أو عزلة عن الحياة والأحياء وانقطاعاً عن الناس للقيام ببعض الشعائر كالصلاة والذكر ، والاستغفار ، والدعاء ، كما يتصور بعض الناس ، ويظنون أنهم إذا قاموا بذلك منقطعين مبتعدين عن الحياة والأحياء فهم العباد وأنهم أحباب الله وأنهم القائمون بحق العبودية لله فهذا مفهوم خاطيء للعبادة وقاصر .

هذه الشعائر المتمثلة في الصلاة والزكاة والحج والصيام والذكر والدعاء والاستغفار نوع من العبادة وليست كل العبادة المطلوبة .

فمفهوم العبادة في الإسلام أرحب وأشمل وأدق وأعمق من هذا التصور المحدود المحدود : إن العبادة في الإسلام تشمل الدين كله والحياة بأسرها كما شملت كيان الإنسان كله من قلب وسمع وبصر ونظر . إلى آخر ما تقدم بيانه .

(١) مدارج السالكين ١ / ١٢٢

(٢) سورة الفاتحة : ٥

العبادة اتباع لقانون الله

حقيقة العبادة : هي العبودية لله تعالى ، أن تكون عابدا لمعبود واحد وأن تكون خاضعا لإله واحد لا رب لك غيره ولا معبود لك سواه هو ربك وأنت عبده فلست خاضعا لهواك ، ولا لأحد من المخلوقات .

فكل عمل تعلمه وكل فكرة تنفذها ، وكل اتجاه تسير فيه ، وكل وجهة يمت وجهك نحوها فهي لله وحده . فأنت إذا أمرت بالمعروف وقلت الحق ، ونطقت الصدق ، وأصلحت بين المتخاصمين وقلت للناس حسنا فكلامك هذا عبادة كالصلاة والصيام ، وإذا اجتنبت الكذب والغيبة والنميمة وغيرها من الرذائل مستحضرا أن الذي نهاك عن هذا هو الله وحده ، فهذه عبادة ، كذلك إذا أكلت أو شربت أو نمت أو استيقظت أو باشرت عملك أو رجعت منه من أكبر أمر إلى أصغره ، ومن قليله أو كثيره والمقصد لله ، والمتوجه إليه هو لا غيره كل ذلك يصبح عبادة .

فكل عمل تقصد به وجه ربك يصبح عبادة ولو كان عملا دنيويا بحتا .

وخلاصة الكلام : أن إلهك الذي آمنت به وصدقت بوجوده وحكمته ، وعلمه وقدرته وفضله ورحمته ، وصدقت بالكتاب الذي جاءك من عنده ، والوصايا الصادرة منه إليك على السنة رسله وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وخضعت لقانون ربك ومنهجه في الحياة مصدقا أن هذا الرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالحق من الله الحق . بأمرك أن تنفذ وأنت بمقتضى إيمانك نزلت على حكمه ، ورضيت أمره وأحببت ما شرع ولو كان فيه مخالفة لما تهواه ، وما تريد . بل لا يتم لك الإيمان ، ولا تتم لك العبادة حتى يكون هواك تبعا لما جاء

به رسولك ﷺ ، يقول عليه الصلاة والسلام : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً » ^(١) ومن رضى بالله رضى بحكمه ونفذ أمره وهجر نهيه وهو فى غاية الرضى والانقياد وفى غاية الخضوع المقرون بغاية المحبة والخشية ، والا فليدع غير الإيمان وغير العبادة ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً ﴾ ^(٢) ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ ^(٣)

وبعد ذلك تكون هذه العبادات المفروضة بمثابة نماذج للتربية للعبادة الكبرى المنشودة ، ومن أجل ذلك كانت هذه العبادات التى افترضها الله علينا كأسس للعبادات الأخرى الشاملة للإِنسان والحياة والدين كله .

يقول الإمام ابن تيمية فى شأن العبادة ، عندما سئل عن قول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ ^(٤) ما العبادة ؟ وما فروضها ؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا : وما حقيقة العبودية : وهل هى أعلى مراتب المقامات فى الدنيا والآخرة أم فوقها شئ من المقامات ؟

ولييسط لنا القول فى ذلك . فقد أجاب رحمه الله بإجابة مسهبة تضمنتها رسالته العبودية . قال رحمه الله :

العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة ، وبر

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) سورة النساء : ٦٥ .

(٣) سورة الأحزاب : ٣٦ .

(٤) سورة البقرة : ٢١ .

والوالدين ، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الأدميين ، والبهاائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله ، وخشيته والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة .

وذلك : أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإانس إلا ليعبدون ﴾ ^(١) وبها أرسل الله جميع الرسل كما قال نوح لقومه ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ^(٢) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ^(٥) كما قال في الآية الأخرى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ^(٦)

وجعل ذلك لازما لرسوله ﷺ إلى الموت كما قال : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ^(٧) وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى : ﴿ وله من

(١) سورة الذاريات : ٦٥

(٢) سورة الأعراف : ٧٣

(٣) سورة النحل : ٣٦

(٤) سورة الأنبياء : ٢٥

(٥) سورة الأنبياء : ٩٢

(٦) سورة المؤمنون : ٥٢، ٥١

(٧) سورة الحجر : ٩٩

في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون
يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴿^(١) وقال تعالى : ﴿ إن الذين عند ربك
لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾^(٢)
وذم المستكبرين عنها بقوله : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن
الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾^(٣) ونعت صفوة
خلقه بالعبودية له فقال تعالى : ﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها
تفجيرا ﴾^(٤) وقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا
خطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾^(٥) .

وهذا الشرح المستفيض ، وبذلك الكلام النفيس الممتع ، والإجابة
الشافية نرى الإمام ابن تيمية يتوسع في الشرح والبيان حتى يجعل العبادة
بمعناها الواسع الشامل تتسع لتشمل الفرائض والنوافل ، والأخلاق
والفضائل الإنسانية ، مما يكون بين الله والعبد ، وبين العبد والناس ،
وبين العبد ونفسه والعبادة شاملة للصلاة والزكاة وبقية الأركان ، مما بين
العبد ونفسه وما يتعدى للناس ، وشاملة لما بين العبد والناس من الإحسان
والبر بالوالدين والأقربين . . وإسداء المعروف بأوسع ما يتصور من صلة
الأرحام والعطف على الأيتام وإعطاء اليتيم والمسكين وابن السبيل .

كما شملت الأخلاق والفضائل التي تخص العبد وتعود على الآخرين
أيضا من صدق الحديث وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، والذكر والدعاء
والقراءة وغير ذلك ، كما شملت حب الله ورسوله ، وخشيته والإنابة إليه ،
وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ،

(١) سورة الأنبياء : ٢٠، ١٩ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٠٦ .

(٣) سورة غافر : ٦٠ .

(٤) سورة الإنسان : ٦ .

(٥) سورة الفرقان : ٦ .

والتسوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، كما شملت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهد للكفار والمنافقين .

ثم بين ابن تيمية أن العبادة هي الغاية المحبوبة والمرضية له والتي خلق الخلق لها ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ فالغاية التي أرادها الله من خلق الجن والإنس ، والوظيفة التي طلبها منهم أجمعين والتي من قام بها وأحسن أداءها فقد حقق الغاية من وجوده ، ومن أهملها أوحاد عنها فقد خرج عن الغاية وحاد عن الصراط المرسوم . والمنهج المحدد الذي يرسم الصلة بين الخالق والمخلوق بين العابد والمعبود ، أن يكون رب واحد معبود وإله واحد في كل اتجاه وفي كل نبضة وهمسة وحركة هو المقصود وأن تتلقى أوامره بالتسليم والرضى ، بالاستجابة والحب ، بالطاعة المطلقة لمن خلقه وسواه ثم الاستسلام التام لهذا المصحوب بالاعتناء واليقين ثم الالتزام بما عرف وما وجد وما وصل إليه .

وإذا كانت حياة العبد على هذا الأساس فقد حقق الغاية من وجوده ، وملاً الفراغ الذي شغله فأفاد واستفاد .

وهنا تظهر لنا سعة العبادة وشمولها وأن دائرتها أرحب وأوسع وأعم وأشمل مما استقر في أذهان بعض الناس أنها خاصة بالشعائر وحدها .

ولنأخذ لذلك مثلاً ، هذا نداء من الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ ^(١) .

ووقفه مع هاتين الآيتين الكريمتين نتبين منها كيف كانت الاستجابة لأمر الله ونداء الله وتوجيه الله عبادة فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض فإن الانتشار عبادة والابتغاء من فضل الله عبادة .

(١) سورة الجمعة : ٩ - ١٠

روى ابن كثير في تفسيره أن عراك بن مالك رضى الله عنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبته دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني فارزقني وأنت خير الرازقين ^(١) .

وروى عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة لقوله تعالى : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ^(٢)

وعليه فكل الأعمال التي تؤدي في الحياة من عبادات معروفة وشعائر معينة ومن كل عادات تعودنا من أكل وشرب ونوم ونكاح وماشابه ذلك تصبح عبادة بشرطين

١ - أن تكون على وفق شرع الله الذي عبدناه وعرفناه .

٢ - أن يكون المقصود والمتوجه إليه بها هو الله الخالق المعبود .

فإذا تم ذلك كانت عمارة الأرض كالجهاد ، والجهاد كالصلاة ، والصلاة كالصبر ، وبذلك تكون قيمة الأعمال مستمدة من بواعثها لا من نتائجها فالنتيجة موكولة إلى من نعبده وتحقيق العبودية إنما يفهم في قوله تعالى : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ ^(٣) .

(١) تفسيرات ابن كثير ٤ / ٣٦٧ والحديث رواه ابن أبي حاتم

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٦٧

(٣) الزمر : ١١ - ١٥

لمحات عن العبادة من القرآن الكريم

للقرآن الكريم لمحات ونفحاته ، وعلومه وأسراره ، التي تنطق لمن استنطقها وتدبرها : إنه كتاب حكيم ، من لدن حكيم خبير ، لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

والتدبر في القرآن الحكيم يرى أن مادة العبادة ، ومشتقاتها قد وردت في مناسبات مختلفة ، ولعان متنوعة ، وحملت في طياتها طائفة من العلوم والمعارف تتجلى لمن تدبر وتذكر ، ونظر واعتبر ، وكلها تؤكد طلب العبادة ، وتحذر من التفريط فيها .

فمن أبرز المقاصد التي جاءت هذه الكلمة لتؤكد لها خمسة :

الأول : أنها قد تكون أمرا صريحا من الله .. سبحانه وتعالى .. إلى الناس بعبادته شكرا على نعمه ، قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا ، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ ^(١) وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ^(٢)

وقد بلغ الرسل ذلك إلى أهمهم ، وحذروهم من الإعراض عنه أو التهاون فيه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(٣)

الثاني : وقد تأتي في معرض النعي على من عبد غير الله ، واتخذ إلهه

(١) سورة البقرة : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة الإسراء : ١٧ .

(٣) سورة النحل : ٣٦ .

هواه ، قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾ ^(١) ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ^(٢) ، ﴿ ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وساليس لهم به علم وما للظالمين من نصير ﴾ ^(٣) ، ﴿ اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ^(٤) .

الثالث : وقد تأتي في معرض تحذير العباد من الاستكبار عن طاعة الله ، وعبادته وتوعدهم بشديد العقاب ، وأليم العذاب . ﴿ لن يستكف المسيح أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استكفوا واستكبروا فיעذبهم عذابا أليما ولا يجسدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ ^(٥) ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ^(٦) .

الرابع : وقد تأتي في معرض المناظرة لمن عبد غير الله ، والمتبرئ من سوء مسلكه ﴿ قل يأياها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولأنتم عابدون ما أعبد ولأننا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم وإلى دين ﴾ ^(٧)

(١) سورة الفرقان : ٥٥ .

(٢) سورة يونس : ١٨ .

(٣) سورة الحج : ٧١ .

(٤) سورة التوبة : ٣١ .

(٥) سورة النساء : ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٦) سورة غافر : ٦٠ .

(٧) سورة الكافرون بتمامها .

وقد يساق هذا المعنى بصورة أخرى ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ ^(١)

وقد يكون التبرؤ من المعبودين للعابدين يوم القيامة : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا : سبحانه أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ ^(٢) قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون ﴾ ^(٣)

الخامس : وقد تأتى في معرض التقرير والذم لمن يعبدون الله الحاجة في أنفسهم ، غير متمكنين في الدين ، فإن ظفروا بحاجتهم ثبتوا واطمأنوا ، وإن فاتتهم جزعوا وتزلزلوا وارتدوا على أعقابهم ، فباءوا بالخسران ، وحق عليهم الخسران . ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ﴾ ^(٤) .

وإذا أضيفت كلمة « عباد » إلى اسم من أسماه تعالى أو ضمير يعود عليه سبحانه فذلك إيذان بتشرفهم بالإيمان به ، والانتساب إليه .

فإن تحدث القرآن عنهم فأحسن الحديث ، وأزكى الثناء ، وأطيب البشريات وإن خاطبهم فبالنصيحة لهم والشفقة عليهم بما يشعر بتلطفه بهم ، وتبشيرهم بالخيرات العاجلة والآجلة .

(١) سورة الممتحنة : ٤ .

(٢) سورة سبأ : ٤١ ، ٤٢ .

(٣) سورة القصص : ٦٣ .

(٤) سورة الحج : ٧١ .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ وهكذا يمضى القرآن في الثناء عليهم وسرد شئائهم . . ثم يختم ببيان عاقبتهم الحميدة ، وآخرتهم المجيدة السعيدة ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ﴾ .^(١)

﴿ والله رؤف بالعباد ﴾^(٢) ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾^(٣) ﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾^(٤) . ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾^(٥) ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾^(٦) ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنا ابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب ﴾^(٧) .

ولخواص عباد الله ألوان من العطاء بحسب قربهم من ربهم ، وكرمهم عنده : ﴿ قال فبِعزتك لأغوينهم أجمعين لإعبادك منهم المخلصين ﴾^(٨) ، ﴿ قال هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾^(٩) ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين

(١) سورة الفرقان = ٣٦ - ٧٥ .

(٢) سورة البقرة : وآل عمران (٢٠٧) (٣٠) .

(٣) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٤) سورة الانسان : ٦ .

(٥) سورة الزخرف : ٦٨ ، ٦٩ .

(٦) سورة العنكبوت : ٥٦ .

(٧) سورة الزمر : ١٧ ، ١٨ .

(٨) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ .

(٩) سورة الحجر : ٤٢ ، ٤٣ .

إنهم لهم المنصورون ، وإن جئناهم الغالبون ﴿ ١٧١ ﴾ .

وإذا استعملت كلمة « عبد » مضافة إلى لفظ الجلالة ، أو نحوه من اسم الله تعالى ، أو ضمير كان هذا إيذانا بأن ذلك العبد إنما هو محمد ﷺ ، وكان ذلك دليلا على أنه انفرد بمقام في العبودية ، ومنزلة في القرب من ربه ، لا يشاركه فيها غيره ، وكلما تكرر ذلك كان تأكيدا ، وتأيدا ، وتعديدا للأدلة ، إلى جانب ما قد يكون لإيثار استعمال كلمة عبد بدلا من غيرها من اسم كمحمد ، وأحمد ، أو صفة أخرى كرسول ، ونبي من لطائف وأسرار خاصة بالمقام الذي سيقف فيه . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (١) . . ﴿ واعلموا أنها غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . ﴾ (٢) ﴿ سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ (٣)

ففى إيثار استعمال كلمة « عبد » في هذا المقام إيذان بالسبب الذي من أجله أكرم النبي عليه الصلاة والسلام هذا الإكرام وهو تفرد بمقام خاص من عبودية لربه لا يشاركه فيه غيره .

وفيه كذلك حسم للقضية المشهورة التى تتكرر في مناسبة ذكرى الإسراء والمعراج وهى : أكان الإسراء بالروح والجسد ؟ أم كان بالروح فقط ؟ أم كان رؤيا منامية ؟ فإن هذه الآية تدل على أنه كان بالروح

(١) سورة الصافات : ١٧١ - ١٧٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٤١ .

(٤) سورة الإسراء : الآية الأولى .

والجسد ، لأن كلمة « عبد » إنما تستعمل في الإنسان بجميع جوانبه المادية والمعنوية بل هي في الجسد أظهر ، قال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ ^(١) والقيام : إنما هو لجسد يقوم ، ويقعد ، ويذهب ويحيى . وقال سبحانه : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ ^(٤) . ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ ^(٥) ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ^(٦) .

أما غير النبي ﷺ فإن القرآن يصرح باسمه ، قال تعالى : ﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ ^(٧) ، وقال : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ ^(٨) .

وربما ترك التصريح باسم نبي من الأنبياء ، لقيام قرينة قوية على تعيينه ، قال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر ﴾ ^(٩) فهذا العبد هو نوح عليه الصلاة والسلام إلا أن سبق ذكره في السياق اقتضى عدم تكرير ذكره ، فضلا عما في ذكره من تكرير تنبؤ عنه بلاغة القرآن .

(١) سورة الجن : ١٩

(٢) سورة الكهف : الآية الأولى

(٣) سورة الفرقان : الآية الأولى

(٤) سورة الحديد : ٩

(٥) سورة الزمر : ٦٣

(٦) سورة النجم : ١٠

(٧) سورة ص : ٤١

(٨) سورة ص : ١٧

(٩) سورة القمر : ٩

وهكذا : ما من أحد يتدبر القرآن الكريم إلا وسيفتح الله له أبوابا من العلوم ، والمعارف ، والأسرار ، واللطائف : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ .^(١)

(١) سورة ص: ٢٩

الفصل الأول

العبادة حق الله على عباده

عرفنا فيما سبق أن الله تعالى هو الخالق الرازق ، المسخر للمخلوقات لتكون في خدمة الإنسان ، وأن على الإنسان أن يتعرف إلى خالقه ، ومالك أمره ، ومدير شأنه ، ومصلح أحواله ، وأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ، فما حقه سبحانه على عباده ؟

حقه سبحانه عليهم أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، وقد أمرهم بذلك في قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ ^(١) . وبقوله : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ ^(٢) . فهو سبحانه صاحب الفضل في الإيجاد والإمداد ، في الخلق والرزق ، في الملك والتسخير : الأمر أمره ، والحكم حكمه ، والسلطان سلطانه ، ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ ^(٣) . ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ^(٤) . ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ^(٥) .

وفي الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبي - صلى الله عليه وسلم - على حمار ، فقال لى : « يا معاذ : أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم قال : أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » .

وإذا فكر العبد في آلاء الله المتتالية ، ونعمه الكثيرة ، ونظر في فضله

(١) سورة النساء : ٣٦ .

(٢) سورة البقرة : ٢٢ ، ٢١ .

(٣) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٤) سورة النحل : ٥٣ .

(٥) سورة إبراهيم : ٣٤ .

السابق ، وجوده وكرمه قديما وحديثا أذهلته النعم ، وجعلته ينطق : لك الحمد ياذا المن والجود ، والعطاء الذى ليس له حدود ، خلقتنى من العدم ، وأمددتنى بأسباب الحياة ، وصورتنى فى أحسن صورة ، ورزقتنى من الطيبات ، وأرسلت لى الرسل ، وأنزلت من أجلى الكتب ، وسخرت لى ما فى الوجود ، وفضلتنى على كثير ممن خلقت تفضيلا . . وجعلت لى الأرض قرارا والسماء بناء ، فأنت المستحق للعبادة وحدك لا شريك لك .

وقد امتن الله تعالى على الإنسان فى كثير من آى القرآن مبينا له ماوهبه ، وما أعطاه ، لعله أن يفكر وينظر ، فتنفعه الذكرى ، وتعرفه حق خالقه ، ورازقه ، والذى أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد كرمتنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ ^(١) . ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ ^(٢) . ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ ^(٣) . وإذا كان هذا بعض ما أسداه إلى الإنسان خالق الإنسان فحقه سبحانه عليه ، أن يعبد ، مخلصا له الدين ، وأن يتضرع إليه ، ويتوكل عليه ، ويستلهمه أن يعينه على تحقيق العبودية فيقول : ﴿ إياك نعبد ، وإياك نستعين ﴾ ^(٤) لأن العبادة هى الغاية من خلقه ، فهو دائما يطلب من ربه أن يوفقه لأداء هذا الحق ، والقيام بهذه المهمة ، وإنما يتأتى هذا من

(١) سورة الاسراء : ٧٠ .

(٢) سورة غافر : ٦٤ .

(٣) سورة يونس : ٣٢، ٣١ .

(٤) سورة الفاتحة : ٥ .

نور الله بصائرهم ، وشرح صدورهم ، فعرفوا حق المنعم فهتفوا بذكره ، وهامت قلوبهم بحبه ، وخضعت جوارحهم استجابة لأمره ، وهم مع كل ذلك يرجون رحمته ، ويخافون عذابه يدعونه رغبا ورهبا فلم يشركوا به غيره ، ولم يتخذوا من دونه وليا ولا نصيرا ، لأنهم يستحضرون كلامه : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ ^(٢) .

أما الذين أصابتهم الغفلة وسيطر عليهم الجحود ، فكفروا بالله ووجدوا نعمه ، وأنكروا فضله ، واتخذوا من دونه أندادا ، فهؤلاء هم شرار الخلق : ﴿ إن شر السدواب عند الله الصمم البكم الذين لا يعقلون ﴾ ^(٣) ، ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ ^(٤) ، ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ^(٥) ، ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ ^(٦) ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ^(٧) .

وإذا كان حق الخالق على المخلوقين أن يعبدوه لأنه مالك الدار وساكنها وهو المسيغ على كل مخلوق مابه قوام حياته ، وأسباب وجوده ، فإن

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) سورة البقرة : ٥ .

(٣) سورة الأنفال : ٢٢ .

(٤) سورة الفرقان : ١٤ .

(٥) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٦) سورة القصص : ٥٠ .

(٧) سورة الأحقاف : ٥ ، ٦ .

من تمام هذا الحق أن يكون التوجه له وحده لا شريك له : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ ^(١)
ولهذا فإن الله تبارك وتعالى قرن بين الأمر بعبادته ، وبين النهي عن اتخاذ الأنداد ، فقال : ﴿ فلا تتخذوا من دون الله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ ^(٢) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » ^(٣) .
وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت : فقال : « أجعلتنى لله ندا ؟ قل : ما شاء الله وحده » رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجه : وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ... ﴾ ^(٤) الآية .

وعن الحارث الأشعري أن نبي الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وإنه كاد أن يبطيء بها ، فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، فلما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن ، فقال يا أخى إني أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى ، قال : فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعدها على الشرف ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن . أو لمن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به

(١) سورة غافر : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ٢٢ .

(٣) أخرجه الشيخان .

(٤) سورة البقرة : ٢١ .

شيئا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكمن يسره أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا . . . » (١)

الحديث .

ومن رحمته أن دعاهم إلى طاعته ، وأوصاهم بعبادته ، وهو غنى عنهم ، يسيئون فيغفر ويستر ، ويقصرون فلا ييشهم من رحمته : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (٢) .

فوجب عليهم ذكره وشكره ، وطاعته ومحبته وعبادته ، ويتمثل الشكر في عجمه : في استعمال المواهب فيما خلقت من أجله وإنما يتحقق ذلك بأمور :

أولها : الإيمان الكامل بوحداية الله ، وعلمه ، وقدرته ، وأنه الأول والآخر والظاهر ، والباطن وأنه بكل شئ عليم ، ومؤدى هذا الحق الشهادة بأنه لا إله إلا الله ثم على العبد أن يكمل إيمانه بمعرفة ربه بالتأمل والتدبر لما في القرآن الكريم ، والسنة المطهرة من صفات عفوهِ وإحسانه ، وجوده ، وكرمه ، وهيمته ورقابته ، وأنه سميع بصير ، عليم خبير على كل شئ قدير ، وهو سبحانه لمن آمن به ، وتوكل عليه نعم المولى ونعم النصير .

ثانيها : الإذعان الكامل لكل ما جاء عنه من الحق والهداية ، ويتم ذلك بالإيمان بأن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ .

ثالثها : أن يطاع الخالق فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، ويكون ذلك بالتزام ما جاء به القرآن الكريم وما بينته سنة النبي

(١) تفسير ابن كثير ٥٨/١ قال ابن كثير : هذا حديث حسن

(٢) سورة الزمر : ٥٣

العظيم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . قال عليه الصلاة والسلام :
« ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً
ورسولاً » (١)

بتحقيق مائقدم ؛ يكون العبد قد عرف حق الله في العبادة ،
فاستجاب لأمره ، ونفذ وصاياه ، ورضى به ربا وخالقاً ، ورازقاً ومالكا ،
ورضى بالإسلام الذى بعث الله به رسله وصفوه خلقه ديناً ، ورضى بسيدنا
محمد ﷺ نبياً ورسولاً ، فذاق حلاوة الإيمان ، وحقق طاعة الله وعبادته ،
كما يحب الله ويرضى ، وكلما ازداد في العبادة والطاعة ، كلما أوجب ذلك
عليه شكراً لمن أعانه ووقفه . يقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :
ذكر النعمة شكر ، مادلت النعم على محبة المنعم . .

ولو تأمل المتصف هذه الآيات في سورة النمل لامتلاً يقيناً بفضل الله
الذى لا يبعد ، ونعمائه التى لا تحصى ، وعطاياه التى لا تنفذ وخيره المتدفق
الذى لا يفيض .

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما
يشركون ؟ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا
به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أهله مع الله ؟ بل هم
قوم يعدلون ﴾ أى يعدلون بالله غيره من آلهتهم المزعومة وأربابهم المدعاة
﴿ أمن جعل الأرض قراراً ﴾ ثابتة مستقرة ليتمكن العيش على ظهرها
﴿ وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ﴾ الجبال - ﴿ وجعل بين
البحرين حاجزاً ﴾ - جعل الملح والعذب عند التقائهما بحيث لا يختلط
أحدهما بصاحبه اختلاطاً يؤدي إلى تضييع عذوبة العذب ﴾ أهله مع الله
بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

(١) أخرجه مسلم

والجهل مصيبة المصائب يعكس الأوضاع ، ويقلب الأمور ، ويعطى الحق لغير مستحقه ، والعبادة ، لغير خالقها ، ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أأله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون ﴾ .^(١)

والغفلة سدت منافذ الفكر ، وأفقدت القلوب والأبصار والأسماع خصائصها : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾^(٢) ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها . . . ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .^(٣)

ثم يقول سبحانه : ﴿ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ مبشرة بنزول المطر ﴿ أأله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أأله مع الله ﴾ فعل هذا ، وعلى الرغم من ذلك ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ .^(٤) والواقع أنه لا حجة ولا برهان ، ولذلك قال العليم الخبير : ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾^(٥) والآيات بروعتها وجلالتها ، وبما تنير في قلب الإنسان مما يراه ويشاهده في الكون والنفس ، وما يحيط به من نعم هو عنها غافل وذاهل لعله يذكر ؛ فتنبه الذكرى ، فتزول الغشاوة عن الفطرة ، وترفع الأكنة عن القلوب ،

(١) سورة النمل : ٥٩ - ٦٢

(٢) سورة الفرقان : ٤٤

(٣) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٤) سورة النمل : ٦٣ - ٦٤

(٥) سورة المؤمنون : ١١٧ .

فتعترف صاحب النعم ، ومصدر الكرم ، فتراه هو الحقيق بأن يعبد ، والجدير بأن يقصد ، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون إن من قرأ هذه الآيات وأمثالها - وكان فيه شيء من الإنصاف - فإنه يعود لتوه سريعاً ، معترفاً بالآلاء ، شاهداً بآثار القدرة ، والرحمة مقراً بالتوحيد ، ساعياً إلى بذل العبادة لمستحقيها بعد أن قامت الأدلة عنده في النفس والآفاق بعظمة المعبود ، ووضحت أمامه الأسس التي قام عليها هذا الحق ؛ فأدرك أنه لا خلاص إلا بالفرار إلى الله والالتجاء إليه وأنه منه المبدأ وإليه المصير.

﴿ الله السدى خلقكم ثم رزقكم ثم يميئكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ^(١) ويقول ابن كثير عند تفسيرها : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ أى : هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً ، لا علم ، له ولا سمع ، ولا بصر ، ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك ، بعد ذلك من الرباش واللباس والأملأ والمكاسب كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن سلم بن شرحبيل عن حبة وسرار ابني خالدة قال : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعناه ، فقال : « لا تيشا من الرزق ما تهرزت رموسكيا ؛ فإن الإنسان تلده أمه أحر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل ». وقوله تعالى : ﴿ ثم يميئكم ﴾ أى بعد هذه الحياة ﴿ ثم يحييكم ﴾ أى يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ هل من شركائكم ﴾ أى الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ أى : لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة : ولهذا ، قال بعد هذا كله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أى تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو ولد أو والد بل هو الأحد الفرد

(١) سورة الروم : ١٠

الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد^(١) .

فهو السيد المعبود ، والإله المقصود ، لا يستحق العبادة سواء ، ولا يستعان بغيره ولا حول ولا قوة إلا به .

وهنا يخطر سؤال . متى يعرف الإنسان حق ربه عليه فى أن يعبد ، وحده ؟

والجواب : من السهولة أن يعرف العبد ذلك إذا استعمل عقله الذى وهبه له صاحب الحق عليه ، وهو الله تعالى ، وبهذا العقل كلف الله العباد ، وخاطبهم ؛ فالمجنون غير مكلف ولا مخاطب ، وهناك من الغوا عقولهم ، وطرحوا نعمة الله وراء ظهورهم فجعلوا الموهوب كالمعدوم ، والمنوع كالمسلوب : لهم عقول ولكنهم لا يستفيدون بها ومنها ، ويوم القيامة يقولون كما حكى الله عنهم : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾^(٢) ولو انتفعوا بعقولهم لعرفوا وأدركوا حق الله عليهم ، فاستجابوا له ؛ فسعدوا ؛ وكانوا من الذين استجابوا لربهم وهؤلاء لهم الحسنى ولهم الحياة الطيبة ، ولكنهم لما أهملوها ؛ استحقوا أن يكونوا من أصحاب السعير : ﴿ والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾^(٣) .

ومن ذلك نفهم أن الناس فريقان :

الفريق الأول :

قدّر النعمة ، وأدرك فضل مسديها ، واستدل بالنعمة على المنعم ، وإن أدنى نظرة فى هذه الآيات وأمثالها - وهى كثيرة فى القرآن الكريم -

(١) تفسير ابن كثير : ٤٣٤/٣ ، ٤٣٥ .

(٢) سورة الملئك : ١٠ - ١١ .

(٣) سورة الرعد : ١٨ .

وبالصنعة على الصانع ، والأثر على المؤثر ، فساقته المقدمات المقبولة إلى النتائج السليمة ففكر وقدر ونظر فأبصر ؛ فاستفاد من الآيات . وهذا النوع ، وذلك الفريق : هو الذى عقل عن الله ، فما من آية تمر عليه ، أو يمر عليها ، إلا وينظر فيها ويتأمل ؛ فيعود مملؤا مشدوها معربا مقرا معترفا بصاحب الفضل والجود ، والقدرة الباهرة والعظمة التى ليس لها حدود .

وقد ذكر الله تعالى بعض الآيات التى خلقها وبعض النعم التى أسداها لعباده ، فى السماوات والأرض كما تحدث عن البداية والنهاية : عن الحياة والموت عن اختلاف الليل ، والنهار .

وختم هذه الآيات بالحديث عن العقل ، فمثلا يقول سبحانه : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .^(١)

والمراد بالآيات الدلالات البينات على قدرة القادر ، وعظمته ، ووحدانيته . ويقول سبحانه : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .^(٢)

ويقول جل شأنه : ﴿ وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ .^(٣) فأين عقولكم ؟ أفقدتموها أو الغيتموها فلم توصلكم ولم تدلكم على العليم القدير ثم يقول سبحانه : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ، أى : وما يفهمها ، ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم ، المتصلعون فيه .^(٤)

(١) سورة البقرة : ١٦٤

(٢) سورة الروم : ٢٥

(٣) سورة المؤمنون : ٨٠

(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ صفحة ٤١٤

وإن أدنى نظرة في هذه الآيات وأمثالها - وهي كثيرة في القرآن الكريم -
 لتهدى وتوصل إلى معرفة الله تعالى ، ومن عرف الله ، وعقل عنه عظمت
 معرفته ، وازداد علمه ؛ فقدر الله قدره ، وأجله ، وعظمه وأثنى عليه
 وبجده ، فسبح بحمده ، ولهج بذكره .
 ومن كان لله معظما ، كان لله مجلأ هائبا ، وإذا كان لله مجلأ هائبا كان
 منه مستحييا ، وإلى طاعته مسارعا ، ولساخطه مجانبا ، وكان معظما لما ينال
 به النجاة من العقاب والظفر بالشواب عني بطلب العلم ، ورغب في الفهم
 والعقل عن الله عز وجل بكبر همته ، وإذا عني بطلب العلم بذلك ؛
 استدل به على عظيم قدر المولى وقدر ثوابه وعقابه . وإذا استدل على ذلك
 أبصرو فهم حقائق معاني البيان وإذا فهم وعقل عظيم قدر المولى وهيبه ،
 عرضه على الله سبحانه ، وثوابه ، وعقابه ، وإذا عظم قدر ذلك ؛ هاب
 الله تعالى ، وفرق - خاف - ورجا ، واشتاق فكأنها يعاين ذلك (أى يعاين
 الشواب والعقاب وأسباب الهيبة والتعظيم) كراى العين ؛ فكان عن الله
 تعالى عاقلا ، ويسمى ذلك منه عقلا إذ كان بالعقل طلب ذلك ، وبالعقل
 فهم ذلك ، وبالعقل جابن ما يزيله عن ذلك ، فهذا الذى عن ربه . ألم
 تسمعه عز وجل يقول : ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ قال : أذن عقلت على الله
 تعالى ، يعنى عقل عن الله ماسمعت أذناه ما قال وأخبر فهذا هو
 العقل .^(١)

فصاحب العقل هو الذى عقل بحق عن الله واستفاد وأفاد ورجع بعد
 التأمل وتقليب الأمور على وجهها بالنتائج السليمة المقبولة فى الكتابين :
 المسطور ، والمنظور وفى الأنفس والأفاق بان له ربا خالقا رازقا محييا مميتا منعما
 لطيفا ، سميعا بصيرا ، قويا عزيزا ، غالبا قادرا ، عليما ، خبيرا ، حيا ،
 قيوما ، لا تأخذه سنة ، ولا نوم ، يجير ولا يجار عليه ، يطعم ولا يطعم ،

(١) المسائل فى أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل ، صفحة ٢٤٢

يمنح ويعطى ، ويعز ويذل ، بيده ملكوت كل شيء ، تنزه عن كل ما يخطر بالبال ، وهو شديد المحال ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك وهو اللطيف الخبير .

الفريق الثانى :

ما قدر الله حق قدره ، بل جحد النعمة والمنعم وغفل عن آيات الله ، ونسى الله نفسه الله ، فكان من حزب الشيطان وهو من الخاسرين فهو غير عاقل عن الله عز وجل وهو عاقل للبيان الذى لزمته من أجله الحجة ، وقد وصف الله عز وجل من هذا فى كتابه رجالا وسمى لهم عقلا فقال تعالى : ﴿ لهم قلوب لا يعقلون بها ﴾ .

قال عز وجل : ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾ ، يعنى عقولا ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يحجدون بآيات الله ﴾ ^(١) ثم سمي بعض الكفار من أهل الكتاب عاقلا للبيان الذى لزمته به الحجة فقال تعالى : ﴿ يحرفونه عن بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ ^(٢) فأخبر أنهم لا يعقلون يعنى عنه ، وعن عظيم قدره المبين عنه ثم قال : ﴿ يحرفونه من بعد ما عقلوه ﴾ يعنى : عقل البيان . ^(٣)

والخلاصة أن من استعمل عقله ، ونظر فأبصر ، وتبصر فتذكر ؛ فنفعته الذكرى ، فعرف أنه فقير ذليل محتاج ، وأن له رباً غنياً قوياً عزيزاً قديراً فآمن به ، وصدق ما جاء به رسله ، فاستجاب لأمره ، ورضى حكمه عن علم وبصيرة ، ووعى وإدراك ؛ فعقل عن الله ، واستجاب لهديه فلا خوف عليه ولا حزن ؛ لم يخضع عقله لهواه ، ولم يطوع فهمه للتقليد للآباء

(١) سورة الأحقاف : ٢٦

(٢) سورة البقرة : ٧٥

(٣) المسائل فى أعمال القلوب والجوارح : ٢٤

الذين اتخذوا من دون الله أندادا آلهة ، فأعطوا الحق لغير أهله فكان مثلهم
كما قال الله في كتابه : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل
العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لوكانوا
يعلمون ﴾ . (١)

وإذا كان بيت العنكبوت لايدفع عنها ، ولايصد منها من يد تمتد
إليها ، فكذلك ما يعبد من دون الله لايدفع شرا ولايسوق خيرا .

﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن
يسلبهم الذباب شيئا لايستقذوه ، منه ضعف الطالب والمطلوب ،
ماقدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ (٢)

كما يقول الله سبحانه حاكيا عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام :
﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون
إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله
لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه
ترجعون ﴾ (٣)

(١) سورة العنكبوت : ٢٥

(٢) سورة الحج : ٧٤، ٧٣

(٣) سورة العنكبوت : ١٦ ، ١٧

الفصل الثانى
تنوع العبادات وما فيه من
حكم وأسرار ولطائف

الله لطيف بعباده ، هو خالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم ، لا ينسى منهم أحدا ، لكل مخلوق رزقه وعطاؤه ، سواء في ذلك المحسن والمسيء ، والبر والفاجر : ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾ ^(١) ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ^(٢) ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ ^(٣) .

وفضله سبحانه لا يعد ، ونعمائه لا تحصى ولا تحد ، وما من نعمة ظاهرة أو باطنة ، دقيقة أو جليلة ، إلا وهى من فيض فضله ابتداء ، وإلى حكمته ورحمته يرجع أمرها دوماً وانتهاء ، ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله . . ﴾ ^(٤) ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ^(٥) .

وحق صاحب الآلاء والنعم ، وأجساد الكرم ، والأيدى المتوالية المترادفة التى لا تنقطع ، أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وثمرة ذلك عائدة فى العاجلة والآجلة على الذاكرين الشاكرين ، وويل الإعراض عنه محيط بالغافلين الجاحدين ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ ^(٦) ، ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾ ^(٧) ومن كلمات نبي الله سليمان التى حكها القرآن

(١) سورة الاسراء : ٢٠

(٢) سورة الروم : ٤٠

(٣) سورة هود : ٦

(٤) سورة النحل : ٥٣

(٥) سورة إبراهيم : ٣٤

(٦) سورة إبراهيم : ٧

(٧) سورة لقمان : ١٢

عنه حين جاءه ، الذى عنده علم من الكتاب يعرش بلقيس من بلاد اليمن إلى البيت المقدس في طرفه عين أنه ﴿ قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنها يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ . ^(١) ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ . ^(٢)

وفي الحديث القدسي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني ؛ أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني ؛ أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني ؛ أكسكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري ؛ فتضروني ، ولن تبلغوا نفي ؛ فتنفوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ؛ فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم بإياها ، فمن وجد خيرا ؛ فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » . ^(٣)

من ذلك نعلم أن الله غني عن العالمين ، لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصي ، ولكن العبد هو الذي يجني ثمرة الطاعة ،

(١) سورة النمل : ٤٠

(٢) سورة محمد : ٢٨

(٣) رواه الإمام مسلم ١٣٢/١٦ (باب تحريم الظلم) قال سعيد كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه . وعن الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه ورواه قال : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث .

عزا وسعادة وطمأنينة في الدارين ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) . ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأُولَئِكَ يُدْخِلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ ^(٢) . ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ ^(٣) .

والعبد هو الذي يتجرع مرارة المعصية علقها وصابا ، وقلقا واضطرابا في الحياتين ﴿ من يعمل سؤا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ ^(٤) ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقنا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ، قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ﴾ ^(٥) . ﴿ فليس شيء من خلق الله أظلم ولا أخط ، ولا أسوأ ولا أحقر ، ممن اتخذ من دون الله وليا أو نصيرا ، فعبد غير الله ، وكذب بآيات مولاه ، وجحد وعصى وأساء وافترى ، وبخسل واستغنى ، فكان جزاؤه أن يحق عليه وعيد الله : ﴿ فستيسره للعسرى ﴾ ، ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ^(٦) . ﴿ ومن أظلم من افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين

(١) سورة النساء : ١٢٤

(٢) سورة النحل : ٩٧

(٣) سورة فصلت : ٣٠

(٤) سورة النساء : ١٢٣

(٥) سورة فاطر : ٣٩ - ٤١

(٦) سورة الصف : ٧

كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبنفونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ماكانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لاجرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴿ ^(١) ﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴿ ^(٢) ﴾ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴿ ^(٣) ﴾ .

إن من ينظر الى الحال والمآل ، ويستحضر العقابة التى لا مفر منها ، والمصير الذى لا ريب فيه ، فإنه يرى الناس مختلفين أشد الاختلاف ، ويدرك أنهم ليسوا سواء فى حياتهم ، فالمؤمنون فى حياة طيبة مستقرة ، فى رحمة وارفة الظلال ، فى هدوء وسكينة ، وأمن وطمأنينة ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ، بينما الآخرون فى حياة النكد ، ونكد الحياة فى قلق واضطراب ، فى تعاسة لاحدود لها ، لا راحة ولاهدوء ، ولا سكينة ، ولاطمأنينة ، بل معيشة ضنك ، وذلل وضعة ، وبلاء ووحشة ، حتى لقد يحيل لمن يراهم أنهم فى بحبوحة من العيش ، وجنة من السعادة والصفاء ، ولكن لا تحسبهم فى نعيم فجسومهم فى جنة وقلوبهم فى نار ، ولعمرو الحق إنه خيال أن تكون جسومهم فى جنة ، وقد فارق القلوب النور وحلت فيها النار ، إن النار التى فى القلوب تحرم أصحابها التمتع بشئ من اللذة ، والإحساس بأى نوع من أنواع السرور ، اللهم إلا كما تتمتع البهائم الرتع التى لا تعرف من الهموم إلا هم بطنها وغرائزها : ﴿ ^(٤) ﴾ والذين كفروا

(١) سورة هود : ١٨ - ٢٢

(٢) سورة الزلزلة : ٨

(٣) سورة النساء : ٤٠

يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم ﴿ (١) .

وإذا كان لا يستوى بالنظرة المجردة وبحكم العقل حياة الطرفين وجزاء الفريقين فإن من غير المتصور ولا المعقول ان يستوى عند الله الخبيث والطيب والصالح والغوى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (٢) ﴿ أفتجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون ﴾ (٣) ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ، قليلا ما تتذكرون ﴾ (٤) ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (٥) .

فأمن أهل السعادة برهم ، واستجابوا له ، واتبعوا رسله ، وعزروهم ونصروهم واهتدوا بهديهم ؛ وساروا في ضوء نورهم - وأولئك هم الذين أفلحوا وفازوا وأولئك هم الذين هدى الله : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ (٦) .

لذلك أدرك العقلاء الذين انتفعوا بالهبات الإلهية أنه لانجاة ولا فوز إلا بسلوك طريق الله ، ذلك الطريق المأمون الذي جاء به الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام .

وقد ختم الله الرسالات وأكمل الدين والنبوات ، ونعم مكارم الأخلاق

(١) سورة محمد : ١٢

(٢) سورة ص : ٣٨

(٣) سورة القلم : ٣٥ - ٣٦

(٤) سورة غافر : ٥٨

(٥) سورة المجادلة : ٢١ - ٢٢

(٦) سورة النحل : ٣٦

بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وبشريعته السمحة السهلة شريعة
الفطرة ، وبكتابه العلى الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وإنما استجاب لدعوته ، وأمن برسالته ،
وضحى فى سبيل دعوته أهل الخير والهداية الذين آثروا ما عند الله على
أهوائهم ورغائبهم ، واختاروا الآجلة بدل العاجلة فخضعوا لله مختارين ،
واستجابوا لهدايته راضين ، وعبدوه وخصوه بما ينبغى له من التقديس
والتنزيه ، والإجلال والتعظيم وأدوا ماكلفهم به من غير ضيق ولا حرج ،
ولا تأفف ولا ضجر ولا ملل ولا سأم) .

ومن حكمته سبحانه أن نوع لهم العبادة ، وفتح لهم أبوابا كثيرة من
الخير يتقربون بها إليه ، ويلتمسون بها مزيد فضله ورضاه ، لحكم جليلة ،
وغايات سامية ، لئن كان فى وسعنا التعرف إلى بعضها ، فإنه ليس فى
استطاعتنا استقصاؤها واستيعابها وإنما نشير إلى أهمها بقدر المستطاع .

الحكم العامة من شرعية العبادة

وقبل أن نأخذ في بسط هذه الحكم فقد يكون من المنطقي أن نعرف الحكم العامة من شرعية العبادة وتشريف الناس بها ، وتكليفهم النهوض بأعبائها فنقول :

إن العبادة شرعت لتصفية القلوب ، وتوجيهها لعلام الغيوب : تؤمن به وتتوكل عليه وتطلب ما عنده ، ترجو رحمته وتخاف عذابه . يقول الله سبحانه : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ^(١) ويقول : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ^(٢) وذلك لأن القلب هو الإنسان في الحقيقة ، وإن شئت فقل : إنه الملك وماعداه من الجوارح والأعضاء إنما هي جنود تأتمر بأمره ، وتسير بتوجيهه ، وهو بذلك موطن نظر الرب سبحانه : يقول ﷺ :

« إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » . ^(٣)

نعم إن القلوب هي موطن الحب والبغض ، والرضا والسخط ، والكبر والتواضع ، والإيمان والكفر وسائر هذه المعاني من النيات والإرادات والرغبات .

والقلوب كالأبدان : تعثرها الأعراض والأمراض ، وتلم بها القوة ويحل بها الضعف ، وينزل بها الموت ، وتدب فيها الحياة ، وكما أن أمراض الأبدان مختلفة فكذلك أمراض القلوب ، وكما أن أدوية الأبدان مختلفة

(١) سورة طه : ١٤

(٢) سورة التوبة : ١٠٣

(٣) رواه مسلم

فكذلك أدوية القلوب ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) ويقول : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢) ويقول : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ ^(٣) ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لِلذَّكَرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ^(٤) ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ^(٥) .

ولهذا ، نوع الله العبادات ، لأن كلا منها له حكمته وسره الخاص في معالجة القلب وتطهيره وتنقيته قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ^(٦) .

أشارت هذه الآية إلى حكمتين أصليتين وهما : أن الصدقة تنقية وتصفية ، وعطاء وتحلية . نعم إنها تنقية من أمراض الشح والبخل والكراهية ، وتصفية للقلب من أدرانها وآثارها ، وهي كذلك عطاء من الصفات الطيبة ، من السباحة والكرم والحب ، وهي كذلك تصفية من أمراض الشك وتحلية بفضيلة التصديق بوعده الله والرجاء فيما عنده سبحانه . قال عليه الصلاة والسلام : « . . . وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ » ^(٧) .

وهي كذلك تنقية من رذيلة الأنانية وحب الذات ، وترقية إلى مرتبة التعاون والإيثار ، وفي ذلك كله ما فيه من الخير على الإنسان في خاصة

(١) سورة يونس : ٥٧

(٢) سورة يس : ٧٠

(٣) سورة الأنعام : ١٢٢

(٤) سورة ق : ٣٧

(٥) سورة الحج : ٤٦

(٦) سورة التوبة : ١٠٣

(٧) من حديث رواه مسلم

نفسه ، وعلى المجتمع كله في أولاه وأخراه . .

ولنأخذ مثالا آخر : هذه الصلاة التي نصليها ، والتي شرفنا الله بإقامتها خمس مرات في اليوم واللييلة ، وفتح أمامنا باب التطوع فيها على مصراعيه لها أسرارها الخاصة في تطهير الظاهر والباطن ، وغرس التواضع لله وحده ، وتنزكية فضائل الحب والمساواة ، وإفراد الله سبحانه بالعبادة ، وحسن الاستجابة لله رب العالمين في كل أمر سواء عرفنا سره أم غاب عنا ، وفيها تذكير بأمر الله ونبيه فيما نتلوه أثناءها من آيات القرآن الكريم ثم قد يكون فيها فوائد أخرى بعضها يتصل بصحة المرء وعافيته ، وبعضها يتصل بقوته وتحمله ، وبعضها يتصل بصحته النفسية وطمأنينته القلبية ، وقد يكون للتوسع في بسط هذه الحكم موطن آخر ، ومع هذا فإننا نود أن نشير إلى ألوان أخرى من القربات موضحين بعض ما فيها من حكم فبر الوالدين قرينة من أجل القربات ، أوجبها الله سبحانه ، وقرنها بعبادته ، ووعد على الوفاء بها أجرا جزيلا ، وثوابا عظيما لقاء مالأبوين بعامة وللأم خاصة ، من فضل عظيم في النفقة والتربية ، والمحبة والشفقة . قال سبحانه وتعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه : حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾^(١)

وذلك لأن في بر الوالدين لونا من الوفاء لصاحب النعمة ، ونوعا من العرفان بالجميل لمسدى الجميل ، وفي هذا الترقى من الوفاء بحق الخلق إلى الوفاء بحق الحق سبحانه ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » وذلك لأن من كفر حق الناس وهو مدرك بالسمع والبصر والحواس الظاهرة كان لحق الله - وهو إنما يدرك بسلامة الفطرة ونور البصيرة أشد جحدا .

(١) سورة لقمان : ١٤ .

وفي القيام بحق ذوى الأرحام والأقارب والجيران إشاعة للحب والمودة ، واستئلال لدواعي البغض والفرقة ، وتعاون على الخير بمباشرة أسبابه ، وفي هذا ما فيه من التعرض لألوان العطاء ، ودفع البلاء والناس بخير ما تعاونوا .

وهكذا ما من عبادة إلا ولها حكمتها الجليلة ، وما من عمل أمرنا الله به إلا وله فوائده وثمراته في الدنيا والآخرة ، عرف ذلك من عرفه ، وغفل عنه من غفل ، وفاز بالتسليم لذلك المتقون والتسليم والطاعة آية الإيمان ، ومبدأ العطاء والعرفان ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ (١) .

ومن حكم الله سبحانه في ذلك أن تتناسب مع الطبائع المختلفة للبشر .

ومن البين أن لكل منا طبيعته الخاصة : فمننا من يميل إلى الصلاة ، ويشعر في إقامتها بلذة دونها سائر اللذات ، يرى فيها قرة عينه ، وانشرح صدره ، وطمأنينة قلبه . ومن الناس من يعشق الصيام لما يرى له من أثر في تصفية روحه ، وبعث الشعور عنده بالافتقار إلى ربه . ومن الناس من يحن إلى بيت الله الحرام حاجا أو معتمرا يغذى قلبه بذكرات إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام وبتذكرات الصفوة المختارة من أصحاب محمد ﷺ الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، فأثنى الله عليهم في كتابه ورفع أقدارهم بين أوليائه وأحبابه .

وهكذا تختلف طبائع البشر ورغباتهم وميولهم ، ومن رحمة الله بهم أن

(١) سورة النور ٥١ ، ٥٢ .

يحيى لكل هؤلاء أبوابا من الخير بتقربون بها إليه ، ويكتسبون بها الرزقى لديه .

والمؤمن إذا فتح الله له بابا إلى الخير ، وشرح له صدره فعليه أن يلزمه فقد يكون فيه عطاؤه . وَمِنْ دَعَوَاتِ النَّبِيِّ - ﷺ - : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يَقْرُبُ إِلَى حُبِّكَ » ^(١) . وقد أخبر النبي ﷺ عن هذا العمل الذى حبيه الله إليه ، وبين أنه هو الصلاة . قال عليه الصلاة والسلام : « حبيب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ^(٢) ولذلك كان المقام المحمود والشفاعة العظمى في يوم السورود كالمرتبة على هذه العبادة العظيمة ولئن كان ربه قد من عليه بتوفيقه لهذه المرتبة الجليلة فقد أكرمه بجنى ثمراتها ، واقتطاف خيراتها قال الله سبحانه : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ ^(٣) .

- ومن حكم الله في تنويع العبادة أن الطبع من شأنه الملل والسآمة ، والفتور والكسل فلو جعلت العبادة لونا واحدا ، وعلى وتيرة واحدة للملها الطبع ، وكلت عن القيام بها الجوارح ، ولكن الله برحمته ولطفه ، جعلها أنواعا مختلفة من الصلاة ، والذكر وتلاوة القرآن ، والصدقة ، والصيام ، والحج ، والعمرة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقضاء الحاجات والإصلاح بين الناس ، حتى إذا مل الطبع منها نوعا أخذ في آخر فإذا فتر من الصلاة استرسل في ذكر الله ، فإذا تعب من الذكر ، استروح بتلاوة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث معاذ بن جبل وهو حديث الرؤيا ، إذ رأى فيه رسول الله ﷺ ربه متلما وهو حديث جليل فيه خير كثير وعلم عزيز ويتجل فيه فضل الله على رسول الله ﷺ يظهر فيه ما كان عليه ﷺ من حسن أدب ، ووافر معرفة ، وبالع حكمة ، ويمن ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّهِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ من سورة ص (ج ٤ ص ٤٣) .

(٢) رواه جماعة منهم النسائي في السنن والطبراني في الأوسط والصغير ، والحاكم في المستدرک وقال : صحيح على شرط مسلم ، ويمن أخرجه أبو يعلى في مسنده وأبو عوانة في مستخرجه والبيهقي في السنن وغيرهم ، وكشف الخفا .

(٣) سورة الاسراء : ٧٩ .

القرآن الكريم ، فإذا قضى من ذلك نهمته ، انبرى يصلى ويسلم على
النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم . فإذا ارتوى من ذلك كله ، فإنه
يستطيع أن يتفكر في خلق السموات والأرض وما فيها من مخلوقات ، فيعود
من هذه الجولة وقد امتلأ قلبه إيماناً بربه ، وتوكلاً عليه ، ورغبة فيما عنده ،
وشوقاً إليه ، وحباله ، وهذه بغية المؤمن من عبادته : أن يتقرب بها إلى الله
ليحس بقربه من الله ، وقرب الله منه ، يقول سبحانه في الحديث
القدسى : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني
في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأهم خير
منهم ، وإن تقرب مني شبرا ، تقربت إليه ذراعاً ؛ وإن تقرب إلى ذراعاً ؛
تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشى أتيته هرولة » (١) .

وفي الحديث القدسى : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ،
وماتقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي
يتقرب إلى بالتواقل حتى أحبه » (٢) وبذلك يصلح من أمره ما فسد ،
ويستقيم من حاله ما اعوج ، ويصبح بعبادته واصطباره على العبادة مؤمناً
ربانياً ، يصلح الناس بصلاحه ، ويهدون بهداه ، ويستجيبيون لنصحه قال
تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا
يوقنون ﴾ (٣) .

- ومن حكم الله سبحانه في هذا التنوع أن تتناسب مع أحوال الناس
وهي مختلفة أشد الاختلاف ، فمنهم الغنى ، ومنهم الفقير ، ومنهم القادر
ومنهم العاجز ومنهم القوى ، ومنهم الضعيف .

فقد تكون الصدقة مناسبة للغنى ، على حين لا يستطيعها الفقير .

(١) رواه مسلم - في باب الحديث على ذكر الله من كتاب الذكر والدعاء ١٦ / ٢٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق

(٣) سورة السجدة ٢٤

وقد تكون الصلاة مناسبة للفقير الذي لا يملك مالا يعطيه ، وينفقه . وقد يكون الصوم مناسباً للفريقين مع الصحة والقوة . وقد تكون الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناسبة للعلماء ، وبابا يفتحون منه ينابيع الخير والهداية لإخوانهم المؤمنين ويستمتطرون به شآبيب العطاء من رب العالمين . وربما كان الجهاد ميدانا يتسابق فيه الأقوياء إلى إعزاز الدين ، والفوز برضاء أرحم الراحمين . . . وهكذا .

ومما هو مناسب لهذا المقام ما حدث على عهد رسول الله ﷺ من ذهاب وفد الفقراء إلى النبي ﷺ ؛ يشكون إليه سبق الأغنياء إلى الخيرات بهائم من أموال ، ينفقونها في الخير من صدقات ، ومبرات ، وحج وجهاد ، وعجز الفقراء عن مجاراتهم في ذلك ، وبيان الرسول لهم أن هناك أبوابا أخرى من الخيرات إن هم فعلوها سبقوا غيرهم ، ولم يلحقهم من بعدهم ، فرجعوا بالنصيحة يسارعون في الخير فسمع ذلك الأغنياء فتسابقوا معهم في العمل بها ، فعاد الفقراء إلى شكواهم فقال عليه الصلاة والسلام : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن ناسا ذهبوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا : ذهب أهل الدثور بالأجور : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : « أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة » . قالوا : يا رسول الله : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » . (متفق عليه) .

وقريب من هذا ما أخرجه مسلم رحمه الله عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضى الله عنه أنه قال : كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتته

بوضوئه وحاجته ، فقال : « سلني » فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : « أو غير ذلك » قلت : هو ذاك . قال : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

فقد وصف الرسول ﷺ الصلاة لهذا الصحابي الجليل لتكون سبيله لنيل هذه المنزلة الفاضلة السامية لسمو الصلاة في نفسها ، ورفعها لصاحبها ، ولأنها مناسبة لحال هذا الصحابي إذ كان فقيرا ، ومن أهل الصفة ، وليس له ما يتصدق به ، أو ينفقه في سبيل الله .

وقد استنصحه آخر بعبادة فقال له : « عليك بالصوم فإنه لا عدل له » رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم وصححه قال أهل التأويل : لا عدل له : ليس هناك ما يساويه بالنسبة لك وإلا فالصلاة خير العبادات ، وأفضل القربات لأنها مفتاح الخيرات ، ومنبع العطيات وكل قرينة فإنها هي فرع منها أو تبع لها : قال عليه الصلاة والسلام : « الصلاة خير موضوع ، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر » .

حكمة الصلاة

فالصلاة طهارة للنفس ، وغذاء للقلب ، وسمو بالروح ، يرحل فيها المؤمن إلى ربه ، مخلصاً قلبه من دنياه ، مقبلاً على خالقه ومولاه : ويبدأها بالتكبير الذى يشعره بأنه لا أكبر من ربه الذى خلقه فسواه ، ولا أعظم من إلهه الذى يتبتل إليه ، ويقبل عليه ، وبذلك تزول كل رغبة ورهبة من قلب المؤمن بالنسبة لغير ربه ، فلا يرغب إلا فى ربه ولا يخاف إلا منه ، ثم يبدأ بالثناء على الله تعالى بما هو أهله ، ويقرأ كلامه القديم ، وتنزيله الحكيم ، بفاتحة الكتاب التى تضمنت الثناء على الله تعالى بنعوت الجلال والكمال ، وآثار التبرية لعباده فى صورها المتعددة ، والتى توحى بها كلمة رب ثم الإحساس بأن ربه الذى يعبد ، ويتوجه إليه ، ليس رب قبيلة أو أسرة أو جماعة ، أو بلد أو شعب ، إنما هو رب العالمين .

ولنتأمل فى الآثار التى تضمنتها الآية الأولى من أم الكتاب ، تلك السورة العظيمة التى امتن الله بها على رسوله ﷺ فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (١) .

فى الآية الأولى : ثناء وحمد ، وتمجيد وشكر ، والحمد خير ما يعبر به عبد أحسن بنعم الله عليه ، وفى الحديث : « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه وفى الحديث : « الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده » رواه البيهقى ، وعبد الرزاق فى الجامع .

وإذا قرأ الرحمن الرحيم : غمره الشعور بأن ما تولى الله به عباده من فضل ، وما أفاء عليهم من نعم إنما هو محض جوده ، وفيض إحسانه ، وجميل عطائه ، وأنه سبحانه غلبت رحمته غضبه ، وسبق حلمه مؤاخذته ،

(١) سورة الحجر : ٨٧

لذا فإن معاملته لعباده ، يسبقها ويغلبها طابع الرحمة ، ويهيمن عليها سبق الإحسان ، فما أعظمه ، وما أقدس ، وما أكرم ، إنه الرحمن الرحيم .

فإذا انتقل المصلى بذهنه بعد ذلك إلى ما وراء هذه الحياة إلى الحياة الآخرة التي يفصل الله فيها بين عباده ليجزى كل نفس بما تسعى :

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ ^(١) ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون مالكم لاتنصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أثنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ؟ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ ^(٢) .

فالذين استجابوا لربهم وعبدوه طائعين مختارين أعدوا ليوم الدين حسابا ، وهم يحلون ربهم ويحبونه ، هؤلاء الذين كانوا لا يستكبرون عن عبادة ربهم استثناهم الله من المعذبين الذين هم آنذاك في حالة استسلام وقد كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أثنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون والذين عبدوا ربهم مخلصين قال عنهم ربهم : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين ﴾ ^(٣) .

لذا فإن المصلى يسأل ربه أن يهديه الصراط المستقيم بأن يعرفه طرق

(١) سورة الأنبياء : ٤٧

(٢) سورة الصافات : ٢٢ - ٢٧

(٣) سورة الصافات : ٤٠ - ٤٤

العبادة ويعينه على التزامها والإخلاص فيها ، فلا يعبد ربه إلا بما شرع ولا يقصد بالعبادة غير ربه . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ^(١) .

وما أجل الختام في سورة الفاتحة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ : صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ . . دعوات مباركات علمها الله لعباده ، واختارها لهم ليناجوه بها بعد أن أصبحوا أهلاً لأن يستجيب لهم ، ويقبل عليهم كما أقبلوا عليه ، وكما يسألونه أن يثبتهم على طريق الهداية يسألونه أن يساعد بينهم وبين من غضب عليهم لإعراضهم عن الهدى واتباعهم للهوى ، وذلك لمبالغتهم في التفريط وقد جاء في الحديث : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضلال » ^(٢) . ثم يقرأ ما تيسر من القرآن ؛ ليؤكد المعاني التي استقرت في قلبه من سورة الفاتحة ، فتستقر وتثبت ثم يتدرج المصلي في الانحناء إعلاناً عن الخضوع ، وزيادة في الامتثال والاستجابة ، مسبحاً باسم ربه العظيم ، ثم يرفع ويستشعر العظمة ، فيخر ساجداً ؛ فيتحرر من ذل الأسر والرق للمخلوقين ، ويصبح حراً عزيزاً بالله والله ، فتصبح النفس على سجيئتها حرة طليقة ويتسلم القلب الزمام . والسجود أقرب حالات المصلي ، وأجل هيئاته وأحب حالاته إلى الله تعالى وفي الحديث : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » ^(٣)

ثم يرفع من السجدة الأولى فيحس بآثار النعم ورحمة المنعم ؛ فيخر له ساجداً مرة ثانية ، يسأله مسألة المسكين ، ويتضرع إليه تضرع الخائف الحزين ، ويسأله بتضرع ممزوج بالحب والشوق والحنين ، فيستجيب الذي فتح له أبواب رحمته . وفي الحديث : « إن الله ينصب وجهه لوجه عبده في

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٩ .

(٣) رواه الإمام مسلم .

صلاته ما لم يلتفت . (١)

وهكذا يستمر المصلي في كل الركعات ، ويؤدى على هذه الوتيرة جميع الصلوات فتأكد الصلة بينه وبين خالقه ، فلا يرجو غيره ولا يخاف سواه . يقول الشيخ يوسف النبهاني : اعلم أن الحكمة في شدة اعتناء الشارع في أمر الصلاة هي والله أعلم كثرة نفعها للعبد ، لعظم ما فيها من الوصلة بينه وبين الله تعالى ، وتشريعها معقول الحكمة ، جار على عادة الملوك ، فلما كان من يجتمع بهم يلزمه أولاً أن يتطهر من الأوساخ ، ويلبس أحسن ما عنده من الثياب ، وأنظفها وأطيبها ، وحين الاجتماع يمحصر أفكاره كلها في النظر إلى الملك ، ومراقبة ما يرضيه فيفعله ، وما يغضبه ؛ فيجتنبه ، وما يقتضيه ذلك من الآداب الملوكية ، من غض الطرف ، وسكون الحركة ، وخفض الصوت والخضوع والسكينة حتى يستجلب بذلك رضا الملك ، كذلك الصلاة هي حضرة الله تعالى ، وهو الملك الحقيقي سبحانه وتعالى ، فيلزم من يريد الدخول في حضرته وهي الصلاة قبل الدخول فيها الطهارة الكاملة من الأحداث بالوضوء أو الغسل وإزالة النجاسات ، ومتى دخلها يدخلها بالأدب التام ، والهيئة والاحتشام ، وإزالة النجاسات ، ويعلم أن الله تعالى ناظر إليه ، عالم بهواجس خواطره وسكنات سرائره ، وأنه واقف بين يديه عز وجل ، فيخشع ويخضع ، ويزيل من فكره كل شىء من أمور الدنيا والآخرة سوى استحضاره أنه واقف بين يدي الله تعالى وأنه ناظر إليه ، وعالم بجميع خواطره وسرائره ، وأحواله الظاهرة والباطنة ، وأنه قادر على كل ما يريد أن يفعله به من أنواع السعادة والشقاوة ، وأنه واحد أحد ، فرد صمد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك له ولا وزير ، ولا مثيل ولا نظير ، فهو إذا رضى عنه وأراد خيره ، فلا يستطيع أحد أن يعارضه بذلك ويمنع ما أراد له من الخير ، كما أنه إذا غضب عليه ، وأراد له الشر لا

(١) قطعة من حديث طويل رواه الترمذى من حديث الحارث الأشعري وقال : حديث حسن صحيح ، وأخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم

يستطيع أحد أن يعارضه بذلك فيدفع عنه ما أراد من الشر .
وقد شرع لخلقهم على لسان رسوله الأعظم - ﷺ - شرعه وبين فيه أسباب رضاه وهى الطاعات ، وأسباب غضبه وهى المخالفات ، وكلاهما درجات ، ومما بينه فى شرعه أن من أكبر أسباب رضاه فعل هذه الصلوات ، وأن من أكبر أسباب غضبه ترك فرائضها اللازمات ، حتى إن كثيراً من أئمة دينه المبين ظهر لهم من شرعه القيم أن تركها كفر مخرج عن دين الإسلام موجب للشقاوة الأبدية والخلود فى النار إن مات مصراً على ذلك ، والعباد بالله .

ومن لطفه تعالى أن شرع لهم ذلك فى كل يوم وليلة خمس مرات على سبيل الإلزام ، وأذن لهم بالحضور فيها باختيارهم فى النوافل ، متى شاءوا ، ووعدهم على ذلك الأجر الجزيل ، مع أن المصلحة فى ذلك لهم لا له عز وجل ، فإنهم هم الذين تشرفوا بالحضور بين يديه وخدمته ، ومخاطبته عز وجل ، كما أن من أذن له ملوك الدنيا بالحضور عندهم يجعل له الشرف الدنيوى الذى يفوق به الأقران مع أنهم - أى هؤلاء الملوك - عبيد فى الحقيقة مثل من تشرف بالحضور عندهم ، ولا نسبة بين هذا وذاك ، ومع كل هذا الشرف الذى يحصل للمصلين بالصلوة يخرجون منها بإحسان عظيم منه تعالى وهو الأجر الذى وعدهم به ، الذى لو كشف لهم عنه لا ستحقروا فى جانبه كل شئ من أمور الدنيا ، فقد صح عن رسول الله ﷺ - أنه قال : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » ^(١) وركعتا الفجر هما نفل وليستا بفرض وقد ذكروا أن الفرض يفضل ثوابه على ثواب النفل سبعين ضعفاً ؛ فانظروا إذا كان ذلك الفرض بجماعة ، وقد صح عن رسول الله ﷺ فى حديث الصحيحين أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة وفى رواية بسبع وعشرين درجة ^(٢) . هـ

(١) رواه مسلم

(٢) الرحمة المهداة فى فضل الصلاة : ٨٦ .

صلاة الجماعة

وقد تأكدت الجماعة في الصلوات ، ووجبت في صلاة الجمعة ، وناهيك بما تتمره هذه اللقاءات الكريمة في المسجد وهو قلب المجتمع المسلم ، وملتقى المؤمنين بالغدو والأصال إن هذه اللقاءات في بيوت الله في الجماعات ، والجماعات تغرس المحبة والألفة ، والمودة والتراحم بين المسلمين ، وتجعل منهم كتلة متينة ، وجماعة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، جميعهم في مساواة تامة بين يدي ربهم ، لا فرق بين غنى وفقير ، ولا بين كبير وصغير ، ولا بين حاكم ومحكوم ، بل كلهم جميعا : الإمام والمأموم كنفس واحدة بقيادة إمامهم ، يحرمون بإحرامه ، وينصتوا لقراءته ، ويركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، ويسبحون بتسبيحه ، انتظمت ظواهرهم ، واتفقت سرانهم . يركعون ركوعا واحدا ، ويقومون قياما واحدا ، ويسجدون سجودا واحدا ، ويسبحون تسبيحا واحدا .

فما أعظم النظام ، وما أجمل الالتزام ، وما أحسن هذه الصورة الروحية المشرقة ، والهيئة الجميلة الوضيئة ، التي جمعت بين المسلمين خالية قلوبهم من الأغراض ، مجردة من الأمراض ، بريئة من العلل ، ليس لأحدهم مطلب غير مطلب الآخر ، ولادعاء ولا قراءة تختلف من واحد إلى ثان ، بل كلهم يقرأون فاتحة الكتاب ، أو إمامهم يقرأ ، وهم ينصتوا لا يقول أحدهم : اهدنى أو إياك أعبد وإياك أستعين ، بل صيغة الجمع كهيئة الجمع لا افتراق ولا اختلاف ، كلهم يقول : إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . وفي التشهد السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

صورة الجماعة حتى ولو اختلفت عن رأى الأبصار فهي ماثلة قائمة في

البصائر ، يستشعر المسلم وهو في الجماعة أنه ليس فردا منعزلا ، وليس هو
وجاعته فقط هم القائمين بين يدي الله بل عشرات الآلاف والملايين من
المسلمين أمثالهم كل يدعو لأخيه ، وهو جالس في تشهده يقول السلام
علينا وعلى عباد الله الصالحين .

تبدو في صلاة الجماعة الصورة المتكاملة للجماعة المتولفة ، والقلوب
المتوحدة ، والأرواح المشرقة ، والعقول المترنة ، والأبدان المطيعة ، إنها وحدة
كاملة في كل شيء ظاهرا وباطنا ، سرا وعلنا .

أنت هنا في الصف وعن كل جانب من جوانبك إخوة لك يشدون
أزرك ، ويقفون معك يتلون ما تلو ، ويستقبلون القبلة التي تستقبل ،
وفي الحديث : « إن المؤمنين كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله وإذا
اشتكى رأسه اشتكى كله » .^(١) وفي الحديث الآخر : « مثل المؤمنين في
توادهم وتراحهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو
تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .^(٢)

وللدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام
خير الجزاء - كلام طيب في حكمة الصلاة ، والاتجاه إلى القبلة الواحدة ،
وما في ذلك من دعم روابط الوحدة بين المسلمين على اختلاف ألوانهم
وأوطانهم ، وعصورهم وأزمانهم - وقد سجله في كتابه النافع الممتع « نظرات
في الإسلام » وهو على صغر حجمه فإنه خلاصة فكر ، وذوب قلب لرجل
ذاق حلاوة الإيمان فعبّر عما وجد ، ووصف ما خبر قال رحمه الله :

ينبغي لكل مصل أن يعد نفسه عضوا في وفد الرحمن ، لا يناجي ربه
بلسانه وحده ، بل بلسان إخوانه المؤمنين ، الحاضرين منهم والغائبين ، ألا
إن الوحدة التي يرمى هذا التشريع إلى تحقيقها لأوسع مجالا ، وأبعد مدى ،

(١) رواه مسلم

(٢) متفق عليه .

من أن تقف عند حدود الجليل الحاضر ، إنها تريد أن تنتظم في سياج واحد كل أهل القبلة من الأجيال الماضية ، والحاضرة ، والمستقبلية ، بل نقول إنها أوسع رقعة من أن تقف عند عصر النبوة المحمدية ، وإنها تتجاوز ذلك العصر إلى عصور النبوات الأولى ، ذلك أن الشريعة المحمدية لم تنشأ هذه القبلة إنشاء ، وإنما جاءت مصدقة ومقررة للقبلة التي أسستها النبوات السابقة وهذا من أوضح الأدلة على سماحة الإسلام ، وسعة أفقه ، وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين ، وتوحيد رابطة المؤمنين بالأديان السماوية كلها ، ولقد حقق الإسلام هذه الوحدة على مرحلتين متصاعدتين ، ففي المرحلة الأولى : انضم إلى صف إخوانه من أنبياء بنى إسرائيل ^(١) ، وفي المرحلة الثانية الأخيرة صعد إلى الأصل الأصيل في الكعبة التي هي أول بيت وضع للناس منضما بذلك إلى صف أبى الأنبياء الذى يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته وإن لم يستقبلوها في صلاتهم .

ولقد كان للقبلة التي وجدت صفوف المسلمين ، وربطت بين مشاعرهم كان لها قصة وأى قصة فلقد ظل بيت المقدس قبلتهم ، وحال الزمن ثم صارت الكعبة البيت الحرام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأثار هذا التحول لدى خفاف الأحلام شيئا من الريب والشكوك ولكن القرآن الكريم تولى نقض هذه الشكوك ودحضها مجليا فلسفة التشريع وحكمته .

نرى ما سر هذا الأهتمام البليغ بتعيين القبلة وتوحيدها ؟ وما سر هذا التطور في تشريعها ؟ ولماذا لم يكن نظام الصلوات كنظام الدعوات المنشورة التي لا يشترط في صحتها ولا في قبولها أن يتخذ الداعى وضعا خاصا من

(١) يشير رحمه الله إلى الفترة التي كان فيها الرسول ﷺ والمسلمون يستقبلون بيت المقدس في الصلاة حتى نزل قول الله تعالى : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وذلك عقب مقدمه عليه السلام للمدينة بنحو سبعة عشر شهرا .

الأوضاع ، ولا أن يلتزم أسلوبا معيناً من الأقوال والأفعال ، ولا أن يتجه إلى جهة معينة من الجهات ؟ ولماذا كانت الجهة هذا البيت أو ذاك ؟ ولماذا جعلت عامة للأمة كلها أفراداً أو جماعات ؟ أليست الصلاة صلة بين العبد وربّه ؟ أليست كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب ، والتماس المعونة منه ؟ أو ليس الله يسمع لمن حمده على أى وضع كان ، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه ﴿ والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ (١) .

هذه أسئلة تجول بالخواطر ، ولكنها لا تلبث بعد قليل من التأمل أن ينجلي وجه الحكمة فيها ، أجل إن قليلاً من التأمل يهديننا إلى أن الله جلّت حكمته حين شرع الصلاة على هذا الوجه الموحد في أسلوبه وصورته ، وحين نصب لنا فيها إماماً من بيننا نفتدى به ، أو بمن ينوب عنه ، وحين أقام لنا بيتاً نتوجه فيه إليه بوجوهنا ، ونحج إليه بقلوبنا أو بأبداننا أراد بذلك أن تكون الصلاة عبادة جامعة بين علامتى الإيمان : المحبة لله ، والمحبة في الله : أراد أن لا تكون الصلاة صلة واحدة ، بل مجموعة من الصلات ، صلة بين العبد وربّه ، وصلة بينه وبين أئمة الرسل من المرسلين أو بمن يحمل رسالتهم ، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين .

لقد كبر هذا التحويل على كثير من الناس وحسبوه لهواً وعبثاً ، أو حيرة وتردداً وما هو بعيب ولا تردد ، وإنما هو التصميم الأول نفسه يسير صاعداً نحو الهدف الأخير ، ولقد سباه علماء الظاهر نسخاً وما هو بنسخ إلا في الصورة والرسم ، أما في جوهره فهو التدرج والترقى في توحيد كلمة الأديان ، أرايت الولد البار حين يسير قاصداً بيت أبيه ، فإذا مر في طريقه على بيت إخوته ، فإنه يأبى إلا أن يعرج عليهم ليقم بينهم فترة ما تطيبها لمخاطبهم ، ثم يكون مستقره في البيت المشترك الذى يحمل الأسرة كلها .

(١) سورة البقرة : ١١٥

فذلك التطور الذى حدث فى تشريع القبلة . .

فبيت المقدس هو بيت الإخوة ، والكعبة هى بيت الأسرة ، وهى منزل الجدد الأعلى ، وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين القبلتين ، فإنه لم يكن همه ذات القبلة فى الأولى ولا فى الثانية ، وإنما كان همه أول الأمر وآخره هذا الانضمام والالتئام بين أسرة المؤمنين ، وفى وحدة القصد والتوجه إلى المعبود الأعلى تحت لواء النبيين والمرسلين .

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ^(١) ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ^(٢) . فحكمة الصلاة ظاهرة فى هذه الصلة المتينة وفى تلك الرابطة القوية المكيئة ، بين الله الخالق وبين المخلوق المربوب الذى استكمل صفات العبودية حيث أمثل : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ ^(٣) وفى إقامتها والإتيان بها مستوفية الشروط والأركان مع التدبر واليقظة وحضور القلب وخشوعه ، سمو الروح وارتقاؤها ، وقوة الإيمان برقابة الله وهيمته ، وسلطانه وعظمته ، هذه الصلاة التى تكسب من أقامها على أكمل صورة تزكية النفس : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ^(٤) ، وتكسبه الثبات والكرم ، وطمأنينة القلب ، وسكينة النفس ، وحسن الخلق ، وحيل الصبر ، وصادق اليقين ، فلا تنزله الأحداث ، ولا تغيره نكبات الحياة ، لا يستأثر بالخير إن جاءه بل يشرك إخوانه معه من غير منة أو استئثار ، ولا يجزع من الشر إن نزل به ، لعلمه أن ربه هو الذى بيده مقاليد كل شىء ، هو المعز المذل ، المعطى المانع ، الضار النافع ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ،

(١) سورة الأنبياء : ٩٢

(٢) سورة البقرة : ١٤٢

(٣) سورة إبراهيم : ٣١

(٤) سورة الأعلى : ١٤ - ١٥

وهو العزيز الحكيم ﴿^(١)﴾ ، روى ابن عباس رضى الله عنهما أنه نعت إلى أخته وكان مسافرا فأخذ ناحية من الطريق وصلى ، وتلا قول الله تعالى : ﴿ استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ . ^(٢) ثم قال : عورة سترها الله ، ومؤنة كفهاها الله ، وأجر ساقه الله .

والصلاة مطلوبة لذاتها ولآثارها يشير إلى هذا قول الله : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ ^(٣) فذكر الله هو الغاية حيث تتوصل إلى أعز مطلوب ، وأعلى مرغوب ، حيث التلذذ بذكر الله غاية الغايات ونهاية النهايات .

أما آثارها فطهارة القلب ، والنفس ، والروح باجتناّب الخطايا ، والبعد عن المفقوات التى تكبل الإنسان ، وتأسره ، وتخرجه من عبودية الله إلى عبودية الهوى والشهوة ، وتخرجه من العبودية الراقية السامية ، عبودية الاستعلاء على سفاسف النفس ونزوات الهوى إلى عبودية الشرك والهبوط ، والانحطاط والتسفل : إلى عبودية الطاغوت أينما كان وفى أى صورة كان . يقول عليه الصلاة والسلام : « إن بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة » ^(٤) ولكن المتعبدين لله بها ، والمواظبين على إقامتها هم الذين تطهروا ظاهرا وباطنا ، فأفلحوا وفازوا ، يقول عليه الصلاة والسلام : « أرايتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ » قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » . ^(٥)

(١) سورة فاطر: ٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٣ .

(٣) سورة العنكبوت : ٤٥ .

(٤) رواه الخمسة إلا البخارى

(٥) رواه الخمسة إلا أبى داود .

حكمة الزكاة والصدقة

وإذا كانت الصلاة بمثابة رباط قوى بين الإنسان وخالقه ، وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين إخوانه المؤمنين : إذ التقوا في بيت الله في المسجد فنشأت بينهم صلات ، وتوطدت علاقات ، وتولدت عواطف الخير ، من حب وعطف ، وبر ولطف ، ومواساة وإحسان ، فأحس الغنى حاجة أخيه الفقير ، ولس القادر حال العاجز والضعيف فأدى كل منهما لأخيه ما وجب عليه : من معونة وصلة فأدى الغنى حق أخيه عليه ، من زكاة ماله المفروضة وزاده من صدقة التطوع فسد جوعته ، وسر عورته ، وفرج كبرته ، وأزال لهفته من غير من ولا أذى ، ولا غرض ولا مارب ، بل ابتغاء وجه الله لا يريد جزاء ولا شكورا ، ولا يبغى مدحا ولا ثناء ، بل يحمد الله الذى وفقه ، ويسأله أن يقبل زكاته وصدقته . وقد قرن القرآن الحكيم بين الصلاة والزكاة ، لأن الصلاة التى انتفع بها صاحبها أثمرت أخلاقا كريمة من البر والكرم والسماحة والجود ، والحب لله وفى الله ، فجعلت صاحبها الجواد الكريم ، الذى كان على صلة بمن خزائنه لا تنفد ، وسحائب جوده لا تحصى ولا تعد ، فأصبح يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ، واستجاب لنداء ربه : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ ^(١) وتحقق بصفات المؤمنين الصادقين : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ ^(٢) .

(١) سورة إبراهيم : ٣١

(٢) سورة الأنفال : ٢ - ٤

وإذا كانت الزكاة المفروضة تؤدي امتثالاً للأمر ، واستجابة لله ورسوله ، فإن الصدقة تقدم بدافع من الأحاسيس النبيلة ، والعواطف الرفيعة ، والمشاعر الجياشة الراغبة في الخير ، المحبة للفضل ، المدفوعة إلى التضحية والإيثار ، لعلمها بمن تتعامل معه وهو الله تعالى الوهاب الرازق ، المعطي المنان ، المحسن الكريم ، الذي يحب المحسنين ، ويكرم المتقين الذين يتغنون ثواب الله وأجره ، ومعونته وفضله ، فيقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة فيتم التناصر والتكافل فيما بينهم ، وتؤتي شجرة المحبة أكلها كل حين بإذن ربها وتظلل المجتمع بظلها الوارف ، وفيضها الدافق ، فلا يوجد في المجتمع جائع ، ولا ظامئ ، ولا عار ولا مهين ، إذ يكفل الغنى أخاه الفقير ، ويتعفف الفقير أن يمد يده بالمسألة ، فالأغنياء : ﴿ يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ ^(١) والفقراء : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ ^(٢) فتختفى الأثرة ويبسط الإيثار مكارمه وفضائله ، كما تنشر الشمس أشعتها وأنوارها ، فيحيا الناس بالله ولله متحابين متعاونين ، طابت نفوس الفقراء ، بوصول حقوقهم إليهم ، واندفاع بؤس الحاجة عنهم ، وزكت نفوس الأغنياء بإخراج ما وجب عليهم من حق معلوم للسائل والمحروم ، وتجلت حكمة التشريع في فريضة الزكاة من زوال الأحقاد والأضغان من قلوب الفقراء ، ومن زوال الشح والبخل من نفوس الأغنياء ، وأحس هؤلاء وأولئك أن المال مال الله وأن الأغنياء مستخلفون فيه : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم لهم أجر كبير ﴾ ^(٣) .

ومن لطف الله بعباده أنه لم يدع الإنفاق متروكا لضمائر الناس ، بل

(١) سورة الحشر : ٩

(٢) سورة البقرة : ٢٧٣

(٣) سورة الحديد : ٧

أوجبه وأوصى به ورغب فيه ، وحذر من رذيلتي البخل والشح ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تُجَدِّدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . والله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير ﴾ ^(٣) .

وقد تولى الرسول صلى الله عليه وسلم بيان ذلك ، وبين المقادير الواجبة ، ثم ما يكون سبيله التطوع والنافلة ، والبر والمرحمة .

ولم توجب الشريعة في المال إلا جزءا قليلا يسيرا ، وهو مع قلته كاف للفقير ، ساد لحاجته وعوزة ، وغير مجحف بالغنى ، بل هو مبارك للمال ، يصونه من الجوائح ، ويحفظه من السرقة والحرق ، ثم فيه طهارة المتصدق وزكاته ، وفوزه في الآخرة ونجاته . يقول عليه الصلاة والسلام : « إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك » ^(٤) . والزيادة عن القدر الواجب صدقة أجرها كبير ، وفضلها جليل ، فالحد الأدنى للثواب عشر تضاعف إلى سبعةائة إلى أضعاف كثيرة . قال تعالى : ﴿ مثل الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ^(٥) من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر

(١) سورة البقرة : ١١٠

(٢) سورة التور : ٣٧

(٣) سورة آل عمران : ١٨٠

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه

(٥) سورة البقرة : ٢٦١ - ٢٦٢

كريم ﴿^(١)﴾ « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴿^(٢)﴾ .

وقد ساق النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق أحاديث في الحث على الصدقة والترغيب فيها ، وبيان ثوابها ، وعظم أجرها ، وما يترتب عليها ، نذكر بعضها منها :

قال رسول الله ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ » قالوا يا رسول الله مامنا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال : « فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما آخر » ^(٣) ويقول عليه الصلاة والسلام : « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر » ^(٤) ويقول عليه الصلاة والسلام في الحديث المشهور - سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله - أحدهم - « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » ^(٥) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « على كل مسلم صدقة » ، قالوا يا نبي الله فمن لم يجد ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » ، قالوا فإن لم يجد ؟ قال : « فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة » ^(٦) ويقول عليه الصلاة والسلام : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى فيه ربه ، ويوصل فيه رحمه ، ويعرف لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا

(١) سورة الحديد : ١١

(٢) سورة المزمل : ٢٠

(٣) رواه البخاري

(٤) رواه أحمد

(٥) متفق عليه .

(٦) متفق عليه .

ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزهما سواء ، ^(١) .

فإذا ما تجاوزنا الحديث عن الحكمة في الزكاة والصدقة استوقفنا زكاة الفطر التي تمثل جانباً إنسانياً له أثره وأهميته في نظر الإسلام وفي حياة المجتمع المسلم . وبيان ذلك : أن الزكاة إنما تفرض على الأغنياء الذين استكملوا النصاب ، أما زكاة الفطر فإنها - عند جمهور العلماء - واجبة على الأغنياء والفقراء على السواء ، فتظهر المودة والمحبة والاستعلاء فوق الحياة حتى من الفقير الذي يأخذ من غيره ويدفع لغيره من إخوانه المؤمنين ، فيأله من سمو وارتقاء ، وعلو فوق مآرب الحياة ذلكم التشريع الإسلامي الحكيم الذي يجعل المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى وفي الحديث : « مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وترحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وتحقق الغاية من وحدة الصف وجمع الكلمة وحب الخير للغير - لا على صورة مصغرة - أو ادعاء بلا حقيقة ، بل حقيقة مثالية ، وصورة كمالية ، صورة للمجتمع الإسلامي المتكامل المتضامن ، المتحاب ، المتجاوب ، الذي يعبد إلهاً واحداً : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ ^(٢) ، ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ^(٣) ﴿ وَإِن هَذِهِ أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ^(٤)

(١) رواه الترمذی وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) سورة البقرة : ١٦٣

(٣) سورة الأنبياء : ٩٢

(٤) سورة المؤمنون : ٥٢

حكمة الصيام

فإذا ما انتقلنا إلى تلمس السر والبحث عن الحكمة في الصيام الذي جعله الله تعالى شهرا في السنة ، وكتبه علينا كما كتبه على الذين من قبلنا لعلنا نتقى فنحقق الغاية من العبادة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) .

وأول ما يطلعنا من أسرار تلك الوحدة الكاملة الشاملة التي يحدتها بين المسلمين ، فليس لقوم أن يصوموا شهرا ولآخرين أن يصوموا شهرا آخر ، بل المسلمون جميعا يتلقون الأمر الإلهي بالرضا والتسليم والطاعة والانقياد ، مع كل الحب والتقدير ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(٢) .

وفي جمع الشمل منافع كثيرة تعود على الأفراد والجماعات فتحيا القلوب ، وتصفو النفوس ، ويعم المجتمع الإسلامى جو من الطهارة والإيمان ، والخشية والإحسان ، والبر والمواساة ، والعطف والمؤاخاة ، ويتنصر الإنسان على الرذائل والشهوات ، والتقاليد والعادات ، التى طالما

(١) سورة البقرة : ٢١

(٢) سورة البقرة : ١٨٣ - ١٨٥

استعبده ، فجعلته يأخذ ولا يعطى ، ويحسن الجمع ولا يعرف القسمة ، ويشتهى ولا يصبر ، فيعلمه الصوم بدروسه العملية ، الصبر عن الشهوات ومغالبة الأهواء والعادات ، حتى لا يكون أسير الهوى ، ولا صريع الشهوات ، بل بالصوم قويت إرادته ، وشحذت عزيمته ، ووقى شع نفسه ، فملك الزمام ، وسيطر على مجامع الهوى ، ونزعاع النفس ، فيتبدل الوضع ، ويتغير الحال ، فبدل أن كان مقودا للنفس أصبح لها قائدا ولكنها قيادة للنفس من داخلها ، باعثها الإخلاص ، ودافعها اليقين ، فما أكثر الذين يخضعون لقوانين الأرض ظاهرا ، ويفسدون المقاصد من وراء ستار ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ﴾ ^(١) .

إن الله لم يشرع الصيام إيلاما للمصائم ، أو تعذيبا له ولكن شرعه ليكون وسيلة لتهديبه وتأديبه ، وفطمه عن سيطرة الأهواء والشهوات على نفسه ، والسلوك به عمليا أن يكون عبدا لله لا لغيره ، خاضعا له وحده ، لا لأحد سواه ، وفي تحقيق العبودية تحقيق الإنسانية ، فليس بإنسان من خضع لغير الله ، وإنما الإنسان الحق هو الذى خضع لله وحده ، وعبده وحده ، وأسلم قياده له وحده ، وهذا ما يهدف إليه الصيام فى الإسلام ، هل رأيت مثله علاجا يبرىء النفس من أسقامها ، ويكسبها عزتها وقوتها ، وينيلها تركيتها وتقواها ؛ فتتفتح فى نفسه طاقات الخير وتتسع فى قلبه دائرة الإحسان ، فيعبد ربه كأنه يراه .

ومن أخلص لله فى العبادة ، واحتسب بصومه ربه وحده فلا يعلم مكافأته إلا الله يقول الله تعالى فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لى وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجل » ^(٢)

(١) سورة النساء : ١٠٨

(٢) رواه مسلم

. ويقول عليه السلام : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » ^(١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة ^(٢) .

وحتى تتجلى لنا حكمة الصوم ونذكر آثاره ينبغي أن نفتي أثر رسول الله ﷺ في الصوم كما نفتي أثره في كل شيء فنصوم كما يحب الله ، فنصل إلى التقوى التي تبعدنا عن المعاصي والسيئات وتغمرنا في عالم الطهر والنقاء ، وثمرة ذلك كله لنا ، فربنا غنى عن العالمين .

يقول الدكتور دراز رحمه الله : ليس هدف الصوم هذا الألم البدني وإن كان هذا الألم يقع في طريقه ، إن الله عز وجل حين قال لنا : ﴿ عليكم الصيام ﴾ لم يقل لعلكم تتألون كما أنه لم يقل لعلكم تصحون ، أو لعلكم تقتصدون . إنما قال : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ . فجعل الصوم اختباراً روحياً ، وتجربة خلقية ، وأراد منه أن يكون وسيلتك إلى نيل صفة المتقين ، وأداتك في اكتساب ملكة التقوى . . هذا هو الهدف الحقيقي الذي إن أصبته جاءت من ورائه كل الثمرات مكرهة راجمة ، وإن أخطأته فقد أضعت عملك كله سدى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ ^(٣) .

إنك لن تحيط بكنهه التقوى ، ولن تقدرها حق قدرها إلا إذا عرفت

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه

(٣) سورة الشورى : ٢٠

طبقات الكائنات ومراتب الوجود ، فاعلم أن الوجود ثلاث مراتب :

١ - مرتبة السيادة العظمى ، وهذه قد استأثر بها الواحد الأحد الفرد الصمد .

٢ - مرتبة العبودية الدنيا ، وهذه هي مرتبة الكائنات العاجزة المسخرة لقانون الطبيعة والتي ليس لها من الحرية نصيب كالجماد والحيوان ، وإن الإنسان ليهبط إلى هذه المنزلة إذا وقع أسيرا في قبضة شهواته .

٣ - المرتبة الثالثة ، تجتمع فيها السيادة على الكون والعبودية لخالق هذا الكون .

وتلك هي المنزلة التي يصعد إليها الإنسان إذا وقف يتلقى أوامره العليا من ربه ثم جعل يلقي هذه الأوامر على جنده من القلب والروح ، فإذا أسلمت له تلك الجنود مقاليدها ، فصار قائدا مطاعا في جنده ، سيدا مهسابا في مملكته الصغيرة ، فقد نال صفة التقوى ، وصار جديرا بالاستخلاف في الأرض ، والتمكين له فيها ، وأكرم بعبودية هي عين السيادة ، تلك هي التقوى ، التي أراد الله أن تكون ثمرة حياتك ، وهي في الحقيقة هدف مشترك بين العبادات والطاعات جميعا ، غير أن للصوم في تحصيلها أثرا أوسع وأعم ، والمنزلة التي يبلغها الصائم بين مراتب المتقين هي أعلى المراتب وأسماها ، وإن منزلة الصائم هي أسمى مراتب التقوى وأكرمها عند الله ، وذلك لأن في سائر العبادات جوانب تحببها إلى النفوس الكريمة ، وتقربها من مقتضى الطباع السليمة ، ففي الصلاة مثلا حلاوة المناجاة ، وفي الزكاة أريج الجود والكرم ، وفي الجهاد عزة الحمية وإباء الضيم ، أما الصيام فإنه ليس فيه معاون من الطبع ، بل على العكس معاندته ومقاومته ، فكان أقرب الأعمال إلى الخلوص من الشوائب ، ولعله من أجل ذلك كانت الأعمال كلها يثاب عليها بأضعاف معلومة من العشرة إلى السبعمئة ، إلا الصوم فإن تضعيف جزائه لا يدخل تحت حصر ولا عد

كما جاء في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » ومصادقه في الكتاب العزيز : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ^(١) .

هذا الفضل العظيم إنما هو كما قلنا ، لمن فقه حكمة الصوم ، واصلحت فيه نيته وذلك إنما يكون بجعله نهاية الطهر لا بدايته .

فبداية الطهر ، طهر الأبرار بترك المحارم ، ونهاية الطهر طهر الأخيار بالتحلل من عادة السرف والعيش الناعم ، حتى إذا جاء الغد ، وجد الجهد ، ودعا الداعي إلى التضحية العظمى نكون قد أخذنا للأمر عدته ، حيث مارسنا الصبر وشدته ، وحيث نرضى بالظماً والنصب والمخمصة ، ولا نرضى أبداً أن نعود إلى السرف والنعم تحت الذل ، وفي قبضة الغاصب . . . وتلك هي عبرة الساعة من درس الصيام . ^(٢) .

(١) سورة الزمر : ١

(٢) نظرات في الإسلام للدكتور تراز : ٤٤ - ٤٦ .

حكمة الحج

والحج إلى بيت الله الحرام ركن من أركان الإسلام وعبادة من أجل العبادات ، يذهب الإنسان المؤمن إلى هذا البيت الحبيب إلى قلبه ، والذي يولى وجهه شطره كلما أراد الصلاة . يذهب القادر لتأدية هذه الفريضة ، وزاده مال حلال ، وقد تطهر قلبه بالتوبة النصوح فزكت نفسه ، وسمت روحه ، وتأججت عاطفة الشوق بين جوانحه ، فأشبعها وأرواها بزيارته للبيت وطوافه حول الكعبة وسعيه بين الصفا والمروة ، ووقوفه بعرفات وأدائه للمناسك ، والحقيقة أن اللذة التي يجدها الحاج لا توصف ولا يستطيع التعبير عنها إلا بقدر ، وكل يعبر بحسب ذوقه وإحساسه ومواجهته ، فهذا هو الإمام الغزالي رحمه الله يقول في الإحياء :

فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف إلى الله عز وجل ، فبالحرى أن يشترك إليه لمجرد هذه الإضافة فضلا عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل . (١) اهـ .

ويقول الشيخ أحمد عبد الرحيم الدهلوي : ربما يشترك الإنسان إلى ربه أشد شوق ؛ فيحتاج إلى شيء يقضى به شوقه فلا يجد إلا الحج ، وبجوار إرواء عاطفة الحنين والشوق ، التدريب العملي على الجهاد الذي فيه الكثير من الشدائد والمتاعب ، ومداغة الأخطار ، وقد لا يستطيع الكبير والضعيف من الرجال ، والنساء ، والصغير ملاقة الأعداء فجعل رسول الله ﷺ جهادهم في الحج . يقول عليه الصلاة والسلام : « جهاد الكبير والصغير والضعيف والمرأة : الحج والعمرة » (٢) . وقد قيل للنبي

(١) الإحياء للغزالي ج ١ ص ٢٤

(٢) روى النسائي

ﷺ : هل على النساء من جهاد ؟ قال : « نعم : عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة » ^(١) . وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : « لا ، لكن أفضل الجهاد حج مبرور » ^(٢) .

والواقع أن الرحلة لتأدية فريضة الحج تمرين عملي على الجهاد ، فالإنسان يفارق أهله وعشيرته وأصدقاءه ، وتجارته وعمله ومصالحه كما يفارق راحته ولذته ، ويعانى من مشقة الانتقال ، ووعثاء السفر ما يعانى ، ما الذى يحمله على كل هذا ؟ إن الذى يحمله على ذلك ، ويرغبه فيه ، ويشوقه إليه إنما هو الطاعة لله ، والاستجابة لأمره ، والتلبية ، لدعوته وبذل كل مرتخص وغال فى سبيل حبه ورضوانه ، وكلما اقترب من البيت ازداد حنينه واشترك قلبه مع لسانه فى التلبية فلبت معه الكائنات ، وتجاوبت معه الجهادات ، يقول عليه الصلاة والسلام : « ما من مسلم يلبي إلا لبي ما عن يمينه وعن شماله من حجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ها هنا وهنا » ^(٣) . فيسأل ربه ويتضرع إليه ، يسأل حسن العاقبة ، والتوفيق للعمل الصالح فى الأيام الباقية . وفى البيت الحرام حيث تقع العين على الكعبة تنزل الدموع ويستشعر القلب جلال الموقف ، وتسبح الروح فى عالم الصفاء والنقاء ، وينقاد العقل طائعا مختارا ، هذا العقل الذى تعود الرزانة والوقار ، وكان الحكم على القلب والممسك بقياده ، إذا به يتخلى عن القيادة ويسلمها للقلب فيهييم مع الهائمين ، لأنه لا يعتبر مسلما مسلما من يعتمد على عقله فى كل شيء ويرفض ما لا يقبله عقله مما لا يدرك حكمته ، ولا يتوصل إلى سره ، إنه فى رحلة الحج يقول للعقل قف عند حدك ،

(١) رواه البخارى

(٢) بالنسبة للنساء لا للجميع بقرينة المقام ولدلائل أخرى

(٣) رواه الترمذى

واخلع عنك ربة الاستبداد ، وقيود الأغلال والأصفاد التي خضعت لها
تحت سيطرة التقاليد ، ومألوف العادات ، وفلسفة الحضارات ، واتباع الأمر
لمجرد الأمر ، ونفذ الطاعة رغبة في رضا الأمر ، واستجابة لدعوة الداعي ،
ودعك من طلب الدليل والحكمة ، وتلمس الأسرار والأسباب ، وتلك هي
الحكمة الأولى وهي من الحكم الأصيلة التي تترك أثرها على المرء في سائر
شئونه ، وكافة أحواله .

إدلال النفس عند الحج

يقول ابن أبي جمرة رحمه الله : هل هذه الصفات التي كلف الحاج بها من ترك المخيط ، وترك الطيب ، وترك الرفاهية ، هل الحكمة فيها معروفة ؟ أو هي تعبد لا يعقل له معنى ؟ .

فإن قلنا : تعبد فلا بحث ، وإن قلنا إن قواعد الشريعة تنبنى على نظر الحكمة فيها ، وقد أرشد الكتاب العزيز إليها ، ولولا آيات كثيرة إذا نظر فيها لم توجد الحكمة فيها ظاهرة ما قيل ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ فيه آيات بينات ﴾ .

فإذاً لا يخص هذا اللفظ بشيء من آياته دون شيء ، أو يجعله في المحسوس مثل ما قاله بعض الناس ، من كونها لم ير بها محرماً ، ولا في رمي الجمار من كونها ترمى في كل عام ولا يوجد لها أثر فهذه مما يرى البعض ، وفيها تنبيه لمن ينظر ويتفكر يجدها عديدة .

وكل يأخذ من عموم هذه الآية بحسب ما يفتح له من الفهم فإن الحكمة عجيبة ، وما يظهر بتوفيق الله من الحكمة وجهان :

١ - أحدهما وهو كونهم يمشون لكشف ما بهم من الأوزار والأثقال ، ومن يمشى إلى مثل هذا الحال فيكون مشيه متدلاً ، خارجاً عن حظوظ النفس التي أوقعت في ارتكاب الذنوب ، لأنه جاء عنه ﷺ لما قال مولانا جل جلاله للملائكة : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ ^(١) غضب الله عز وجل عليهم فطافوا بالعرش أسبوعاً ، واستغفروا ، وتابوا ؛ فتاب بفضلهم عليهم ثم قال لهم : ابنوا في الأرض بيتاً يطوف به المذنبون من بنى آدم فأتوب عليهم ، كما تبت عليكم ، وأغفر لهم كما غفرت لكم ، فبنوا البيت ، فمن يأت بهذه الصفة

(١) سورة البقرة : ٣٠

ينبغي من طريق الحكمة التناسب بين الحال والمقصد ، أما ترى لما كان الخروج إلى العيد إلى طلب رحمته عز وجل عقب خروجهم من العبادة المتقدمة وهي الصوم كانت بالطيب وحسن الثياب موافقة للحال ، وهو حال الاستقامة والامثال لما به أمروا ، ولما كان الخروج إلى الاستسقاء خروجاً إلى كشف ما نزل من الضر كان الخروج على هيئة تضرع ومسكنة من أجل ما ارتكب من الذنوب لأنه جاء : إن العبيد إذا أذنبوا منع الله عز وجل عنهم المطر من أجل ذنوبهم ؛ فخرجوا في مسكنة وقشف من الحال حتى يكون رفع الأيدي بظهورها إلى السماء رهبا من أجل تناسب الحال ، فكذاك هذا ، بل يكون هذا أعظم ، لأن الطلب فيه أعظم .

٢ - وفيه وجه آخر : لما كان فيه شبه بالمحشر ، لأن المحشر يجتمع فيه الناس في يوم واحد من كل الأرض . وكما أن المحشر مواقف ، فكذاك هذا : مواقف للجبار ، ومواقف للمبیت بمنى ، وبالمسزلفة إلى غير ذلك ، وكما أن الخروج من هذه الدار ، ومفارقة الأهل والمال وليس له من ذلك كله إلا قدر زاده للأخرة من الكفن ، وما تبخر به كذلك الحاج مفارقتة للأهل والوطن الذي قد جعل مقرونا بالموت لقوله عز وجل : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ﴾ .^(١) . وكذلك ليس له من ماله إلا قدر زاده لسفره هذا على الغالب من عادات الناس ، والغير يتركه كله .

وكما له بعد الموت مواقف دون القيامة وأهوال يخلص الله منها من يشاء ويهلك فيها من يشاء كذلك طريق الحج فيه ما فيه من المكابدة وقد قال الله تعالى : ﴿ لم تكونوا بالغية إلا بشق الأنفس ﴾ .^(٢)

ومن الناس من يهلك في طريق الحج ، كما يهلك هناك ، غير أن بين الهالكين فرقا ما . لأن الهلاك هنا يذهب الروح من الجسد ، وقد تكون فيه

(١) سورة النساء : ٦٦

(٢) سورة النحل : ٧

سعادته ، وهناك بكثرة الأهوال وعدم التخلص منها ، فهو هلاك شقاوة ونحسران غير أن هناك يقفون عراة ، وقد كانوا يقفون قبل الإسلام عراة ، إلا أنه أحكمت السنة هنا نوعاً من اللباس من أجل ستر العورة ؛ لأن ذلك الهول هناك يمنع أن ينظر أحد عورة أحد وليس هنا مانع من النظر ، فأمر بسترها ، وهناك لا طيب فيه لأحد ، وهنا مثله وهناك الأمر فيه والحكم لله لا لغيره ، وذهبت الدعاوى كلها ، كذلك هنا فيما يرجى من المغفرة لاحتيلة في ذلك لأحد ، الكل مستسلمون منتظرون ما يحكم الله عز وجل فيهم ، وقد أجد عن بعض المباركين أنه لما أن حج وفرغ ، غلبته عيناه فنام فرأى كأن ملكين نزلا من السماء فقال أحدهما للآخر : كم حج بيت ربنا هذا العام ؟ قال له : ستماية ألف ، قال كم قبل منهم ؟ قال ستة فاستيقظ مدعورا وقال : من لي حتى أكون واحداً من ستة ، ثم نام ثانياً ثم ثالثاً مثل ذلك فرأى الملكين قد نزلا وأعادا السؤال الأول ثم قال له : ما فعل ربنا في الباقي ؟ قال : شفع كل واحد منهم في مائة ألف واستيقظ فرحان .

فجاء الشبه على هذه الحكاية مثل القيامة ناج ، وضده ، ومقبول ، وغير مقبول ومشفوع فيه وشافع ، لكن بإذنه وفضله قد يكون المجموع .

ويترتب على هذا من معرفة الحكمة أنه لا ينال الخطير من القرب إلا بالخطير من المجاهدات والتعبات لأنه لما كان هذا موطناً تغفر فيه الجرائم العظام كما جاء عنه ﷺ أنه لم ير الشيطان أصغر ولا أحقر من يوم عرفة ، لما يعاين من تجاوز الله عن الكبائر العظام يحشو التراب على رأسه ويقول : قوم فتنتهم منذ خمسين أو أربعين سنة ثم غفر لهم في ساعة . أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فالوصول إلى هذا ليس بالهين ، بل بالجهد العظيم إلا من من الله عليه بالتيسير من طريق الفضل ، وفيه تنبيه على أن يتذكر به ذلك الموقف الذي يشبهه فيكون سبباً لصدق الملجأ إلى المولى الكريم وكثرة الرغبة إليه وإظهار الافتقار الذي يرجى به الخير كله لقوله تعالى :

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ ^(١) وهو سبحانه لا يخلف الميعاد ، جعلنا الله ممن من عليه بفضلته بلا محنة ولا رب سواه ^(٢) .

وللإمام الغزالي كلام نفيس في بيان روح الحج وحقيقته ، وهي الإيمان بالغيب والامثال المطلق . قال رحمه الله : ووضعه - أى البيت الحرام - على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شعثا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له ، خضوعا لجلاله والاعتراف بتنزيهه عن أن يحتويه بيت أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ في رقيهم ، وعبوديتهم ، وأتم في إذعانهم ، ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول ، كرمى الجمار والحجارة والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية فإن الزكاة إرفاق ووجهها مفهوم ، وللعقل إليه ميل ، والصوم كسر للشهوة التى هى آلة عدو الله ، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل والركوع والسجود فى الصلاة تواضعا لله عز وجل بأفعال هى هيئة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل ، فأما تردد السعى ، ورمى الجمار ، وأمثال هذه الأعمال فلاحظ للنفوس ، ولأنس للطبع فيها ، ولا اعتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون فى الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد ، وقصد الامثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط .

وفيه عزل للعقل عن تصرفه ، وصرف للنفس والطبع عن محل أنسه ، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل ، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك قال ﷺ فى الحج على الخصوص : « لبيك بحجة حقا ، تعبدا ورقا » ولم يقل ذلك فى صلاة ولا غيرها ، وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط

(١) سورة النمل : ٦٢

(٢) هبة النفوس لابن أبي جمرة ١٦٥ - ١٦٦

نجاة الخلق بأن تكون أعينهم على سنن الانقياد ، وعلى مقتضى الاستعداد ، كان مالا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تركية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق ، إلى مقتضى الاسترقاق ، وإذا تفتنت لهذا ، فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة ، مصدره الذهول عن أسرار التعبدات ، وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى (١) أه .

ويقول الإمام الغزالي عن الرمي ، وإن العمدة فيه هو الانقياد والأمر المجرد : فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه ، ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام ، حيث عرض له إبليس - لعنه الله تعالى - في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة ، أو يفتنه بمعصية ، فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له ، وقطعاً لأصله ، فإن خطرلك أن الشيطان عرض له وشاهده ، فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان ، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ، وأنه هو الذي ألقاه في قلبك ، ليفتر عزمك في الرمي فيه برغم أنف الشيطان . .

واعلم أنك في الظاهر ترمى الحصا إلى العقبة ، وفي الحقيقة ترمى به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره ، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له لمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه . (٢)

ويقول عن الذبيح : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكمل الهدى وأرج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار ، فهكذا ورد الوعد ، فكلما كان الهدى أكبر ، وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعمّ أه .

(١) الإحياء ٣ / ٤٨٣ ط الشب .

(٢) الإحياء للغزالي ٣ / ٤٨٩ .

تعقيب لا بد منه

وبعد . . . فإن فيما سقناه من تنوع العبادات ، وتلمس لبعض أسرارها إنما كان في حدود الطاقة والوسع ، ومن قبيل إلقاء الأضواء وإعطاء الأمثلة وتعميد القواعد لا من قبيل الاستقصاء فإنه غير مستطاع ، وكل إنما يتحدث في هذه الأمور بحسب فهمه ، ومبلغ علمه ، وما يفتح الله به عليه ، ومن هنا كان حرصنا على سوق ألوان من الفهم لجماعة من الأئمة لهم في العلم شأنهم ، وفي السدين مكائنتهم ، وفي المعرفة أذواقهم وأحاسيسهم ، وبالله التوفيق ، هو حسبنا ونعم الوكيل .

والحقيقة التي ينبغي اعتقادها ، والإيمان بها ، والحرص على دوام استحضارها واستصحابها في سائر الأحوال ، ومع جميع الأعمال أن الأصل في العبادة أنها تؤدي انقيادا لله تعالى وخضوعا لأمره ، وإيمانا بحكمته ، واعترافا بحقه ، وقيامًا بواجب شكره على ما أسدى من نعم ، وأغدق من فضل . . . ولا يكون العبد مؤمنا إلا بهذا التسليم : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقسه فأولئك هم الفائزون ﴾ ^(١) .

ولا يتم له إيمانه إلا إذا انشرح بذلك صدرا ، وقربه عينا دون أدنى تردد أو حرج : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ^(٢) . ولو كان الإنسان لا يعبد الله إلا بما وافق عليه عقله المحدود ، وعرف

(١) سورة النور : ٥١ ، ٥٢

(٢) سورة النساء : ٦٥

الحكمة فيه تفصيلا ، فإذا عجز عن إدراك السر في جزئية أو أكثر من جزئياته ، أعرض ونأى بجانبه لكان في هذه الحالة عبد عقله وهواه ، لا عبد ربه ومولاه .

إن العبودية لله شعارها الإيمان بالغيب ، والطاعة للأمر ولو لم تحط بسره ، وحسب المؤمن أن يعلم بالإجمال أن الله غنى عن العالمين ، غنى عن طاعتهم وعباداتهم ، فلا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى : ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد﴾ ^(١) ، ﴿والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾ ^(٢) . فالله غنى عن عباده كل الغنى ، وإذا تعبدهم بشيء فإنما يتعبدهم بما يصلح أحوالهم ، ويعود عليهم بالخير في حياتهم الروحية الفردية ، والاجتماعية الدنيوية ، والأخروية غير أن الإنسان المحدود قد تخفى عليه حكمة الله جل وعلا في أمره ونهيه ، كما تخفى حكمته في جريان الأقدار ، وفي التسليم الاستقرار والسعادة ، والحسنى وزيادة :

وكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى

وكما أخفى كثيرا من أسرار هذا الكون عن الإنسان أخفى عنه بعض أسرار ما شرع ؛ ليظل الإنسان في هذا وذلك متطلعا بأشواقه وراء المجهول ، أملا في الوصول ، معترفا بالقصور ، وليظل دائما في دائرة العبودية المؤمنة التى شعارها دائما : ﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ ^(٣) . اهـ

ويقول الإمام الغزالي : إن العبادات لصحة قلب الإنسان ،

(١) سورة لقمان : ١٢

(٢) سورة آل عمران : ٩٧

(٣) الميادة في الاسلام للقرضاوى : ٢٠٧ - ٢٠٨ وما بين القوسين فمن كلام الباحث

كالأدوية لصحة بدنه ، وليس كل إنسان يعرف خواص الدواء وسر تركيبه ، إلا الطبيب أو العالم الذى اختص بمعرفته ، وكل مريض يقلد الطبيب فيما يصفه له من دواء ولا يناقشه فيه (قال) : فكذلك بان لى على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة ، المقدرة من جهة الأنبياء لا يدرك تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء ، الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل ، كما أن اختلاف الأدوية فى المقدار ، والوزن ، والنوع ، لا يخلو من سر هو من قبيل الخواص .

فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب مركبة من أفعال مختلفة النوع ، والمقدار حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار ، فلا تخلو من سر من الأسرار وهو من قبيل الخواص التى لا يطلع عليها إلا بنور النبوة ؛ فقد تحامق وتجاهل جدا من أراد أن يستنبط لها حكمة أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق لا من سر إلهي فيها ^(١) اهـ

والعقل لا يستطيع الإحاطة بكل سر ولا الوقوف على كل حكمة ، وإنما تتجلى له بعض الحكم والأسرار وتخفى عليه الكثير، وعليه - وهو متعبد لربه - أن يسلم له فيها خفيت عليه الحكمة ، أو غاب عنه سره ، وبذلك يكون قد أدى عبوديته لربه بالانقياد والخشوع ، والاستسلام واليقين ، من غير حرج ولا ضيق ؛ لأنه لو انفتح المجال للعقل فى هذا الميدان - وعقول الناس ليست على وتيرة واحدة - لاستحسن البعض ما يستقبحه غيره ، أو العكس ، ولدخلت العقول فى العبادة بالهوى . فلا يكون ثمة إلا الاختلاف والافتراق ، والخروج عن العبودية وآدابها ، واقتراح الزيادة أو النقصان فى مقادير العبادة ، أو التخمين والتكهن فى أسرارها .

(١) التفد من الضلال

فالعبادات شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها ولا يتجه الاعتراض إلى وضع من أوضاعها إلا ما أمكن أن يتجه إلى الوضع الآخر ، لو استبدل منها ما اقترحه المقترح بما جرى عليه العمل وقامت عليه الفريضة من نشأتها . لماذا يكون الصوم شهرا ولا يكون ثلاثة أسابيع أو خمسة ؟ لماذا تكون الزكاة جزءا من عشرة أجزاء ولا تكون جزءا من تسعة أو من خمسة عشر ؟ لماذا نركع ونسجد ، ولا نصلى قياما ، أو قياما وركوعا بغير سجود ؟ من اعترض بأمثال هذه الاعتراضات فليس ما يمنعه أن يعود إلى الاعتراض ، لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع أو فرضت الزكاة فوق مقدارها ، أو دون هذا المقدار ، أو فرضت الصلاة على وضع غير وضعها الذى اتفق عليه أتباع الدين .

وليس معنى ذلك أن هذه الأوضاع لا تعرف لها أسباب تدعو إليها ، وتفسر لنا اتباعها دون غيرها ، لكنها فى نهاية الأمر أوضاع توقيفية لا موجب من العقل للتحكم فيها بالاقترح والتعديل لأن المقترح المعدل لن يستند إلى حجة أقوى من الحجة التى يرفضها ، ويميل إلى سواها ، ويسرى هذا على كل تنظيم فى أمور الدنيا ، ولا يسرى على أمور الدين وحده ، فلماذا يكون عدد الكتبية فى جيش هذه الأمة خمسين مثلا ويكون فى أمة غيرها أربعين أو مائة ؟ ولماذا يجعل اللون الأخضر رمزا لهذا المعنى فى ألوان العلم القومى عند قوم من الأقوام ، وهو مجعول لغير هذا المعنى عند أقوام آخرين ؟ لا مناص فى النهاية من أسباب توقيفية يكون التسليم أقرب إلى العقل من المجادلة فيها . إلا أن هذا كله لا يقضى علينا بقبول كل عبادة على كل وضع يخطر على البال ، ولا يمنعنا أن نفاضل بين العبادات فنرى منها عبادة أفضل من عبادة ، أو فريضة أولى بالاتباع من فريضة ، إذ لاشك أن العبادة التى تؤدى غرضها أفضل من العبادة التى لا تؤدى هذا الغرض ، أو لا تؤدى غرضا من الأغراض ، ولا شك فى وجود المزايا التى تتفاوت بها العبادات وإن لم تكن هذه المزايا داخلية فى الغرض بشعائر العبادات .

والغرض من عبادات الأديان ينطوى على أغراض متشعبة ، يضيق بها الحصر لأنها تقابل أغراض الدنيا جميعا بأغراض الدين ، ولكنها قد تجمعنا جهد المستطاع في تنبيه المتدين على الدوام إلى حقيقتين ، لا ينساها الإنسان في حياته الخاصة أو العامة إلاهبط به النسيان إلى درك البهيمية ، واستغرق في هموم مبتذلة لافرق بينها وبين هموم الحيوان الأعجم - إن صح التعبير- عن شواغل الحيوان الأعجم بكلمة الهموم .

إحدى الحقيقتين التى يراد من العبادة المثلث أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام هى وجوده الروحى الذى ينبغى أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية ، وغير شهواته الحيوانية .

والحقيقة الأخرى التى يراد من العبادة المثلث أن تنبه إليها ضميره هى الوجود الخالد الباقي إلى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية ، ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقي ، إذا أريد منه أن يحيا حياة تمتد بآثارها إلى ما وراء معيشته اليومية ، ووراء معيشة قومه ، بل معيشة أبناء نوعه ، وعبثا يترقى الإنسان من مرتبة البهيمية إلى مرتبة تعلوها إن جاز أن يعيش أيامه يوما بعد يوم وهو لا يذكر أنه مطالب بواجب أكبر من واجب الساعة ، أو واجب العمر كله ، فإن الترقى فى كل صورة من صورته يفضى إلى غاية واحدة هى خلاص الإنسان من رتبة الانحصار فى مطالب اليوم والساعة أو مطالب العمر كله المحدود بحياته الفردية ^(١) .

وإن المسلم ليستحضر وهو يؤدى عبادته الخاصة والعامة من وقت يقظته وهو يستقبل النهار إلى وقت استسلامه للنوم عند رقاذه أنه يتعامل مع مالك الوجود الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وثمرة هذه العبادة عائدة عليه وحده ، فهو يحب الطعام ، ولكن مع حبه له يؤثر به يتيمًا أو

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ العقاد ٩٣ - ٩٥

مسكيننا ، مستحضرا ربه الذى من أجله أطعم وقدم : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيها وأسيرا ، إنا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾ ^(١) .

إن الإنسان بالإيمان والعبادة كائن كريم يحيا على خير ويموت على خير : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ^(٢) ، ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الأنسان : ٨١ - ٢٢

(٢) سورة النحل : ٩٧

(٣) سورة التور : ٥٥

الفصل الثالث

ميزان قبول العبادة وسموها

العبادة في الإسلام خضوع وحب لله تبارك وتعالى ، وكلما تحقق هذا كلما تحققت العبودية الكاملة تعالى ، وكلما تحققت العبودية لله تكمل محبة العبد لربه ، وتعظم محبة الله لعبده يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ . (١) فمن أحب غير الله كانت فيه عبودية لذلك الغير بقدر حبه له ، لأن من أحب شيئا خضع له ، وسارع فيما يراه مقربا إليه ، راغبا في دوام محبته له ، فمن أحب الدنيا وما فيها من جاه ومال ، ومنصب ورياسة ، ونساء وشهوات ؛ أصبح أسيرا ذليلا لما أحب . ولا يتحرر من رق هذه الأمور إلا من عرف الله ، وأحبه وأثره على كل شيء سواه ، وإذا أحب شيئا آخر فإنما يحبه الله فتكون محبة الشيء الآخر تبعا ؛ لأنها لو كانت أصلا لكانت باطلة ؛ فالله تعالى الخالق الباري ، المنعم المتفضل الذي له الخلق والأمر هو الجدير بالحب ، وفي حب الله التحرر المطلق من عبودية غيره . ولكن كيف نحب الله ، ؟ وكيف نعبده ؟ وما هو الميزان الصحيح لقبول العبادة ؟ .

إن محبة الله تعالى وعبادته وهي الغاية من الخلق والوسيلة لإصلاحهم ، وهي مطلوبة لذاتها وآثارها ، لا تكون صحيحة ولا مقبولة إلا إذا وقعت على الوجه المشروع ، وقصد بها العابد وجه الله وحده .

وإذن فالميزان الصحيح لقبول العبادة وسموها أن تكون موافقة لما شرع الله تعالى ، ويراد بها الله تعالى وحده ، ويجمع ذلك قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ . (٢)

(١) سورة البقرة : ١٦٥

(٢) سورة الكهف : ١١٠

وقال سبحانه : ﴿ . . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ^(١) .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : ^(٢) بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن أى : من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن . . ﴾ . الآية وقال أبو العالية والربيع : بلى ، من أسلم وجهه لله يقول : من أخلص لله . وقال سعيد بن جبير : بلى ، من أسلم : أخلص وجهه قال : دينه وهو محسن . أى اتبع فيه الرسول ﷺ . فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون خالصا لله وحده ، والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة ، فمتى كان خالصا ، ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم من حديث عائشة - رضى الله عنها ؛ فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول ﷺ - المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وفى أمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يمسسه الظهآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ﴾ . ^(٣) وقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية ، تسقى من عين أنية ﴾ . ^(٤) وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه تأولها فى الرهبان - كما سيأتى .

وأما إن كان العمل موافقا للشريعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم

(١) سورة البقرة : ١٧٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥

(٣) سورة النور من آية ٣٩

(٤) سورة الغاشية ٢ - ٥

يخلص عامله القصد لله فهو أيضا مردود على فاعله ، وهذا هو حال المرائين ، والمنافقين . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ^(٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ^(٣) . وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(٤) . ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وأمنهم مما يخافونه من المحذور ، فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه كما قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى في الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يعنى لا يحزنون للموت . أهـ

وإخلاص العمل لله وحده وكونه على وفق شريعته التى جاء بها سيدنا محمد ﷺ هو طريق الرشاد ، وعلامة الرشد ، ودليل القبول ، وسبب كل عطاء لأن العبادة فى الإسلام ليست هيكلًا ، أو شبحًا ، لآحياة فيها ولأرواح ، إنها ليست الصور الباهتة الخافتة التى تؤدى (تسديد خانة) أو كعادة من العادات المألوفة . ولكنها نور يتصل بالقلب ؛ فيحييه ويغذيه ، ويملؤه بالأسرار من جميع نواحيه ، فيصبح العمل كله لله ومع الله ، ومن أجل الله ، وما أطيب عيش من هذا حاله ، يتعامل مع ربه بالإخلاص والعمل الصالح ، فتسهل عليه الطاعات ، وتيسر له سبل الخير فيجد لذة الطاعة ويدوق حلاوة الإيمان ، ويزداد الله حبا ، وبه تعلقا ، وله خشية ، فإن أراد

(١) سورة النساء : ١٤٢

(٢) سورة الماعون : ٤ - ٧

(٣) سورة الكهف : ١١٠

(٤) سورة البقرة : ١٧٧

شيئا سألته فإن أعطاه رضى ، وإن منعه رضى أيضا ؛ لأنه يعلم - وقد جرب
المعاملة مع ربه - أنه لم يمنعه بخلا - حاشاه - وإنما منعه لحكمة .

والإخلاص - ومحله القلب - هو الذى توزن به الأعمال ، وتعرف به
أقدار الرجال والله جل جلاله لا ينظر إلى المظاهر والأشكال ، وإنما ينظر إلى
القلوب والأعمال ففى الحديث الذى رواه مسلم : « إن الله لا ينظر إلى
أجسامكم وصوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » فمن كان قلبه
نظيفا ، وسريته طيبة ، ونيته خالصة ، فقد دل ذلك على صحة قصده ،
وسلامة وجهته ، وحسن عبادته ، وعدم إشراكه مع الله غيره فى العبادة فلا
يلاحظ الناس ، ولا يغتر بشنائهم ، فلا يصلى ليقال عنه إنه من الصالحين ،
أو يتصدق ليقال إنه من الأسخياء الكرماء ، ولا يقاتل ليقال إنه شجاع ،
وبطل ، إن من يفعل ذلك : من يقصد غير الله بعمله يرد الله عليه أعماله
لأنه سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه . . ﴾
الآية . ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ ^(١) ، ﴿ قل
إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ،
قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصا له
دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم
وأهلهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ، لهم من فوقهم ظلل من
النار ، ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون ، والذين
اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنا بوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين
يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا
الألباب ﴾ ^(٢) .

فأصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة هم الذين عبدوا الله

(١) سورة البينة : من ٥

(٢) سورة الزمر : ١١ - ١٨

مخلصين له الدين فكسنت حياتهم ومماتهم ، وصلواتهم ، وصدقاتهم ،
وحججهم ، وصيامهم وجميع أعمالهم على غاية من الصلاح والخير ، وكان الله
مقصودهم ، إليه يتوجهون بما يعملون ، فأنمر لهم الإخلاص مزيدا من
الحب والود ، والصفاء والنقاء فكانوا من خيرة عباد الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ
لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (١)

ولحرص الصحابة - رضى الله عنهم - على الخير كانوا يسألون رسول
الله ﷺ ويستنصحوه ، فهذا معاذ بن جبل - رضى الله عنه - حين بعثه
رسول الله ﷺ إلى اليمن ، قال : يا رسول الله أوصنى ، قال عليه الصلاة
والسلام : « أخلص نيتك يكفك العمل القليل » . (٢)

وقد تسيطر على الإنسان شواغل وشهوات تنسيه ربه فينسيه الله
نفسه . وقد حذر الله سبحانه المؤمنين من ذلك فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . (٣) والفاسقون هم
الذين خرجوا عن طاعة الله ، ومن خرج عن طاعة الله هلك ، ومن لم يقطع
الله أطاع غيره ، وكثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها
تحقيق محبتها لله وعبوديتها له ، وإخلاص دينها كما قال شداد ابن أوس :
يا بغايا العرب ، يا بغايا العرب ، إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء
والشهوة الخفية . وقيل لأبي داود السجستاني : وما الشهوة الخفية ؟ قال :
حب الرياسة .

وعن كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « ما ذنبان جائعان

(١) سورة البقرة : ٧ - ٨

(٢) رواه الحاكم

(٣) سورة الحشر : ١٩

أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»^(١)

فبين ﷺ أن الحرص على المال والشرف في إفساد الدين لا ينقص عن إفساد الذنوبين الجائعين لزريبة الغنم ، وذلك بين ، فإن سليم الدين لا يكون فيه هذا الحرص ، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ، ومحبه له لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه ، وبذلك يصرف - عن أهل الإخلاص لله - السوء والفحشاء ، كما قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .^(٢)

فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره ، ومن حلاوة محبه لله ما يمنعه عن محبة غيره ، إذ ليس عند القلب السليم أحلى ، ولا ألد ، ولا أطيب ، ولا أسر ، ولا أنعم ، من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبه لله وإخلاصه الدين له ، وذلك يقتضى انجذاب القلب إلى الله ، فيصير القلب منيبا إلى الله ، خائفا منه راغبا راهبا ، كما قال تعالى : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ ؛^(٣) إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه ، أو عدم حصول مرغوبه ؛ فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء كما قال تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ .^(٤)

وإذا كان العبد مخلصا لله اجتباها ربه ، فأحيا قلبه واجتذبه إليه ، فيصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ، ويخاف من حصول ضد ذلك ، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله فإن فيه طلبا وإرادة وحبا مطلقا

(١) رواه الترمذى : وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) سورة يوسف : من ٢٤

(٣) سورة ق : ٢٢

(٤) سورة الإسراء : ٥٧ .

فيهوى كل مايسنج له ، ويتشبث بما يهواه كالغصن ، أى نسيم مر به عطفه وأماله ، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيرا عبدا لمن لو اتخذ هو عبدا له لكان ذلك عيبا ونقصا وذما .

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة ؛ فترضيه الكلمة ، وتغضبه الكلمة ويستعبده ، من يثنى عليه ولو بالباطل ويعادى من يذمه ولو بالحق .

وتارة يستعبده الدرهم والدينار ، وأمثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب والقلوب تهواها ، فيتخذ إلهه هواه ، ويتبع هواه بغير هدى من الله ^(١) ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ^(٢) .

فمن اتبع طريق الله واستجاب لله على منهاج وطريق رسول الله ﷺ الذى عبد الله مخلصا له الدين حتى أتاه اليقين ، فإنه يكون عند الله من المهتدين الفائزين ومن لم يتبع هذا المنهج الصحيح ؛ انحرف وسار فى طريق الضلال ، واتبع هواه بغير هدى من الله ، فضل عن سواء السبيل وكان عاقبة أمره خسرا .

لذا ينبغى للإنسان أن يتكشف أغوار نفسه ، ويتعرف على حوافرها وبواعثها إلى الأعمال ، ومقدار استجابتها وتلبيةها وخضوعها لسلطان الله القوى القاهر ، مالك الملك ومدير الأمر ، فإن كانت تحس بسلطان الله ورقابته ، وعظمته وهيمته ، وقيامه على كل نفس بما كسبت عند كل عمل ، وبإزاء كل حركة فقامت بالأعمال سليمة صحيحة ، وقصدت بها الله وحده ، فقد سلكت طريق الأخيار ورجت النجاة فتمحى الأعراض ، وتذهب المآرب وتصبح الأعمال فى النفس مستمدة من بواعثها لا من

(١) العبودية لابن تيمية ، صفحة : ١٣٨ - ١٤١

(٢) سورة القصص : ٥٠

نتائجها ، فالباعث والمحرك والحافظ عبادة الله ، ومرضاة الله والعمل لله ،
ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون . ومتى كان الأمر كذلك سلمت العبادة
من المشويات ، وماتت الأغراض ، وأزيلت من الطريق المعوقات فيتحقق
الإخلاص الذى هو إقرار بالمعبود ، والتوجه إليه بكل حركة فى الجوارح
والحياة ، وكل خلجة فى النفس أو خاطرة فى القلب ، أو همسة فى الضمير ،
وعند هذا الحد تمحى من القلب الأغلال التى تكبله ، والقيود التى
تعطله ، والأطماع التى تذلّه وتغلقه فيصبح حراً من كل رق ، عزيزاً من كل
ذل ، طليقاً من كل قيد ، أيقن حقاً أنه لانافع ولاضار ولا معطى ولا مانع ،
ولامعز ولا مذل إلا الله تعالى ، وهذه الحرية والقوة شملت كيان الإنسان كله
عقلاً وروحاً ووجداناً وعاطفة وبدناً فتوجه إلى الله بكل شىء وهذا هو
الطريق .

ينبغى أن يكون العمل كله لله ومن أجله ، وقد كفاك كل مخلوق ،
وجلب لك كل خير . وإياك أن تميل عنه بموافقة هوى ، وإرضاء مخلوق
فإنه يعكس عليك الحال ويفوتك المقصود ، وفى الحديث : « من أرضى
الناس بسخط الله عاد حامله من الناس ذاماً » ، وأطيب العيش عيش من
يعيش مع الخالق سبحانه .

فإن قيل كيف يعيش معه ؟ قلت : بامثال أمره واجتناب نهيه ومراعاة
حدوده والرضا بقضائه ، وحسن الأدب فى الخلوة ، وكثرة ذكره ، وسلامة
القلب من الاعتراض فى أقداره ، فإن احتجت ، سألته ، فإن أعطى ،
وإلا رضيت بالمنع ، وعلمت أنه لم يمنع بخلاً ؛ وإنما نظر لك ، ولا تنقطع
عن السؤال لأنك تتعبد به ، ومتى دمت على ذلك رزقك محبته ، وصدق
التوكل عليه ، فصارت المحبة تدلك على المقصود ، وأثمرت لك محبته إياك
فتعيش عيش الصديقين .^(١)

(١) صيد الخاطر لابن الجوزى ، صفحة : ١٥١

والإخلاص يحتاج إلى صدق فيه ، وصبر عليه ، ووقوف دائم بباب الله ؛ يسأل الإنسان ربه بصدق ؛ أن يرزقه سلامة قلبه ، وصحة قصده ، وأن يتم عليه نعمة الإخلاص ، وحسن النية ؛ فيعمل صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ، فالإخلاص أساس القبول ، والنية الصالحة ضرورية لصلاح الأعمال يقول عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه .^(١) »

واعلم أن السطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالأقدام ، وإنما تقطع بالقلوب ، والشهوات العاجلة قطاع الطريق ، والسبيل كالليل المدهم ، غير أن عين الموفق بصر فرس لأنه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء ، والصدق في الطالب : منار إن وجد يدل على الجادة ، وإنما يتعثر من لم يخلص ، وإنما يمتنع الإخلاص عن لايراد فلاحول ولا قوة إلا بالله^(٢)

وإذا كانت السطريق الموصلة إلى الله لا تقطع بالأقدام ، وإنما تقطع بالقلوب ؛ فوجب إصلاح هذه القلوب بحبس قطاع الطريق ، والتغلب على شهوات النفوس والسير في طريق المجاهدة : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾^(٣)

وإن من تأمل نعم الله عليه ، وإحسانه إليه ، وتفضيله على سائر المخلوقات وتقديمه على سائر الحيوانات ، كان مقتضى الأدب ، وواجب العرفان بالجميل ، أن يقدم ربه في قلبه على كل المطلوبات فلا يقصد

(١) متفق عليه

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي صفحة : ٣٥٥

(٣) سورة العنكبوت : ٦٩

بالعمل غيره ، ولا يتوجه بالعبادة لسواه .

قال الأعمش حدثنا أبو عمارة مولى بنى هاشم عن شهر بن حوشب قال : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أنبئني عما أسألك عنه ، أرايت رجلا يصلى ، يبتغى وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويحج ، يبتغى وجه الله ، ويحب أن يحمد . فقال عبادة : ليس له شيء ؛ إن الله تعالى يقول : « أنا خير شريك فمن كان له معى شريك فهو له كله لاجابة لى فيه » .

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير حدثنا كثير بن زيد عن رباح ابن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه عن جده قال : كنا نتناوب رسول الله ﷺ ، فنييت عنده تكون له الحاجة ، أو يطرقه أمر من الليل ، فيبعثنا ، فكثير المحبوسون ، وأهل النوب ، فكنا نتحدث ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « ماهذه النجوى ؟ » قال : فقلنا : تبنا إلى الله ، أى نبي الله ، إنما كنا فى ذكر المسيح وفرغنا منه . فرغنا منه . فقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى ؟ » قال : قلنا : بلى قال : « الشرك الخفى أن يقوم الرجل يصلى لمكان الرجل » . (١)

قال الله تعالى : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ، ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ . (٢)

ذكروا فى سبب نزولها : مارواه ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المشركين - من جاهلهم - دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه إلهه ؛ فنزلت : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ صفحة ١٠٨

(٢) سورة الزمر : ٦٤ - ٦٦

الجاهلون ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴿١﴾ . وهذه كقوله تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط ماكانوا يعملون ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ . أى : أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن معك وصدق به .

وبالتأمل فى قوله تعالى : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ نرى الاستنكار فى وجوه الجهلة - والجهل أساس كل بلاء - يعقبه تحذير من الشرك وعواقبه السيئة من حبوط الأعمال ، وحصول الخسران ، وإذا كان الأنبياء وهم المرأون والمصنون أن يتطرق إليهم شئ من ذلك ، يبدأ بهم فمن سواهم من أتباعهم أولى .
كذلك فى جانب الأمر يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليا حكيما واتبع ما يوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا ﴾^(١)

فقد نبه رسوله ﷺ وهو أعظم الناس صلة بالله ، وأكثرهم له تقوى وخشية ومعرفة ، فأولى بذلك غيره من أتباعه ، والمصدقين به ، والمقتدين به والسائرين على نهجه ، وفى ختام التحذير من الشرك فى سورة الزمر الأمر بالتوحيد ، توحيد الله فى العبادة ، والشكر على التوفيق ؛ لسلوك طريق الهداية ومعرفة الله ، وإفراده بالعبادة ، والشكر على آلائه التى لا تحصى ونعمائه التى لا تحصى ؛ ولاتعد : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ .

من ذلك نرى أن من أفرد الله بالعبادة وأحسنها ، وأخلص لله فيها وجاء بها على طريق الصواب ، هو المستقيم المهتدى الموفق الناهج النهج الصحيح السليم وهو الفائز فى الدنيا والآخرة .

(١) سورة الأحزاب : ١ - ٣

أما من انحرف بالعبادة عن هذا النهج السوى ، والطريق المستقيم
فقد تسبب لنفسه في سوء العاقبة ، ووخيم النتيجة .

فمن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد ؛ فأتى به
فعرفه نعمه ، فعرفها قال : فما عملت فيها : قال : قاتلت فيك حتى
استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جريء ، فقد
قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه ،
فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك
القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ؛ ليقال عالم ، وقرأت القرآن ؛
ليقال هو قارئ ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في
النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال فأتى به ، فعرفه
نعمه ، فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل يحب أن
ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو
جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ^(١) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ
عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حجة ، ويقاتل رياء ، أى ذلك في
سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ،
فهو في سبيل الله » . ^(٢)

وعن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنها قال : كنا مع النبی

(١) رواه مسلم

(٢) متفق عليه

ﷺ في غزاة فقال : « إن بالمدينة لرجالاً ، ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً ، إلا كانوا معكم . حبسهم المرض » وفي رواية « إلا شركوكم في الأجر » ^(١)

وعن أنس رضى الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال : « إن أقواما خلفنا بالمدينة ، ما سلكتنا شعباً ، ولا وادياً ، إلا وهم معنا . حبسهم العذر » ^(٢)

عن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنيس رضى الله عنهم - وهو وأبوه وجده ، صحابيون - قال : كان أبي يزيد أخرج دنائير يتصدق بها ، فوضعها عند رجل في المسجد ؛ فجئت ، فأخذتها ، فأتيته بها ، فقال : والله ما إياك أردت ، فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال : « لك مانويت يا زيد ولك ما أخذت يامعن » ^(٣)

ومن حديث سعد بن أبي وقاص : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في امرأتك . . . » ^(٤)

وقد ذكرت عدة أحاديث ، وكان بعضها يكفى في الشواهد على ما نريد من آثار الإخلاص ، وحسن النية في العمل ثواباً ، وفي عدم توافرها ضياع الثمرة والنتيجة : والذي دعانى إلى الإكثار من الشواهد ؛ أنها بمجموعها دلت على جملة من الأعمال من الجهاد ، وتعلم العلم ، وتعليمه ، وقراءة القرآن ، والصدقة ، والنفقة ، وأن ما كان منها لله فهو المقبول ، وما كان منها لغيره ، فهو المردود ، وربنا سبحانه غنى عن العالمين ، لا تنفعه عبادة العابدين ، وطاعة الطائعين ، ولا تضره معصية المنحرفين ، ولا كفر الكافرين : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا

(١) رواه مسلم
(٢) رواه البخارى
(٣) متفق عليه

يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لکم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى
ثم إلى ربکم مرجعکم فینبئکم بما کتتم تعلمون إنه علیم
بذات الصدور ﴿^(١) .

وفي الحديث : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك
له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض » .^(٢)

وإذا كانت العبادة الصحيحة المقبولة هي التي تستجمع شرطين
أساسيين :

١- الإخلاص الكامل لله .

٢- الصواب وهو الموافق للشریعة .

وسيدنا عمر رضی الله عنه كان يقول : اللهم اجعل عملي كله
صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا .

فما السبيل لتصحيح الإخلاص ؟ وما الطريق ليكون العمل صوابا
وموافقا للشریعة ؟ وكيف السبيل ليكون العمل - كما دعا سيدنا عمر - كله
صالحا ، ولوجه الله خالصا ، وليس لأحد فيه شيء ؟

والجواب : السبيل موجود ، وهو في غاية الوضوح ، والمنهج مرسوم ،
وهو في منتهى الدقة ، والطريق محدود ، ومعلوم ، ومسلوك ، سلكه رسول
الله ﷺ وعبداه ، وسلكه أصحابه ، والسلف الصالح بعدهم ، ولا يزال
المنهج والسبيل والطريق معبداً ومهيأً ومفتوحاً للمطالبيين ، والراغبين ، إن هذا
المنهج حدد في أول ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ،
خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم
الإنسان ما لم يعلم ﴾^(٣) .

(١) سورة الزمر : ٧

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم .

(٣) سورة العلق : ١ - ٥

وفي الآيات تنويه بمكانة العلم ووسائله ، من كتابة وقراءة ، لأنها سلم المعرفة ، وطريق الوصول إلى العلم ، ومنذ نزول : اقرأ باسم ربك ، تحددت الوجهة وعرف الطريق ، الذي يتلقى الإنسان منه ، ويسير فيه على هداه ، إن كل شيء تبدأ فيه باسم ربك : قراءة ، كتابة ، علماً ، عملاً باسم ربك .

ومادام كل شيء باسمه فهو الإله الواحد المعبود الذي منه نتلقى هدايتنا ، ونسلك طريقنا إليه على علم ومعرفة ، على اتباع لا ابتداع ، وقد كانت حياة رسول الله ﷺ طوال ثلاث وعشرين سنة ، منذ اقرأ إلى أن تم نزول القرآن ، وأجاب رسول الله - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى ، وحياته كلها لله : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ . ^(١) وشريعته ﷺ قائمة على العلم ، داعية إليه في كل أمر من أمور الدين ، أو أمور الحياة ، مايفعل فباسم الله ، ومايترك باسم الله ، في الجانب الإيجابي : ﴿ اقرأ باسم ربك . . ﴾ وفي الجانب السلبي : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ . ^(٢) ومادام فسقا فقد وجب اجتنابه لأنه باطل وغير صحيح ، وهكذا كل ما لم يقصد به وجه الله . أما ما قصد به وجه الله فهو الصحيح الحسن ، لأنه باسم الله وكلمة (ربك) في الآية : تشير إلى التربية التي تولى الله بها عباده ، وإذن فلا ثقة في علم لم يكن من عند الله ، وذلك فيما يتعلق بالشريعة والعقيدة ، والأخلاق ، فالمصدر الذي منه نتلقى ، والنبع الذي عنه نأخذ هو الله وحده .

وهذا هو الحق الذي يتمشى مع المنطق العقلي ، ومع الفطرة السليمة ، فالله هو الذي خلق وأمد ، وهو الذي ربى وعلم ، فالبداية

(١) سورة الأنعام : ١٦٢

(٢) سورة الأنعام : من ١٢١

باسمه ، والسير إليه باسمه ، وفي النهاية إليه المصير .

وقد كانت حياة الرسول ﷺ - كلها لله وبالله ، وفي الله ، في كل عمل واتجاه في كل حركة وسكون ، في كل نوم ويقظة ، في كل إشارة وعبرة ، لقد تكيّفت حياة رسول الله ﷺ - كلها على هذا الأساس : القمة في حسن العمل باسم الله والقمة في الإخلاص في إرادة الله بهذا العمل ، وهذا هو الميزان الصحيح لصحة العبادة وقبولها .

وإذن فعلى من أراد أن يزن العبادة ، أو أن يتعرف إلى الميزان الصحيح لقبول العبادة ؛ فعليه بالعلم بما كان عليه رسول الله - ﷺ ، فهو العلم الحقيقي الذي جمع بين الجانبين النظري والعملي ، ومن هنا فكل عبادة لم تكن قائمة على الاقتداء برسول الله ﷺ ، وعلى اتباع ما جاء به ، فهي غير مقبولة ؛ لنقصانها وعدم إرادة الله بها ؛ لذا ؛ جعل الله تعالى الطريق إلى محبته ، والوصول إليه في اتباع رسول الله سيدنا محمد ﷺ : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ، قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ ^(١) ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ^(٢) ولا يتم الإيمان حتى يحكم رسول الله - ﷺ ، ويرتضى حكمه ويسلم له تسلياً . ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً ﴾ ^(٣) .

لذا ، جعله الله قدوة وأسوة : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ ^(٤) . ولنسق هنا ما لخصه ابن القيم في كتابه زاد المعاد في هدى رسول الله

(١) سورة آل عمران : ٣٠ - ٣١

(٢) سورة النساء : ٦٥

(٣) سورة النساء : ٨٠

(٤) سورة الاحزاب : ٢١

ﷺ في ذكر الله ، قال رحمه الله : كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل ، بل كان كلامه كله في ذكر الله وآلائه ، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه الله ، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعدته ، ووعدته ، ذكرا منه له ، وثناؤه عليه بالآله ، وتمجيده ، وتحميده وتسييحه ذكرا منه له ، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له ، وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه وكان ذاكرة لله في كل أحيانه ، وعلى جميع أحواله ، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه قائما وقاعدا ، وعلى جنبه وفي مشيه وركوبه ، وسيره ونزوله ، وكان إذا استيقظ قال : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » . وقالت عائشة : كان إذا هب من الليل كبر عشرا ، وهلل عشرا ثم قال : « اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا ، وضيق يوم القيامة عشرا » ، ثم يستفتح الصلاة .

وقالت أيضا : كان إذا استيقظ من الليل ، قال : « لا إله إلا أنت سبحانك اللهم أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علما ، ولا تنزع قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .^(١)

وأخبر أنه من استيقظ من الليل فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله وسبحان الله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال : اللهم اغفر لي ، أودعاء آخر استجيب له ، فإن توضأ وصل قبلت صلاته » .^(٢)

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - ليلة مبيته عنده ﷺ : إنه لما استيقظ رفع رأسه إلى السماء وقرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران : ﴿ إن

(١) ذكره أبو داود

(٢) ذكره البخاري

في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴿ إلى آخر الآيات . .
ثم قال : « اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ،
ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ،
والجنة حق والنار حق ، والنيبون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ،
اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ،
وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما
أسررت وما أعلنت أنت الله لا إله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم » .

وقد قالت عائشة - رضى الله عنها - : كان إذا قام من الليل قال :
« اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم
الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما
اختلف فيه من الحق بإذنك أنت تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » ،
وربما قالت : كان يفتح صلاته بذلك .

وكان إذا أوتر أو ختم وتره بعد فراغه يقول : « سبحان الله القدوس »
(ثلاثا) ويمد بالثالثة صوته .

وكان إذا خرج من بيته ، يقول : « بسم الله توكلت على الله ، اللهم
إني أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو
أجهل أو يجهل علي »

وقال ﷺ : « من قال إذا خرج من بيته : بسم الله ، توكلت على الله ،
ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هديت ، وكفيت ، ووقيت ، وتنحى
عنه الشيطان »

قال ابن عباس رضى الله عنهما - ليلة مبيته عنده - : إنه خرج إلى
صلاة الفجر وهو يقول : « اللهم اجعل في قلبي نورا واجعل من خلفي
نورا ، ومن أمامي نورا ، اللهم اجعل من فوقى نورا ، اللهم اجعلنى
نورا » .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« ماخرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق
السائلين عليك وبحق ممشاي إليك ، فإني لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء
ولا سمعة ، وإنما خرجت اتقاء سخطك ، وابتناء مرضاتك ، أسألك أن
تنقذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت إلا وكل
الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له ، وأقبل الله عليه بوجهه حتى
يقضى صلاته » وذكر أبو داود عنه - ﷺ - أنه كان إذا دخل المسجد قال :
« أعوذ بالله العظيم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم . فإذا قال ذلك
قال الشيطان : حفظ مني سائر اليوم . »

وقال ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليصل وليسلم على النبي
ﷺ - وليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، فإذا خرج فليقل اللهم إني
أسألك من فضلك » وذكر عنه أنه كان إذا دخل المسجد ، صلى على محمد
 وآله وسلم ثم يقول : « اللهم اغفر ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك » ، فإذا
خرج صلى على محمد وآله وسلم ثم يقول : « اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح
لي أبواب فضلك » .

وكان إذا صلى الصبح جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس ، يذكر
الله عز وجل ، وكان يقول إذا أصبح : « اللهم بك أصبحنا وبك
أمسينا ، وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور » حديث صحيح . وكان
يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، وحده
لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، رب أسألك
خير هذا اليوم ، وخير ما بعده ، وأعوذ بك من شر هذا اليوم ، وشر ما
بعده ، رب أعوذ بك من الكسل ، وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب
في النار ، وعذاب في القبر ، وإذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك
لله . . . » ذكره مسلم .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت قال : « قل اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه ومالكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم » قال : « قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك » (حديث صحيح) . ثم ذكر أحاديث كثيرة في هذا الباب

وكان - ﷺ - إذا استجد ثوبا سماه باسمه عمامة أو قميصا أو رداء ثم يقول : « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره ، وشر ما صنع له » (حديث صحيح) . ويذكر عنه - ﷺ - أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته : « الحمد لله الذي كفاني وآوانني ، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني والحمد لله الذي من علي ، أسألك أن تجبرني من النار » .

وثبت عنه في الصحيحين أنه كان يقول عند دخوله الخلاء : « اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث » وكان إذا خرج من الخلاء يقول : « غفرانك » ويذكر عنه أنه كان يقول : « الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني » ذكره ابن ماجه .

وثبت عنه أنه وضع يده في الإناء الذي فيه الماء ، ثم قال للصحابة توضأوا باسم الله ، ويذكر عنه أنه كان يقول عند رؤية الهلال : « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربي وربك الله » قال الترمذي : حديث حسن .

وكان إذا وضع يده في الطعام قال : « باسم الله » . ويأمر الأكلة بالتسمية ويقول : « إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى فإن نسي أن يذكر اسم الله في أوله فليقل باسم الله في أوله وآخره » حديث صحيح . وهكذا كانت حياة النبي ﷺ كلها متكيفة بهذا الهدى على هذا

النحو ، كل شيء باسم الله ، تلقيا وتنفيذا ، سلبا وإيجابا ، وهذا يوصلنا إلى أنه ﷺ كان في قمة العبادة ، وفي قمة العلم ، لأن الله تعالى هو الذي تولى تعليمه . ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ ^(١) . ﴿ فاعبده ، وتوكل عليه ﴾ ^(٢) ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ^(٣) .

العلم والعبادة :

والعلم الذي تسمو به العبادة هو العلم بالله ، بمعرفته ، بالدلالة عليه ، بالإيمان به والاستجابة لهديته ، وهل الإيمان إلا نوع من العلم بالله ، محوطا بالحقائق والدلائل العقلية والنظرية ؟ ولذلك جعل الله العلم في مقابل الكفر ، الذي هو جهل وانحراف وضلال : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ ^(٤) .

والتكذيب لا يقوم على علم وحجة وبرهان ، وإنما يقوم على جهل وأوهام وأكاذيب ، لا سند لها من العقل ، ولا أساس لها تقوم عليه من حجة ، يقول الله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ - أى ما تعبدون من دونه - ﴿ أرؤنى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتساب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ ^(٥) . ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ^(٦) .

(١) سورة النساء : من ١١٣

(٢) سورة هود : من ١٢٣

(٣) سورة الحجر : ٩٩

(٤) سورة الزمر : من ٩

(٥) سورة الأحقاف : ٥ - ٦

(٦) سورة الأحقاف : ٤

ولكن دعوة الإسلام التى تقوم على العلم الصحيح والحجة البالغة والبرهان الساطع والهدى والكتاب المنير ، هذه الدعوة التى تتلاقى مع الفطرة والعقل السليم ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ، ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ، نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ، ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، لله ما فى السماوات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾ (١) .

والجهل يفسد الفطرة ، ويسد منافذ العقل ، فيجعله لا يستفيد ولا يقبل حجة ولكنه يسير وراء التقليد الأعمى ، وبالتأمل فى الآيات الآتية من سورة فاطر يرى العاقل بل الذى لديه ذرة من العلم والعقل أن الذى خلق وأمد هو النافع والضار ، وهو السميع المستجيب ، وأن غيره لن يخلق ذبابة ولا يدفعها إذا سلبت منه شيئا : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (٢) .

وآيات سورة فاطر : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير ﴾ (٣) .

(١) سورة لقمان : ٢١ - ٢٦ .

(٢) سورة الحج : من ٧٢ .

(٣) سورة فاطر : ١١ .

اختلاف ثواب العبادة وأسبابه

وإذ فرغنا من بيان مابه صحة العبادة أو بطلانها ، وما به قبولها أو ردها فقد وجب علينا أن نتحدث عن اختلاف ثواب العبادة وأسبابه ، وأن نتعرض لبحث الأسرار التي تكمن وراء نظفر بعض العباد من أعمالهم بالأجر الكثير ، وحرمان غيرهم من القليل ، فإن في الإجابة عن هذه التساؤلات خيرا كثيرا ، ونفعا عظيما من حيث إن فيها وضع العبادات في مواضعها الصحيحة ، وبيان الأسباب التي بها يحصل الأجر العظيم ، وبغيرها يقل الثواب على نحو من التفصيل والوضوح لينتفع بها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

والواقع أن هذا الموضوع متشعب الأطراف ، متعدد الجهات ، ولكننا هنا نحاول جمع حقائقه ، وبيان دقائقه بقدر الإمكان ، والله المستعان وعليه التكلان . فنقول : لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقائق إجمالا في مواطن عدة :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله يبا تعملون خبير ﴾ .^(١) وقال تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له أضعافا كثيرة ؟ والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ .^(٢)

وقال : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت

(١) سورة الحديد : ١٠

(٢) سورة البقرة : ٢٤٥ .

سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع
عليم ﴿^(١) .

وقال : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا
يجزى إلا مثلهما وهم لا يظلمون ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته
ويعظم له أجرا ﴾ ^(٣) . وقال : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها
وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون
خبير ﴾ ^(٤) .

وقال : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ^(٥) .
وقد تولت السنة الشريفة بسط ذلك وإيضاحه ، وإعطاء أمثلة له ،
ونماذج متنوعة عليه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ
فقال : يا رسول الله أي الصدقة أعظم ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح
شحيح ، تخشى الفقر ، وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم
قلت : لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » ^(٦) .

وقال : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم ثنتان :
صدقة وصله » ^(٧) . وقال : « أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم
الكاشح » ^(٨) .

(١) سورة البقرة : ٢٦٦ .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٠ .

(٣) سورة الطلاق : ٥ .

(٤) سورة البقرة : ٢٧١ .

(٥) سورة الحجرات : ١٣ .

(٦) رواه البخاري في كتاب الزكاة .

(٧) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(٨) رواه الطبراني في الكبير - قاله المنذرى .

وسئل عن أفضل الصدقة فقال : ﴿ جهد مقل أو سر إلى فقير ﴾ ^(١)
فقد أشار النبي ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة أن الصدقة قد يختلف
ثوابها وفضليتها باختلاف حال المتصدق ، فليس من تصدق وهو في حال
صحته ورجاء الحياة ، والرغبة في الدنيا ، وتأميل الغنى ، وخشية الفقر ،
كمن تصدق بعد أن سرى في أوصاله الضعف والوهن ، وفرغ من الدنيا
وفرغت منه ، بل عاين أمارات الموت ، وشاهد نذرة .

وقد يختلف لأسباب أخرى أشارت هذه الأحاديث إلى معظمها ، برغم
أنها في ميدان واحد وعبادة واحدة ، وهي الصدقة وسيأتى بيانها في مناسباتها
بعون الله وتوفيقه .

وخلاصة الحقائق التي يمكن حصرها في هذا المجال المهم من مجالات
فقه العبادة ، تتلخص في أن العبادة يختلف ثوابها كثرة وقلة ، إما باختلاف
أحوال العابدين ، أو باختلاف الصورة التي تقع عليها العبادة ، أو
باختلاف الأزمنة أو الأمكنة ، أو باختلاف العاطفة التي تدفع إليها ، وتحت
عليها .

وحق علينا وقد أبرزنا هذه القواعد التي تضمنتها الشريعة ، أن نبينها
ونجليها ونسوق لها من الشواهد والأمثلة ما يعين على النفع بها ، والاستفادة
منها ،

فأما اختلاف ثواب العبادة باختلاف أحوال العابدين فأمثلته كثيرة :

١ - منها : أن العبادة مع مجاهدة النفس ، ومغالبة الشواغل أفضل من
العبادة التي يعين عليها الطبع ، ولذلك كانت عبادة الشاب لها مزيته
وفضلته لمجاهدته نفسه وهواه في طاعة مولاه ، وكان العدل ممن يملك
أسباب الجور أزكى وأنقى ، وكانت العفة ممن تيسرت له أسباب الغواية ،
أفضل من عفة العاجز الضعيف . . . وهكذا .

(١) رواه أحمد

يقول عليه الصلاة والسلام : « سبعة يظلهم الله يظلهم يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئاله ما تنفق يمينه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله . ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه » .^(١)

ب - ومنها : أن العبادة مع حضور القلب وخشوعه ، أزكى وأفضل من عبادة من يلهو عنها ، ويسهو فيها ، وذلك لأن الأصل في العبادة إنها هو التوجه القلبي ، وأما الأعضاء والجوارح فألات وأدوات ، ولذلك فإن للخشوع ثمراته العاجلة في تيسير العبادة على العابد ، وتجييبها إلى نفسه ، قال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾^(٢) يعني هذا أنها شاقة وشديدة على من يباشرها وإنها تكون سهلة ميسرة ، محبة مستعذبة على من خشع قلبه فيها دون غيره . قال عليه الصلاة والسلام : « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل »^(٣) وقال : « إن الرجل ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها »^(٤) وقال : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » .^(٥) وقال : « كم من صائم ليس من صيامه إلا الجوع والعطش » .^(٦) وقال : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »^(٧)

(١) متفق عليه .

(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٣) قال العراقي : لم أجده مرلوفا .

(٤) رواه أبو داود والنسائي .

(٥) رواه البخاري .

(٦) رواه النسائي وابن ماجه .

(٧) رواه البخاري .

ج - ومن ذلك أن الصلاة مع الطمأنينة ، وتوفية الركوع والسجود ، أفضل وأرجى للقبول مما دونها لأن الله سبحانه شرع لنا في هذه الصلاة صفات ، وألوانا من القراءة والذكر ، وشرع لنا كذلك أوضاعا خاصة من القيام والقعود ، والركوع والسجود ولكل منها حكمته التي إن عرفنا جانبها منها ، فما نستطيع ولا يستطيع أحد الإحاطة بكنهها نقول : لكل منها حكمته في تصفية القلوب ، وتزكية النفوس ، وتثبيت الإيثار والفوز بنعمة التسليم للملك السديان ، وبالتالي الظفر بأعظم الأجر ، وأجزل العطاء وذلك أن من أتم له الأجر ، ومن نقص وبخس فإن أجره ينقص بمقدار ما نقص ، والناس مختلفون في إخلاصهم وخشوعهم ، وحضور القلوب منهم ومختلفون كذلك في طمأنينة الجوارح وإيفاء الركوع والسجود ، ومختلفون كذلك في مدى فقه ما يعملون ، وتدبر القرآن الذي يتلون والتأثر بالآثار التي يرددون ، وكل هذه أمور تسبب التفاوت في العطاء عند من قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ .^(١) وقال : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ .^(٢) ومن هذا القبيل ما هو معروف ومسلم من أن الدعاء من القلوب التي امتلأت رغبة ورهبة من الله أفضل من دعاء الغافلين ، وسؤال المقصرين ، فإنه : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾^(٣) .

ومن ذلك مباشرة تلاوة القرآن في الصلاة وغيرها بتدبر وحضور القلب ، وعزم على الوقوف عند حدوده ، والتخلق بما ينصح به ، والفرار مما يحلر منه قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾^(٤)

(١) سورة الزلزلة : ٧

(٢) سورة النساء : ٤٠

(٣) سورة المائدة : ٢٧

(٤) سورة ص : ٢٩

د- ومن أظهر ما يستدل به على فضيلة العمل ، أن يكون له تأثير طيب على نفس صاحبه ، ومسلكه يحضه على الخيرات ، وينفقه من الشرور والقبايح ، قال تعالى : ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ . فقد بين سبحانه أن الصلاة المقبولة التي يرضاها الله هي التي تنهى صاحبها عن رذيلة البخل ، وتنهاه عن سائر المنكرات وبها وفيها ويتأثيرها يذكر ربه عز وجل : يذكر جلاله وعظمته ، وعفوه وإحسانه ورحمته ، أما العبادة التي لا تثمر في ذلك ثمرتها ، ولا تكف صاحبها عن الآثام ، ولا تمحّزه عن اللغو والحرام فقد بين عليه الصلاة والسلام شأنها فقال : « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » ^(١) بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فقال : « من لم تنه صلته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا » ^(٢) .

— الصدقة في حال الصحة والأمل في الحياة أفضل منها فيما لو وقعت في حال المرض وتوقع الوفاة ، وقد مر بنا حديث رسول الله ﷺ وقد سئل أى الصدقة أعظم ؟ أنه قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر ، وتأمل الغنى . . . الحديث » وقد مر ^(٣) .

— الصدقة في حال الإعسار أفضل من صدقة من لا يتصدق إلا من اتساع حال وفراغ ، بال . وقد مر بنا كذلك حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام وقد سئل أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد مقل أو سر إلى فقير » ^(٤) .

(١) تفسير ابن كثير ٤١٤/٣

(٢) تفسير ابن كثير ٤١٤/٣

(٣) رواه البخاري في الزكاة .

(٤) رواه أحمد .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ﴾ (١) .

فقد بينت هاتان الآيتان أن هذه الصفات السامية من اتصف بواحدة منها فقد صار من المتقين ، ووصل إلى مقام الإحسان ، وأنه محبوب من الله ومن أحبه الله أحبه أهل السماء ، وأهل الأرض وسائر الخلق .

قال رسول الله ﷺ : « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل - يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض . . . الحديث » (٢) .

وفي آفاق مكارم الأخلاق يرفع الله سبحانه وتعالى قدر نبيه الكريم بهذه الوصية الجامعة التي يوصينا بها النبي عليه الصلاة والسلام كذلك فيقول : « أوصاني ربي بتسع أوصيكم بهن : أوصاني بالإخلاص في السر والعلاية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أصل من قطعني وأعطي من حرمني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فكرا ونظري عبدا » .

وهذا الحديث يسترشد بضوء الآية الكريمة : ﴿ ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (٣) .

- بين عليه الصلاة والسلام أنه إذا كانت صلة الرحم من الفضائل

(١) سورة آل عمران : ١٣٣ - ١٣٤

(٢) رواه البخاري وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) سورة الشورى : ٤٣

الواجبة ، فإن صلة رحمك إذا قطعوك هي التي تعد صلة حقا ؛ لأن لها
المزية على غيرها : يقول عليه الصلاة والسلام : « ليس السواصل
بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » .^(١)

أي ليس السواصل الذي يظفر بعظيم الأجر ، وجزيل الثواب ، من
يكافئ رحمه وصلا بوصل ، لكن الواصل الكامل هو الذي يصل أرحامه
الذين يقطعونه ، ويحرقونه ، لأن هذا يجاهد نفسه ، ويغالب نوازعها ، وهو
مقام المختار عليه الصلاة والسلام ، ومقام من كان له بالمختار ﷺ أسوة
حسنة .

- العمل من أصحاب رسول الله ﷺ عموما أفضل من عمل من
بعدهم ، وأعمال السابقين منهم أزكى من أعمال اللاحقين .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح
وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله
الحسنى ﴾ .^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام : « لو أنفق أحدكم مثل أحد
ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .^(٣)

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنَّ عمل أبي بكر الصديق رضي الله عنه
أزكى وأفضل من غيره فإنه أسبق السابقين ، وأقرب المقربين ، وسيد
الصديقين ، وأسخى المنفقين والمتصدقين ، وإذا كان رسولنا ﷺ قد تفرد
بمقام رفيع في العبادة ، حتى كأنه العبد دون سواه ، كما سبق أن ذكرناه
وأوضحناه فإن الصديق رضي الله عنه قد انفرد بمقام فريد في الصحبة ،
لم يتح لغيره حتى كأنه الصاحب دون سواه قال الله تعالى : ﴿ إلا تنصروه
فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول

(١) رواه البخاري

(٢) سورة الحديد : ١٠

(٣) رواه البخاري .

لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ﴿^(١) .

وهذا الصاحب الوحيد هو الصديق الأكبر بإجماع المفسرين واتفاق كلمة المسلمين . وقد قال عليه الصلاة والسلام كذلك : « هل أنتم تاركوا - لى - صاحبى » ^(٢) . يقصد الصديق رضى الله عنه .

العبادة من المتقين أعظم أجراً ، وأبقى أثراً وأطيب ثمراً من عبادة غيرهم ، وهذا لأن التقوى تصحيح الأعمال وتصلحها ، وتباركها من جميع جهاتها ، من ظاهرها ، وباطنها ، من لبها وحقيقتها من هيكلها وشكلها ، من ثمرتها وما يترتب عليها .

قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾ ^(٣) .
وقال : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ ^(٤) .



(١) سورة التوبة : ٤٠

(٢) البخارى : ح : ٣٦٦١ .

(٣) سورة الطلاق : ٥

(٤) سورة البقرة : ٢٤٥

٢ . اختلاف ثواب العبادة باختلاف الأزمنة

كما أن في الناس الفاضل المبارك الذي تشع بركته على من حوله فتبشرهم بالخير ، وتحثهم عليه ، وتنفرهم عن الشر ، وتنقذهم منه ، والذي ليس له فيمن حوله هذه الآثار الطيبة ، فكذلك الأزمنة : من السنين والشهور والليالي والأيام : فيها المبارك الذي يتضاعف خيره ، ويتضاءل شره ، وفيها ما يقل خيره .

فمن حيث السنين والأعصر ، كان عصر النبي ﷺ خير العصور على الإطلاق لما كان فيه من بركات الوحي والقرآن ، والهدى والعرفان ، والتقوى والإيمان ، والرضا والتسليم ، وإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وإظهار الشريعة ، وكبح جنود الشيطان : من عبدة النيران ، وعبدة الأوثان ، وعبدة الصليبان ، ودحض حججهم ، وكسر شوكتهم ، تلك البركات التي لم يكن مثلها لنبي من الأنبياء ، ولا في أى عصر من العصور وإشارة إلى هذا المعنى يقسم الله جل جلاله بعصره عليه الصلاة والسلام فيقول : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .^(١) كما يقسم سبحانه وتعالى بحياته ﷺ لأنها سبب بركة هذا العصر العظيم بما تم فيه من إكمال الدين ، وإتمام النعمة على المؤمنين وتنزل النصر العظيم والفتح المبين ، فيقول : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ .^(٢)

ومن حيث الشهور فإن لشهر رمضان بركاته ونفحاته : ففيه طائفة من العبادات التي ترقى بالعبد وتؤهله لمرتبة أعلى من الصلاح والتقوى ، فيه

(١) سورة العصر
(٢) سورة الحجر : ٧٢

الصيام الذي يقول عنه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه فيما يرويه عن ربه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي ، وأنا أجزي به » .^(١) وفيه القيام وله أجره وفضيلته ، وفيه تلاوة القرآن الكريم ولها منزلتها العظيمة في تربية النفوس ، وتزكيتها ، ومعالجة القلوب وتنصيفتها ، والسمو بالأرواح وترقيتها ، ثم له أكبر الأثر في تعليم المرء وتذكيره بما يرضى الله له أن يأتيه ، وما يكره أن يقارفه ، وكل هذه عبادات تترك آثارها على غرس الأخلاق الكريمة والصفات الفاضلة في نفس العبد .

وبحسبنا أن نذكر ذلك الحديث المروى في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه كل ليلة من ليالي رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » .^(٢) يقول عليه الصلاة والسلام : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .^(٣)

وإذا كان رمضان من أفضل الشهور ، بل هو أفضلها على الإطلاق فإن أفضل لياليه ليلة القدر ، فإن فضلها على سائر الليالي ، كفضل آية الكرسي على غيرها من آي القرآن الكريم .

وهذه الليلة في العشر الأواخر منه ، أو هي في الوتر من العشر الأواخر ، أو هي ليلة السابع والعشرين .

وكونها ليلة السابع والعشرين أشهر ، وكونها في الوتر من العشر الأواخر ، وأنها متنقلة في هذه الليالي من عام إلى عام أظهر محجة وأقوى

(١) رواه الشيخان

(٢) رواه الشيخان

(٣) رواه الشيخان

حجة ، والأخذ به وقوف مع البصيرة والدليل ، واهتداء إلى سواء السبيل .
يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ
الْقَدْرِ ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا يَأْذُنُ
رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .^(١)

والواقع أن العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك أيام فاضلة كريمة
يضاعف فيها الثواب ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يجتهد في عبادة ربه
والإقبال عليه فيها أكثر مما يجتهد في غيرها .

فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يجتهد في
رمضان ما لا يجتهد في غيره ، وكان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في
غيره .^(٢)

وقالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا
الليل كله ، وأيقظ أهله ، وجد وشد المنزلة^(٣) قال أهل الحديث : قد
يكون المراد بقولها رضي الله عنها أحيا الليل أنه أحيا الليل كله فعلا ، وقد
يكون المراد إحياء معظم الليل على طريق المبالغة ، وهو المعتمد ، ومرادها
بإيقاظ أهله إيقاظ نسائه رضي الله عنهن للصلاة ، واغتنام هذه الأوقات
المباركة التي تنزل فيها الرحمة وتعم البركات ، وفي الصلاة والضراعة ،
الأمّن من الفتن والمحن ، والنجاة من الشدائد والأهوال ، والفوز برضا
الكبير المتعال ، وأما الجِد ، فهو الاجتهاد في العبادة كما سبق في حديثها .
وأما شد المنزلة فقد يكون على ظاهره ، وأنه يشد مثززه حقيقة جدا في
العبادة ، والراجح أن المراد به اعتزال النساء ، والتفرغ الكامل للعبادة ،
فإنه كان عليه الصلاة والسلام يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى كان

(١) سورة القدر - بتأليفها

(٢) متفق عليه

(٣) متفق عليه

العام الذى توفى فيه اعتكف لربه عشرين يوماً ، وقد قال تعالى : ﴿ ولا تبashروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ ^(١) .

- ثم من الشهور الفاضلة ذات الشأن عند الله ، والعمل فيها له فضيلته الظاهرة الأشهر الحرم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب . وقد حذر الله فيها من الفسوق والعصيان فقال : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ ^(٢) .

وعن مجيبة الباهلية عن أبيها أو عمها أنه أتى رسول الله ﷺ ، ثم انطلق فأتاه بعد سنة ، وقد تغيرت حاله وهيئته ، فقال يا رسول الله : أما تعرفنى قال : (ومن أنت) ؟ قال : أنا الباهلى الذى جئتكم عام الأول ، قال : « فما غيرك وقد كنت حسن الهيئة » ؟ قال : ما أكلت طعاماً منذ فارقتك إلا بليل ، فقال رسول الله ﷺ : « عذبت نفسك » ثم قال : « صم شهر الصبر ويوماً من كل شهر » . قال : زدنى فإن بى قوة ، قال : « صم يومين » قال : زدنى ، قال : « صم ثلاثة أيام » قال : زدنى قال : « صم من الحرم ، واترك ، صم من الحرم واترك » وقال : بأصابعه الثلاث فضمها ثم أرسلها . ^(٣)

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » ^(٤) .

- ومن الأوقات الفاضلة كذلك عشر ذى الحجة ، والأحاديث صريحة فى فضله ، وتضاعف ثواب العمل فيه ، قال عليه الصلاة والسلام : « ما

(١) سورة التوبة . ٣٦

(٢) سورة البقرة : ١٨٧

(٣) رواه أبو داود

(٤) رواه مسلم

من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله منه في هذه الأيام « قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء » .^(١)

وقد قال الله تعالى : ﴿ والفجر وليال عشر ﴾ فهذه الليالي العشر هي عشر ذى الحجة في رأى جمهرة المفسرين .

ومن الأوقات الفاضلة يوم عرفة وهو يوم مبارك عظيم يبرز المؤمنون فيه لربهم في عرفات يدعون ويسألون ويتضرعون ، وفيه يحصل للمخلصين من ربهم خير عظيم ، إذ تغفر لهم ذنوبهم ، ويتوب عليهم ربهم ، ويبدل سيئاتهم حسنات .

قال عليه الصلاة والسلام وقد سئل عن صوم يوم عرفة « يكفر السنة الماضية والباقية »^(٢) وصومه لغير الحاج ، أما الحاج فالوقوف والدعاء والضراعة .

ومن الأيام الفاضلة التى يسن صيامها والتقرب إلى الله فيها يوم عاشوراء .

وهو اليوم العاشر من شهر المحرم - فعن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم عاشوراء فقال : « يكفر السنة الماضية » . وقد كان رسول الله ﷺ يصومه ، ويحرص على ذلك ؛ ويأمر به أصحابه رضى الله عنهم . فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه .^(٣) ويلحق بهذا اليوم فى الفضيلة يوم

(١) رواه البخارى

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه مسلم

ومن هذه الليالي التي وقع فيها الاختلاف قديما ، ولا يزال قائما إلى الآن : ليلة النصف من شهر شعبان ، وقد وردت فيها طائفة من الأحاديث الشريفة عنى بإيراد كثير منها الإمام الحافظ زكى الدين المنذرى في كتابه النافع (الترغيب والترهيب) .

فمن ذلك ما رواه البيهقى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « قام رسول الله ﷺ من الليل فصلى ؛ فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتحرك ، فرجعت فسمعتة يقول فى سجوده : «أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك إليك ، لا أحصى ثناء ، عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ، فلما رفع رأسه من السجود وفرغ من صلاته قال : «يا عائشة أو يا حميراء : أظننت أن النبى ﷺ قد خاس بك ؟ » قلت : لا والله يا رسول الله ، ولكنى ظننت أنك قبضت لطول سجودك فقال : « أتدريين أى ليلة هذه ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله - عز وجل - يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان ، فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم » .^(١)

فبينما يقبل هذه الأحاديث جماعة من أهل الحديث ، ويرون أن طرقها وإن كانت ضعيفة فإنها بانضمام بعضها إلى بعض تكتسب قوة ، وعلى رأس هؤلاء الإمام البيهقى رحمه الله ، فمنهم من يرى أنها أحاديث شديدة الضعف وأن ضعفها لا ينجبر ، ولا تصلح لتقوية بعضها ببعض ، بل إن بعضها يوهن بعضا . أما الكلام فى العمل بها ، وصيام نهارها دعاء ،

(١) قال الحافظ المنذرى : رواه البيهقى عن طريق العلاء بن الحارث عنها ، وقال : هذا مرسل جيد ، يعنى أن العلاء لم يسمع من عائشة

ومن هذه الليالي التي وقع فيها الاختلاف قديما ، ولا يزال قائما إلى الآن : ليلة النصف من شهر شعبان ، وقد وردت فيها طائفة من الأحاديث الشريفة عنى بإيراد كثير منها الإمام الحافظ زكى الدين المنذرى في كتابه النافع (الترغيب والترهيب) .

فمن ذلك ما رواه البيهقى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « قام رسول الله ﷺ من الليل فصلى ؛ فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتحرك ، فرجعت فسمعتة يقول فى سجوده : « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك إليك ، لا أحصى ثناء ، عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ، فلما رفع رأسه من السجود وفرغ من صلاته قال : « يا عائشة أو يا حميراء : أظننت أن النبى ﷺ قد خاس بك ؟ » قلت : لا والله يا رسول الله ، ولكنى ظننت أنك قبضت لطول سجودك فقال : « أتدريين أى ليلة هذه ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله - عز وجل - يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان ، فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم » .^(١)

فبينما يقبل هذه الأحاديث جماعة من أهل الحديث ، ويرون أن طرقها وإن كانت ضعيفة فإنها بانضمام بعضها إلى بعض تكتسب قوة ، وعلى رأس هؤلاء الإمام البيهقى رحمه الله ، فمنهم من يرى أنها أحاديث شديدة الضعف وأن ضعفها لا ينجبر ، ولا تصلح لتقوية بعضها ببعض ، بل إن بعضها يوهن بعضا . أما الكلام فى العمل بها ، وصيام نهارها دعاء ،

(١) قال الحافظ المنذرى : رواه البيهقى عن طريق العملاء بن الحارث عنها ، وقال : هذا مرسل جيد ، يعنى أن العملاء لم يسمع من عائشة

وصلاة ، وتلاوة لبعض سور القرآن فكالكلام في يوم عاشوراء ، وأنه ما ينبغي لأحد أن ينكر فيها على أحد .

غير أنه ينبغي أن نبين أن هناك أموراً ابتدعتها الناس فيها ، من صلوات مخصوصة ، وألوان من الدعاء في تقريرها ، وتسويغها تعسف ظاهر ، وفيها أخطاء ظاهرة ، ولكن لا ينبغي لمن وظيفته الدعوة إلى الله ، أن يصد الناس عن بيوت الله ، وعن الضراعة إليه ، والإقبال نحو مرضاته ، ولو على وجه ضعيف ، وبخاصة وأن كثيراً من هذه العبادات هي من القربات والمستحبات في سائر الأيام ، وعموم الأوقات ، وعليها أن نعلم الناس أن يتعرفوا إلى ربهم ، بالفقه في دينه قبل أن يسألوه وأن من تعرف إلى الله في الرخاء ، تعرف الله إليه في الشدة ، وأنه : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ .^(١) والله ولي التوفيق والقبول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . . .

- ومن الأوقات الفاضلة التي يفاض فيها العطاء ، ويكشف فيها عن البصيرة الغطاء ، الثلث الأخير من الليل : وقد ورد فيه حديث صحيح : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا إذا كان الثلث الأخير من الليل ، وذلك كل ليلة ، فيقول : ألا من سائل فأعطيه ، ألا من مستزق فأرزقه ، ألا من مستغفر فأغفر له ، ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر » .^(٢)

ومن الأوقات الفاضلة يوم الجمعة : وهو عيد أسبوعي للمسلمين ضل عنه اليهود والنصارى وهدانا الله إليه كما جاء في الحديث الصحيح . قال عليه الصلاة والسلام : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليّ » ، قالوا : يا رسول الله وكيف

(١) سورة المائدة : ٢٧

(٢) متفق عليه .

تعرض صلاتنا عليك وقد أرميت قال : يقول : بليت ، قال : « إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء » .^(١)

غير أن اغتنام فضيلة الجمعة إنما هو بالذكر وتلاوة القرآن ، والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، والمبادرة إلى أداء صلاة الجمعة ، بجميل الطهارة ، وحسن الهيئة ، وتطهير الظواهر والسرائر ، أما تخصيص ليلتها بالقيام من بين الليالي ، ويومها بالصيام من بين الأيام فقد ثبت النهى عنه .

العبادة في أوقات الفتن والقلاقل والغفلات وإدبار الزمان لها شأنها عند الله قال عليه الصلاة والسلام : « العبادة في الهرج كهجرة إلى »^(٢) وقال : « بدأ الإسلام غربا وسيعود غربا فطوبى للغرباء » .^(٣)

وقال : « ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء بين المهشيم » .
وقال : « يأتي على الناس زمان للعامل فيه أجر خمسين منكم ، قالوا منا أو منهم ؟ قال : بل منكم » .^(٤)

ترتبط العبادات بأحوال وأوقات وأشخاص ومناسبات ، وكلها وقعت العبادات في أكمل حالاتها كان ثوابها أكبر ، وأثرها أعظم وأدوم ، فليست الصلاة في آخر الوقت كالصلاة في أوله ، وليست صلاة الرجل للفريضة في بيته كصلاته لها في المسجد ، وليست صلاة الفرد ، كصلاة الجماعة ، وهكذا . . والصدقة لها أحوال ، فليس من سارع إليها طيبة بها نفسه ، كمن تقاعس عنها ، وأكرو عليها ، وكان ضيق الصدر ، كثيب النفس ،

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية .

والصدقة على القريب أفضل من الصدقة على الفقير، وعلى القريب الكاشح أفضل من غيره ، وصدقة السر أفضل من صدقة العلانية ، لما فيها من البعد عن الرياء وحفظ كرامة المتصدق عليه ، والصدقة في سبيل الله أفضل من غيرها ، وزكاة الفطر أفضل من غيرها من الصدقات .

قد يكون اختلاف ثواب العبادة راجعا إلى اختلاف الباعث عليها ، والعاطفة التي تثيرها ، وتدفع إليها .

إن العمل قد يكون ضئيلا ، ولكن قد تدفع إليه عاطفة قوية من الرحمة والشفقة تجعله عملا مبرورا مشكورا ، ترفع به درجات ، وتحط به سيئات . . . وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملا خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له » قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرا ؟ قال : « في كل كبد رطبة أجر » .

وفي رواية « إن امرأة بغيا رأت كلبا ، في يوم حار ، يُطِيفُ ببئر ، قد أدلج لسانه من العطش ، فنزعت له موقها ، فغفر لها به »^(١)

وفي مقابل هذا : قد تحق كلمة العذاب على عبد ، بسبب خطيئة ظاهرها أنها أمر يسير ، ولكنها وزر كبير ، وبلاء مستطير لدلالاتها على قسوة القلب ، وموت عاطفة الرحمة . يقول عليه الصلاة والسلام : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، لا هي أطعمتها وسقيتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض »^(٢) .

(١) رواه مسلم (موقها) : الموق : خف غليظ يلبس فوق الخف ج (المواق) .

(٢) رواه الإمام البخاري

ومن عامل الخلق بالإحسان أحسن الله إليه ، ومن شدد عليهم ، شدد الله عليه ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .^(١)

فمن عفا عن الناس ابتغاء عفو ربه عفا الله عنه ، ومن تجاوز عنهم التماسا لتجاوز ربه فاز بمطلوبه ، وظفر بمحبوبه ، ومن يسر على الناس يسر الله عليه . ومن فرج عنهم الكرب ، فرج الله عنه كرب يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾^(٢) وقال : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ .^(٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس وكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرا ؛ فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فلقى الله فتجاوز عنه » .^(٤)

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : « أتى الله بعبد من عباده ، أتاه الله مالا فقال له : ماذا عملت في الدنيا ؟ قال : ﴿ ولا يكتُمون الله حديثا ﴾ . قال يارب آتيتني مالك وكان من خلقي الجواز ، فكنت أتيسر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله تعالى : أنا أحق بذا منك تجاوزا عن عبدي » .^(٥)

فقال عقبة بن عامر وأبو مسعود الأنصاري رضي الله عنهما : هكذا سمعناه من رسول الله ﷺ .

(١) سورة الرحمن : ٦٠

(٢) سورة التور : ٢٢

(٣) سورة الشورى : ٤٠

(٤) متفق عليه

(٥) رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على معسر ؛ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلما ؛ ستره الله في الدنيا والآخرة . والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما ؛ سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .^(١)

(١) متفق عليه .

الباب الثاني العبادة والإيمان

سبق أن عرفنا أن العبادة في الإسلام خضوع لله تبارك وتعالى ، وحب له ، وخشية منه ، وإذن وجب علينا أن نعرف ربنا الذى نخصه بالعبادة ، ونتوجه بها إليه وحده حتى تكون العبادة صحيحة متقبلة .

إن الإيمان بالله تبارك وتعالى خالقا للكون ، مديرا لأموره ، وأنه واحد لا شريك له ولا نظير ، ولا ند ولا مثيل ، متفرد بصفات الكمال والجلال والجمال ، منزّه عن مشابهة خلقه فى الذات والصفات والأفعال ، وأنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير .

إن الإيمان بالله على هذا النحو الذى عرضناه ، والذى وضعه وفصله خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه هو الفاصل بين الإسلام والكفر ، وهو الفارق بين المسلمين الذين هم أولياء الرحمن ، والكافرين الذين هم أولياء الشيطان .

وعلى هذا الأساس الواضح يتوقف العمل ، وتتحدد الوجهة ، إذ ليس من أعرض عن أمر الله ، واتخذ إلهه هواه ، كمن استجاب لربه ، وأذ عن لأمره : ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾ .^(١)

والعبادة التى يرضاها الله ويتقبلها ويشيب عليها هى التى تقوم على اعتقاد صحيح ، وإيمان سليم .

وآيات القرآن الكريم متظاهرة على أنه لا يتقبل العمل إلا من مؤمن ، وأنه لا بد من الإيمان بمحمد ﷺ ، إذ الإيمان به إيمان بالرسول جميعا ، وأما الكفر به ، والإعراض عن دينه فهو كفر بالله ، وتفریق بين الله ورسله ، قال تعالى : ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا

(١) سورة : الملك ٢٢ .

نكروا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ﴿^(١) وقال : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخلوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾ .^(٢)

وقال : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعماهم ، والذين آمنوا واصلوا الصالحات ، وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾^(٣) وقال : ﴿ مثل الذين كفروا ببرهم أعماهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرון مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾^(٤) .

من هذا الإيمان السليم الذى يستند إليه كل عمل ، وتقوم على أساسه كل عبادة يستمد المسلم طاقته ، ويحدد سيره ، ويبلغ بعون ربه غايته .

وهذا الإيمان متى استقر فى القلب ، وتمكن من الفؤاد ؛ ظهرت آثاره ، وأشرقت أنواره ، رغبة فى الخير ، واندفاعا إليه ، وجبا لأهله ، وتوضحية بالنفس والنفس فى رفعة وإظهار ما يعتقد أنه حق ، وظهرت آثاره كذلك فى تخلق صاحبه بالأخلاق الفاضلة المحمودة ، وطرح الشيم المردولة المذمومة ، ولذلك فحين يأمر القرآن المؤمنين أو ينهاهم فيما يعظهم به ، ويصلح به من شئونهم فإنه يخاطبهم ويحثهم على العمل بعنوان كونهم مؤمنين ، يقول سبحانه : ﴿ يا أيها الذين استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم

(١) سورة الكهف : ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) سورة النساء : ١٥٠ ، ١٥١ .

(٣) سورة محمد ﷺ : ١ - ٣ .

(٤) سورة إبراهيم : ١٨ .

لما يحيككم ﴿^(١)﴾ ، ويقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ ﴿^(٢)﴾ ، ويقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ ﴿^(٣)﴾ ، ويقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ ﴿^(٤)﴾ ، ويقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا﴾ ﴿^(٥)﴾ .

وكذلك يفعل رسول الله ﷺ فيما ينصح به المؤمنين فيقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » ﴿^(٦)﴾ .

وتأثير الإيمان في الحث على العمل أمر يدركه الإنسان بفطرته ، وجبلته ، ولعل أفضل من عبر عن هذا المعنى ذلك الشاعر المسلم شرف الدين البوصيري ، صاحب المدائح النبوية المشهورة بالبردة ، والهمزية :

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

وقد قرن القرآن الكريم الإيمان بالعمل الصالح ، وهما مقترنان فلا يوجد إيمان قوى لا يدفع إلى عمل صالح ، ولا يوجد عمل يمكن أن يوصف بأنه صالح إلا إذا قام على إيمان صحيح ، واعتقاد سليم .

قال الله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ، دعواهم فيها سبحاتك

(١) سورة الأنفال : ٢٤

(٢) سورة التحريم : ٦

(٣) سورة المائدة : الأولى

(٤) سورة الحجرات : الأولى

(٥) سورة الأحزاب : ٤١ ، ٤٢

(٦) متفق عليه .

اللهم ونحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴿^(١)﴾
 وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن
 عملاً ﴾ . ^(٢) وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم
 جنات الفردوس نزلاً ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
 سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
 أولئك هم خير البرية ﴾ ^(٥) وقال : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ،
 إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ^(٦) .

والسؤال الآن هو : كيف نتوصل إلى هذا الإيمان الصحيح الذى يتفجر
 في القلب فيحى مواته ويجمع شتاته ؟ كيف نتوصل إلى الإيمان الصحيح ،
 الذى يتغلغل في مسارب النفس ، فيطهرها ويزكيها ، وينفذ إلى معارج
 الروح ، فيسمو بها ويصفيها ؟

ثم ما هو الإيمان الذى نعنيه ؟ أهو الإيمان ، وكفى ؟ أم هو الإيمان
 بأى دين كان ؟ حقاً كان أم باطلاً ؟ خطأ كان أم صواباً ؟ أم أننا نعنى ديناً
 بعينه هو دين الله الذى بشر به ، ودعا إليه خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة
 والسلام ؟

ولكى يكون الإنسان منصفاً فإنه عليه أن يسائل نفسه : هل كان
 وجودى في هذا الكون عبثاً ؟ وهل أنا ذرة تائهة فيه ، شأنى كشأن أى دابة
 تدب على الأرض ، أو تطير في جو السماء ؟ أو أن لى شأننا آخر يتناسب مع
 ما أوثرت به من خصائص ؟

(١) سورة يونس : ٩ ، ١٠

(٢) سورة الكهف : ٣٠

(٣) سورة الكهف : ١١٠

(٤) سورة مزيم : ٩٦

(٥) سورة البقرة : ٧

(٦) سورة العصر .

والجواب : الذى ترشد إليه الفطرة ، وتهدى إليه البصيرة : أن هذا الإنسان أجل وأكرم من أن يكون شيئاً تافهاً ، وخلقاً مهملاً ، والله أجل وأحكم من أن يجعله كذلك ، وقد صورته فى أحسن صورة ، وأمدّه بطائفة من القوى المعنوية ، تخوله السيادة على العالم من حوله ، وإخضاعه والسيطرة عليه والانتفاع به ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً ، وأسجد له الملائكة ، وأرسل إليه الرسل ، وأنزل من أجله الكتب ، وآثره بالكثير من الخصائص .

إن الإنسان إذا أدرك سر خلقه ، وحكمة وجوده عرف نفسه فعرف ربه : عرف نفسه بضعفها وافتقارها ، وعجزها وحاجتها ، وعرف ربه قادراً غنياً قوياً ، يطعم ولا يطعم يعطى ولا يحتاج ، غنى عما سواه ، مفتقر إليه جميع ما عداه .

بهذا تشهد الفطرة السليمة فى الإنسان ، ويقر العقل الصحيح فيه : ﴿ أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ﴾ . ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ... ﴾ .

ولكن إذا انحرفت الفطرة ، وعميت البصيرة ، وسيطرت الجهالة ، وتحكم فى المرء هواه حجب هذا المسكين عن نور الإيمان ، وصرف عن ساحة اليقين والعرفان ليدخل فى زمرة أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكفة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ (١) .

﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٢)

(١) سورة فصلت : ٥

(٢) سورة الأنفال : ٣٢

أأمن هذا الجاحد بطش ربه وهو شديد ؟ أفيستطيع رد انتقامه إن وقع عليه ، أو دفع عذابه إن نزل به ؟

﴿ أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ؟ أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ، ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾^(١)

نعم : إن الإيـمان بالله ، وبخلقه لهذا الكون وما فيه ومن فيه ، وتصريفه له وتديره لأمره ، وإحاطة علمه به وهيمته عليه أمر تقره الفطرة الزكية ، ويشهد به العقل السليم المستقيم . لقد سئل أعرابي : كيف عرف ربه ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والسير على المسير ، فسأله ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟

والمشركون من العرب ، مع ما كانوا عليه من شرك ، وجهالة ، كانوا يعتقدون بوجود الله ، وكانوا يعبدون الأصنام اعتقادا منهم أنها تقرهم إليه ، وتشفع لهم عنده : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾^(٢) ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾^(٣) . ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾^(٤) ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ﴾^(٥)

لذلك ؛ فلا مناص لنا إذا أردنا أن نعرف الإيـمان الصحيح ، الذي

(١) سورة الملك : ١٥ - ١٨

(٢) سورة الزمر : ٢٨

(٣) سورة الزخرف : ٩

(٤) سورة يونس : ١٨

(٥) سورة الزمر : ٣

يرضاه الله ، والذي لا تشوبه شوائب الشرك والخطأ ، والذي ينجينا الله به في الآخرة ، ويدخلنا بفضلہ في زمرة أوليائه وأحبابه ، وتحصل لنا به الكرامات ، ونتبوأ باعتناقه ورعايته ، والحرص عليه وموالاة أهله وروضات الجنات ، لا مناص لنا إذا أردنا أن نصل إلى هذا الإيمان من الاهتداء بهدى الدين ، والاعتصام بشريعة سيد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد ﷺ ، فإنها شريعة الله الفذة الفريدة في هذا الزمان ، فلقد نسخ الله بها الشرائع ، وجعل كتابها المهيمن على ما سبقه من الكتب ، وتكفل بحفظه من التصحيف والتحريف ، وبإبقائه برهانا ساطعا ، ودليلا قويا قاطعا على صحة رسالته ، وصدق رسوله .

إنه الكتاب الإلهي الوحيد الذي لم تنله - ولن تناله - يد التحريف والتبديل لأن الله بحكمته - وله الفضل والمنة - أخذ على نفسه أن يحفظه ، ولم يترك هذه المهمة لأحد من عباده قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ﴾ .^(١)

أما ما سبقه من الكتب التي أنزلت من الله على رسله فقد لعبت بها أهواء البشر ، وحرفها الأخبار والرهبان ، واندثر منها ما اندثر ، واختفى ما اختفى ، وما بقى منها من حق فهو مشوب بالباطل ، ولم يكتف حملة هذه الأسفار بتحريف ألفاظها ، بل عمدوا إلى تشويه معانيها ، وطمسها ، وتأويلها على غير وجهها - يفعلون هذا الإفك ويصرون عليه ، مع علمهم بالحق الذي أنزل الله على عبده إثارا للدنيا على الآخرة ، ولشهوة الجاه والرياسة على مراة الحق وشدته .

والحق أنه لا وجه للمقارنة بين ديننا وبين ما يعتنقه الناس من أديان ، ولا بين كتابنا وما بأيدي الناس من كتب ، ولا بين شريعتنا ، وما يعرف

(١) سورة الحجر : ٩

البشر من شرائع ، ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا
الظل ولا الحرور ﴾^(١)

الله أكبر إن دين محمد
وكتابه أقسى وأقسوم قبيلاً
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلاً^(٢)
إن الأنبياء السابقين الذين كلفهم الله إبلاغ رسالته ، وأداء أمانته
متفقون في جوهر الدين ، وفي الدعوة إلى عبادة إله واحد ، لا شريك له ،
ولأرب سواه ، ولا معبود غيره .

يقول الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله
مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾^(٣) . ﴿ وإلى
عاد أخاهم هودا قال ، يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا
تتقون ﴾^(٤) . ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم
من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾^(٥) . ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا
قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾^(٦) .
﴿ وهل أتاك حديث موسى ، إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى أتست نارا
لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى ، فلما أتاها نوذى ياموسى
إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك
فاستمع لما يوحى : إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة
لذكرى ﴾^(٧) . ﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس
اتخذوني وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول

(١) سورة فاطر : ١٩ - ٢١

(٢) البيتان من قصيدة طويلة للشاعر المسلم شرف الدين البصرى صاحب البردة والهمزية فى مدح خير البرية .

(٣) سورة الأعراف : ٥٩

(٤) سورة الأعراف : ٦٥

(٥) سورة الأعراف : ٧٣

(٦) سورة الأعراف : ٨٥

(٧) سورة طه : ٩ - ١٤

ماليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ، إن تعدبهم فلأنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴿^(١)﴾ ويخبر الله سبحانه وتعالى بأن وحدانية الله والتوجه بالعبادة له وحده هى دعوة كل المرسلين ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ^(٢).

ولقد نرى :- جليا - أن الاعتقاد بوجود إله لهذا العالم ، مهيم عليه ، عليم بما يجرى فيه ، قدير على تصرفه حسب مشيئته ، غالب على أمره ، يصح أن يأمر فتجب طاعته وينهى فلا تجوز مخالفته ، هذا النظر يجب أن يكون سابقا على النظر فى شريعة بعينها ، أصحححة هى فيذعن لها ؟ أم غير صحححة فيهمل أمرها ؟ أجل ! إنه لو لم يسبق إلى نفسك بأن لك خالقا خلقتك فسواك ، وأنعم عليك ورباك ، ثم تقوم الأدلة على أن هذا الذى تشعر به حقيقة لاشك فيها ، وأمر ثابت لا مناص منه ولا مفر ، وأنه إذا قدر على الإتياع عليك ، فهو قادر على السلب منك ، وإذا أنعم بالفضل ، فلا يؤمن منه البطش ، وأنت بين نعمته وبطشه عبد له ، وهو سيدك ، يصح أن يأمرك ؛ فيجب عليك أن تطيعه ، وينهاك ، فلا يجوز أن تخالقه ، وأنت بطاعته تستحق رضاه ، وبمعصيته ؛ تتعرض لغضبه ، وأنه مطلع على ما يكون منك ، وأنه بكل شىء عليم .

نقول : لو لم يسبق إلى نفسك هذا الشعور يتلوه الاعتقاد الجازم الذى تتجلى معالمه ، وتظهر دلائله ، ماكان لك أن تفكر فى شريعة تجب

(١) سورة المائدة ١١٦ - ١١٨

(٢) سورة الأنبياء : ٢٥

طاعتها ، ودين يلزم الإذعان له ، فما كان لنفس أن تدعن إلا لمن تعلم أنه غامرها بنعمته ، وقاهرها بقدرته ، فترجوا رحمته ، وتخاف عذابه .

من أجل هذا ؛ كانت الدعوة إلى الشريعة مسبقة أو مبدوءة بتوجيه النفوس إلى الاعتراف بخالفها الذى تشعر به في وجدانها ، وتقرير هذه العقيدة بدليلها وبرهانها .

من أجل ذلك ، نرى الكلام في إثبات وجود خالق العالم ، وبيان استناده إلى الفطرة الإنسانية - فطرة الله التى فطر الناس عليها - أمرا واجب التقديم على معضلات الشريعة من عقائد وأحكام ^(١) . . .

إن القرآن الكريم لا يفرض الاعتقاد بوجود الله ، والإيمان به خالفا مدبرا حكيما على العقول ، وإنما يذكرها بآياته ، ويبصرها بما هو مركز في الفطرة ، ويقول مع ذوى العقول : إنه مامن صنعة إلا ولها صانع ، ومامن حكمة إلا ولها حكيم ، وما من تدبير إلا ووراءه مدبر .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون ﴾ ^(٢) .

وفي توجيه هذا الاستفهام إليهم عن حقيقة وجودهم - وهى حقيقة ثابتة لامفر من الاعتراف بها ، ولا سبيل إلى إنكارها مافيه من إلزامهم الحجة . هل وجدوا من غير شيء ؟ هذا ما تنكره الفطرة ، ويرفضه العقل ، أم أنهم أوجدوا أنفسهم من غير خالق ؟ وهذا أمر لا يستطيع أحد أن يدعيه أو يقول به . وإذن فلا مفر من الإقرار بأن لهم خالقا رازقا مهيمنا ، يغمر الأنام بفضله ، ويشملهم بإحسانه : منه الإيجاد والإمداد ، وإليه المرجع والمآب ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ، ثم يميكنكم ثم

(١) الإسلام دين الفطرة الشيخ إبراهيم الجبالى ١٥ - ١٧ بتصرف يسير
(٢) سورة الطور : ٣٥ - ٣٦

بجبيكم ، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿١﴾

﴿ أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ ﴿٢﴾

﴿ قل : أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ ﴿٣﴾
﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ ﴿٤﴾ . ﴿ أفأرأيتم ماتمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ ﴾ ﴿٥﴾

وكما يذكر القرآن الإنسان بآيات الله عليه ، ونعمته المسبغة على أكنافه فإنه يوجه الأبصار إلى مافي الكون ، وهو كتاب الله المنشور - من آيات بينات ، ودلائل باهرات في السموات والأرض ، كلها تشهد بأن لها خالقا كريما ، مدبرا حكيما : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ﴾ ﴿٦﴾ ..

﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ،

(١) سورة الروم : ٤٠

(٢) سورة الملك : ٢١

(٣) سورة الملك : ٣٠

(٤) سورة الطارق : ٥ - ٧

(٥) سورة الواقعة : ٥٨ - ٥٩

(٦) سورة ق : ٦ - ١١

إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنان من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بياء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿^(١)﴾

ويذكر الله سبحانه الإنسان بالأطوار ، التي تقلب فيها ؛ عسى أن يذكر فتنفعه الذكرى يقول سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . ^(٢)

فأى هداية وإرشاد ؟ وأي دليل أثبت ، وأصدق مما تأخذه من قرارة نفسك ، ومتناول حسك ، ومما يحيط بك من جميع نواحيك ، وكافة جوانبك ؟ إن النشأة الأولى برهان على النشأة الآخرة — ومن كانت له القدرة على الإبداء من العدم ؛ كان على الإعادة أقدر : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ . ^(٣) ولذلك فإن الله يختم هذه الآيات السابقة ببيان نهاية الإنسان ومصيره فيقول : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ . ^(٤)

فالموت ليس فناء مطلقا ولا هو نهاية أبدية ، وإنما هو نقلة من حالة ، إلى حالة وخروج من نواويس هذه الحياة ، إلى نواويس حياة أخرى : ﴿ أبحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ^(٥) ، ﴿ أفحسبتم أنها خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ . ^(٦)

(١) سورة الرعد : ٢ - ٤

(٢) سورة المؤمنون : ١٢ - ١٤

(٣) سورة الروم : ٢٧

(٤) سورة المؤمنون : ١٥ ، ١٦

(٥) سورة القيامة : ٢٦

(٦) سورة المؤمنون : ١١٥

العبادة ثمرة من ثمرات الايمان

والإيمان بالله ، والإذعان لأمره مقدم على الأعمال والعبادات ، فمن عرف الله وآمن به ، وذاق حلاوة الإيمان ؛ أقبل على الطاعة التى ترقيه وتزكّيه وتصفّيه وتحليه ، فتكون عبادته وسيلة لنيل العطاء من ربه ، وارتفاع منزلته عنده ، إلى جانب أنها الغاية من وجوده ، فتكون العبادة مطلوبة طلب الغايات والوسائل ، بل إن الإنسان الذى تذوق حلاوة الإيمان ، يكون إتيانه للطاعات ، وقيامه بالعبادات مستمداً من حافزه وباعثه ، لا من أجل النتيجة التى يرجوها ، ولا الثمرة التى يحصل عليها - وإن كانت تأتى تبعاً - ولكنه بعد وصوله للإيمان ، وصلته بالله فإنه يعبدّه لأنه أهل لأن يعبد ، ويذكره ويشكره ؛ لأنه الجدير بالذكر والشكر ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾^(١)

فإذا أكرمه الله وأعزه ، ومنحه وأعطاه ؛ رضى وشكر ، وإن اختبره وامتنحه ؛ رضى وصبر ، لأنه تعلم من إيمانه أن ربه مالك حكيم ، مدبر عظيم ، وماعليه إلا أن يكون معه متأدياً ، وبطاعته قائماً ، وعلى مرضاته حريصاً ، إنه عبد ، وعليه أن يقوم بواجبات عبوديته ، وربه سيد مالك حكيم ، له حق السمع والطاعة ، والإذعان والاستجابة : ﴿ ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ﴾^(٢) . وهذا هو الإيمان المستيقن الراسخ الذى يرضاه الله ، ويبارك أهله ، وتلك هى العبادة المثلى التى تقرب العبد من مولاه ، وتجعله أهلاً لفضله ورضاه ، وليست عبادة الضعفاء ، ومرضى القلوب وعباد الأغراض والأمراض ، الذين تقف همهم عند حفظ دنياهم ، أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على

(١) سورة المدثر : ٥٦

(٢) سورة الأعراف : ٥٤

حرف ، فإن أصابه خيرٌ اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ،
خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴿١﴾ .

ولا ينبغي أن يغرب عن أذهاننا ما سبق أن قلناه من أن الله غنى عن
العالمين : لا تنفعه تقوى المتقين ، ولا تضره معصية الفاسقين وإنما أمره
وشرعه وسيلة لشئون جعلها لإصلاح ما بين الناس وبين ربهم ، وإصلاح
ما بينهم وبين بعضهم ، وإصلاح حالهم في أنفسهم ، فمن امثل
واهتدى ، فله أجره وثوابه ، ومن ضل وأعرض فعليه وزره وعقابه : ﴿٢﴾ إن
تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه
لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم
تعملون إنه عليم بذات الصدور ﴿٣﴾

(١) سورة الحج : ١١

(٢) سورة الزمر : ٧

الرسول عليهم الصلاة والسلام

وإذا كان قد ثبت بشهادة الفطرة والعقل أن الله تعالى هو الخالق الرازق ، الحكيم المدبر المهيمن ، المتصف بكل كمال ، والمنزه عن كل نقص ، هو الذى أوجد الخلق بقدرته ، ودبرهم بحكمته ، وغمهم بإحسانه وفضله ورحمته ، فإن العقل السليم يقضى بأن يكون منه ما ينقذ الناس من الخيرة ، ويهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور : من ظلمات الخيرة والجهالة والضلالة إلى نور الحق والهداية واليقين .

لذلك اقتضت حكمته ورحمته أن يصطفى من عباده طائفة من البشر رسلا إلى خلقه ، يتلقون منه ، ويلغون عنه ، ليرشدوا الناس ويهديهم ، ويوجهوا الفطرة إلى الله حتى لا تنحرف ، ويرشدوا العقل إلى الحق كيلا يضل ، حتى لا يعبد البشر إلا ربهم الذى خلقهم وسواهم ، وأنعم عليهم ، بنعم لا تحصى عددا ، ولا يدرك لها مدى ، وحتى لا يعبدوا الله إلا بما يقرب إليه ، ويوجب رضاه . .

إن الإنسان لو ترك ونفسه من غير مرشد يهديه ، أوراثة يدلّه على طريق الخير ، فإنه لا يستطيع السير وحده فى دروب الحياة ، ولا يعرف له هدفا ولا غاية ، لأنه مهما علم فعلمه محدود ، يدرك من الحقيقة جانبا ، وتغيب عنه جوانب ، ومهما جرب فتجربته قاصرة ، لا يمكن أن تدله أو توصله إلى الصراط المستقيم ، والمنهاج القويم ، فهو إن فكر أو وضع المنهاج ، فتفكيره جزئى ، ومنهاجه وقتى ، قد يصلح تفكيره ومنهاجه لزمانه ولحالّه ، ولكنه لا يصلح لغيره ، فالإنسان حادث ، بدأ بعد عدم ، وينتهى بعد حدوث ، وما قد يكون صالحا لزمانه من المناهج والأفكار قد لا يصلح لغيره ، وربما كان

هذا الغير في زمنه ، ومن ثم فأفكار الناس ومناهجهم مشوبة بالتقصير ، مختلطة بالتناقض ، مليئة بالاضطراب ، وثمت أمر آخر له أهميته البالغة : وهو أن الناس قد يعرفون مسالك الخير ، وطرائق الصواب في بعض الأمور ، ولكنهم ينصرفون عنها ، ويهملون شأنها ، خضوعا للهوى ، واتباعا للشهوات العاجلة تقليدا للأباء ، ومسايرة للبيئة .

وإذن فلا بد من هداية إلهية وإرشادات ربانية ، تهدي إلى الحق ، وتبدل على الصواب وتعصم من الضلال ، وتربي النفوس ، وهذه مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فمن اتبع سبيلهم ، ولزم منهجهم فقد اهتدى ورشد ، ومن حاد عنهم ، وأعرض عن سبيلهم فقد ضل وغوى ، قال تعالى : ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ ^(١) وقال : ﴿ قال : اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإذا يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ ^(٢) .

وبإرسال الرسل تقوم حجة الحق على الخلق ، وتنقطع المعاذير : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ ^(٣) ﴿ ولو أننا أهلكناهم بعداب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ ^(٤) .

وقد أرسل الله رسله إلى كل أمة ، وختم الأنبياء بمحمد ﷺ ، وختم الشرائع بشريعته ، وجعله رسوله إلى الناس كافة من العرب والعجم ،

(١) سورة الأعراف : ٣٥

(٢) سورة طه : ١٢٣ - ١٢٤

(٣) سورة المائدة : ١٦٥

(٤) سورة طه : ١٣٤

والإنس والجن . قال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ .^(١)

﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإن من أمة إلا خلافيها نذير ﴾ .^(٢) ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة . . . ﴾ .^(٣)

فكانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام : ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . فالعقل البشرى عاجز عن إدراك ما ينبغى إدراكه من صفات الخالق سبحانه وتعالى ، كما أنه أشد عاجزا عن القيام بحق شكره على ما تفضل به وأنعم ، وهو عاجز كذلك عن إدراك مصالحة الحق ، فهو بما جبل عليه من هلع وجزع ، وحب للخير شديد ، وشح بالمال ، وضم به يحاول جلب كل المنافع لنفسه ، ومنعها عن غيره وسلوك الطرق الملتوية للحصول عليه والمنع منها ، وذلك بسبب له المشاكل والمتاعب ، والتطاحن والتقاتل ، وتغلب الأقوياء القادرين على الضعفة والعاجزين ، لذا أصبح من المحتم واللازم أن يكون هناك حكم له الهيمنة على الجميع ، لتسود العدالة ، ويستتب النظام ، ويقوم بناء الحياة على أسس سليمة ، ومبادئ قويمه .

وهذا الحكم الذى ظهرت للعقول ميزته ، وانفرد بها لم يشركه فيه من الصفات غيره ، وإن كان بشرا من البشر لكنه يوحى إليه ، لذلك أصبح - وقد تبين اصطفاء الله له - ميزانا يحكم بالعدل ، ويبصر بالصواب ، ويدل الخلق على الحق ، ويخرج الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور - فهو الذى

(١) سورة الفرقان : الأولى

(٢) سورة فاطر : ٢٤

(٣) سورة النحل : ٣٦ .

يعرف الناس صفات ربهم ، ويعلمهم طريق شكره وتعظيمه ، وذكره وتقديسه ، كما يعرفهم الطريق السليم في التعامل والعلاقات بينهم لتستقيم حياتهم ، وتنظم أمور معاشهم ، وتستقيم أسباب آخرتهم : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ^(١) .

والرسل عليهم الصلاة والسلام صفوة مختارة : اختارهم الله واصطفاهم ، وهو سبحانه : ﴿ أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ^(٢) وزودهم بالعلم والمعرفة ، وأمدهم بروح منه ، وكتب في قلوبهم الإيمان الراسخ ، والعزم الشديد ، والصبر والمصابرة ، وحلاهم بالصدق والأمانة والفظانة ، وطهرهم من كل ما يصرف البشر عنهم ، وآتاهم من الصفات والفضائل ما لم يؤت أحدا من خلقه ، ثم كلفهم تبليغ رسالته إلى خلقه ، وقيادة عباده إليه ، وتعريفهم به ودلائلهم عليه ، وتحذيرهم الإعراض عن ذكره ، والإقبال على غيره ، وتذكيرهم بنعمته وسابغ فضله ورحمته لعلهم يذكرون فتنفعهم الذكرى : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، وإن الله لسميع عليم ﴾ ^(٣) .

فماذا كان موقف البشر من رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ؟ هل استجابوا لهم ؟ وانتفعوا بنصائحهم ؟ وساروا إلى الله في ضوء نورهم أم أعرضوا عن واضح الدليل ؟ وعموا وصموا عن سواء السبيل ؟

إن المتتبع لتاريخ الأمم مع أنبيائهم يرى أن هؤلاء المصطفين الأخيار ، الذين دعوا البشر لما يحبيهم لا ييغون منهم جزاء ولا شكورا ، ولا يطلبون منهم أجرا ولا ثوابا — يرى أنهم قد كذبوا وأوذوا ، وقوبلوا بالجهود والكفر من

(١) سورة الحديد : ٢٥

(٢) الأنعام : ١٢٤

(٣) سورة الانفال : ٤٢

أثمهم ، وما أجابهم وأقبل على هديهم إلا قليل : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ ^(١) ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ ^(٢) ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ﴾ ^(٣) .

ومن طغيانهم استبعادهم أن يكون الرسول واحدا من البشر ، فهم يريدون ملائكة من السماء تتولى تبليغ الناس ، وألرافقة الرسل ، وكانت لهم اقتراحات على رسلهم عجيبية غريبة ، لا يقصد بها إلا التعتن والاستهزاء ، قال تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ ^(٤) ومن اقتراحاتهم على الرسول ﷺ ما سجله القرآن الكريم : ﴿ وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ، قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ ^(٥) .

(١) سورة يس : ٣٠

(٢) سورة الحجر : ١٠-١١

(٣) سورة الداريات : ٥٢-٥٣

(٤) سورة فصلت : ١٣-١٤

(٥) سورة الإسراء : ٩٠-٩٥

الحكمة في اصطفاء الرسل إلى البشر من بينهم

ولكن الله العليم الحكيم اقتضت حكمته أن يرسل الرسل من جنس الأمم التي أرسلوا إليها قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ^(١) فلو كان أهل الأرض ملائكة لأنزل الله إليهم ملائكة ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ ^(٢) .

وإنما اختار الله رسله إلى عباده من بينهم ومن بنى جنسهم ، ممن يتكلمون بالسنتهم ويحسون بأحاسيسهم ويباشرون سائر أمور الحياة : من البيع والشراء والزواج والمصاهرة ونحو ذلك مما يحتاج إليه ويقوم به سائر الناس ، وذلك ليتسنى لهم الاستفادة بهم ، والتعلم منهم ، والتأسي بهم في أفعالهم ومسالكهم ، وليكون كل رسول بالنسبة لقومه مثلاً أعلى به يقتدون ، وعلى مناجه يسيرون ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ ^(٣)

(١) سورة إبراهيم : ٤

(٢) سورة الإسراء : ٩٥

(٣) سورة الأحزاب : ٢١

أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أبرز دلائل صدقهم

لقد كان في مواقف الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم اصدق الأدلة وأقوى البراهين على صدقهم في دعواهم ، وتجردهم عن الأغراض الذاتية ، والمنافع الشخصية . وشرف المهمة التي يحملون ، وسمو الأخلاق التي بها يتخلقون وإلا فما الذى كان يحملهم على تحمل المشاق الشداد وتجشم الصعاب الجسام ، في سبيل هداية الناس ، وخلعهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الملك الديان .

ويتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ المجبول على الرحمة وعما يحس به من الألم الذى يعتصر قلبه لإعراض قومه وكفرانهم فيقول : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ ^(١) ﴿ فلعلك باخع نفسك على أثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ ^(٢) لذا يقول الله له ناصحا : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ ^(٣)

ومن دلائل صدقهم : أنهم لا يريدون جزاء ولا شكورا ، ولا يفتنون بحملة ، من الناس ولا منفعة ، ولقد ظن الكافرون أن هؤلاء الدعاة يمكن أن تغريهم الوعود أو يخيفهم الوعيد ، ولكن القرآن الكريم أعلن سموهم وسمو مقاصدهم ، وأنهم أصحاب مبادئ لا يجيدون عنها لشيء ، وأنهم على مبادئهم في حياتهم ومماتهم ﴿ أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ .

(١) سورة الشعراء : ٣

(٢) سورة الكهف : ٦

(٣) سورة فاطر : ٨ .

قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا
ونحن له مسلمون ﴿^(١)

وحكى القرآن الكريم مقالة نوح عليه السلام لقومه : ﴿ وما أسألكم
عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ . ^(٢)

ومقالة هود عليه السلام : ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى
إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ﴾ . ^(٣)

وقول خاتم المرسلين : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى
القربى ﴾ . ^(٤)

وقد اقتضت سنة الله - وهو العزيز الحكيم - أن يكتب النصر لرسوله
ولمن آمن به فقال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم
يقوم الأشهاد ﴾ . ^(٥) ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ ^(٦)
﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن
جندنا لهم الغالبون ﴾ . ^(٧)

وبما استعرضناه من تبليغ الرسل لرسالات ربهم لأقوامهم ، وتحملهم
المشاق وعدم استجابتهم للوعود وإغرائها ، وعدم تأثرهم بالوعيد وسطوته
مايدل أبلى على السدالة على صدقهم فى مايدعون ، وثبوت النبوة والرسالة
لهم ، إلا أن الله - وله الحكمة البالغة - أيدهم إلى ذلك : بالآيات البالغة ،
والمعجزات القاهرة ، والأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة ، والحجج
البالغة .

(١) سورة البقرة : ١٣٣

(٢) سورة الشعراء : ١٠٩

(٣) سورة هود : ٥١

(٤) سورة الشورى : ٢٣

(٥) سورة غافر : ٥١

(٦) سورة المجادلة : ٢١

(٧) سورة الطافات : ١٧١ - ١٧٣

واقترضت حكمته سبحانه أن تكون المعجزات - التي يؤيد بها رسله - من جنس ما برع فيه أقوامهم ، ولهم فيه التفوق ، والسبق على غيرهم ، ليكون ذلك أبلغ في التحدى والإعجاز .

فكانت معجزة موسى مشابهة في الظاهر لما برع فيه القوم من السحر ، لذا كان السحرة أول من أدرك أن أمره ليس بأمر السحر ، وإنما هو من عند الله ، وكانوا بذلك أول آمن به ، وأيده ، وضحي بالنفس والنفيس في سبيله .

وجاءت معجزة عيسى عليه السلام على وجه يحار فيه الأطباء ، ويعجزون عنه وهم الذين بلغوا فيه شأوا لا يبارى ، ومبلغا لم يكن إذ ذاك ليدرك فكان يرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله .



الرسالة الخاتمة

أكمل الله الشرائع ، وختم النبوات بسيدنا محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ ^(١) .

وقد صح عنه أنه قال : « أنا العاقب الذي ليس بعده نبي » ^(٢) .

وقد جعل الله رسالته عامة لقومه وغيرهم ، شاملة للإنس والجن : لمن كان في زمنه ولمن يأتي من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . قال تبارك وتعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ^(٤) .

وقال : ﴿ قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأتذكركم به ومن بلغ ﴾ ^(٥) .

وفي حديث جابر رضي الله عنه عنده مسلم « أعطيت خمسا - لم يعطهن أحد قبلي - : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة . . الحديث » وفي رواية : « وبعثت إلى الخلق كافة » وقد ختم الله بهذه الشريعة الشرائع ، فلا يقبل عمل إلا على أساسها ، ولا يهتدى سائر ولا يوفق إلا على ضوئها ونبراسها .

(١) سورة الأحزاب : ٤٠

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة سبأ : ٢٨

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧

(٥) سورة الأنعام : ١٩

قال تعالى : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .^(١)
وفي الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام « والله لو كان موسى حياً ما وسعته إلا اتباعي »^(٢) . ويقول : « ما من أحد من هذه الأمة من يهودى ولا نصرانى يسمع بى ثم لا يؤمن بالذى جئت به إلا كان من أهل النار »^(٣) .

والمراد بالأمة - في هذا الحديث - : سائر العالمين الذين بعث إليهم عليه الصلاة والسلام ، وإنما ذكر اليهود والنصارى دون غيرهم ، لأن لكل من الفريقين كتاباً منزلاً ، ونبياً كريماً مرسلًا ، ومع ذلك فلا يقبل من أى منهما عمل ، ولا يعتد بإيانه إلا من آمن بمحمد ﷺ إيمان إذعان واستجابة ، فغيرهما من عبدة الأوثان وأضرابهم من باب أولى . وكذلك ذكر رسول الله ﷺ في الحديث الذى قبله موسى عليه الصلاة والسلام دون غيره لأنه نبي أنبياء بنى اسرائيل ، وشريعته شريعة لهم جميعا .
فإذا كان هذا هو الشأن مع موسى عليه السلام : أنه لو كان حياً فأدرك محمداً ﷺ ما جاز له إلا أن يؤمن به ، وينقاد له ، ويتبعه ، فغيره من الأنبياء الكرام ، وسائر أمة بنى اسرائيل أولى بالاتباع والانقياد ، بل هذا هو ما دل عليه القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين ﴾ .^(٤)

(١) سورة آل عمران : ٨٥

(٢) حديث صحيح

(٣) رواه مسلم وغيره

(٤) سورة آل عمران : ٨١

ولاريب أن في إرساله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة مكرمة وشرافا
له صلوات الله وسلامه عليه .

يقول ﷺ : « أعطيت خسا - لم يعطهن أحد قبلى - : كان كل نبي
يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحر وأسود . . الحديث والمراد
بالأحر والأسود الإنس والجن وسائر الخلق » .

لذلك بلغ رسول الله ﷺ دعوته إلى قومه وغيرهم في جزيرة العرب ،
ومصر والشام والعراق وغيرها من البلاد ، وأرسل بكتبه إلى ملوك هذه البلاد
يدعوهم إلى إتباعه والإيمان به ، وقد حمل أصحابه من بعده هذه الراية ،
وبلغوا دعوة الله إلى عباده .

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يؤيد الله رسوله ونبيه محمدا ﷺ بكثير
من الآيات والمعجزات الحسية والمعنوية ، حتى ليقول بعض العلماء : إنه
مامن معجزة أعطيت لنبي من الأنبياء السابقين إلا أعطى النبي ﷺ معجزة
تضاهيها وذلك حتى لا يمتاز المنسوخ على الناسخ بما يجعله أقوى منه .
فمثلا في مقابلة إحياء الموتى ، وانقلاب العصاحية تسعى حين
الجدع له ﷺ وتسبيح الحصا في يده .

وفي مقابلة فلق البحر نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كأمثال العيون
حتى توضأ القوم وشربوا ، وكذلك انشقاق القمر له عليه الصلاة والسلام .
وفي مقابلة إبراء الأكهم رد عين قتادة ، وقد جاء إلى النبي ﷺ - وعينه
في يده وقد فقت بسهم في غزوة - .

فقال : عيني يا رسول الله فقال : ﷺ « إن شئت رددتها لك ، وإن
شئت أن يعوضك الله خيرا منها في الجنة ؟ »

فقال : يا رسول الله ، إنى رجل مبتلى بحب النساء ، وأخاف أن
يقلن : أعور فاردها لي وأسأل الله أن يؤتيني خيرا منها في الجنة ، فضحك
ﷺ ورددها له ودعا له بما طلب .

وهكذا ما من معجزة أوتيها نبي من الأنبياء إلا أوتى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه مثلها تشريفا له وتكريما ، وإجلالا لشأنه وتعظيما . .
والقرآن الكريم هو أظهر المعجزات المعنوية الباقية بذاتها وبآثارها ، أنزله الله على رسوله ونبيه محمد ﷺ ، ولما كانت شريعة الإسلام باقية إلى قيام الساعة فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون لها دستور باق إلى يوم القيامة .

هذا الكتاب الكريم هو كلام رب العالمين ، وهو حق وصدق ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾^(١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾^(٢) .
كانت الأمة العربية التي بعث من بينها رسول الله ﷺ من أعظم الأمم نبوغا في البلاغة والفصاحة ، فجاء القرآن الكريم في ذروة البلاغة والفصاحة ، فالفاظه ومعانيه فوق قدرة البشر ، أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض بلسان عربي مبين ، يهدي للتي هي أقوم ، فهدايته عامة شاملة للأفراد والجماعات ، في جميع الاتجاهات وكافة المجالات : يهديهم للتي هي أقوم في جميع اتجاهاتهم : عقيدية كانت أو شرعية أو أخلاقية ، يهديهم للتي هي أقوم في تنظيم حياتهم ، وإقامة علاقاتهم بعضهم ببعض على أسس سليمة بعيدة عن الهوى ، فلا غرو أن يكون هذا الكتاب عاما خالدا ، صالحا لكل زمان ومكان ، ووجه صلاحيته أنه محفوظ من التغير والتبدل ، فالله الذي أنزله تكفل بحفظه .

قال سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(٣) وكان حفظه وبقاؤه طوال هذه القرون منذ نحو أربعة عشر قرنا في السطور

(١) سورة فصلت : ٤٢

(٢) سورة البقرة : الآية الأولى

(٣) سورة الحجر : ٩

والصدور دليلا على صدقه ، وأنه كتاب الله ، وقد تحدى به الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بسورة مثله أو عشر آيات منه فعجزوا .

﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ^(١)

وقد جاءت هذه الآية بعد قول الله : ﴿ ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربي ﴾ . ^(٢) فالقرآن كالروح لا يدرك الناس سره ، وإن أدركوا بعض خصائصه ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ . ^(٣)

ولعلك تقول : إن الشريعة دائمة وعامة للناس أجمعين ، ولا يقبل الله ديناً غيرها من أى إنسان ، وأن الغرض من المعجزة الباقية إخراج المتمسك بها عن أن يكون مقلداً لغيره ولكن الإعجاز البلاغى لا يدركه إلا أهل البلاغة ، فهل يكون غيرهم مقلداً لهم ؟ وماذا فعلنا إذن ؟ فنقول :

أولاً : معلوم أن الشيء متى أعجز صاحب الفن البارع فيه فقد أعجز غيره بالأولى ، فقامت الحجة على الجميع .

ثانياً : كان يصح منك هذا القول لو كان إعجازه محصوراً في بلاغته ، أما ووجوه إعجازه لا تقف عند هذا الحد فلا يتجه هذا القول .

فكن أى رجل شئت تجد أمامك من وجوه إعجاز القرآن ما يبهرك ، بل يملأ صدرك حكمة وإيماناً .

(١) سورة الإسراء : ٨٨

(٢) الإسراء : ٨٥

(٣) سورة الشورى : الأيتان الأخيرتان .

فكن رجل القانون : وانظر إلى الأمم التي تضع قوانينها بنفسها
لنفسها تجدها أولا تختار فئة من أمثالها ، درسوا القوانين السابقة ، وعرفوا
حالة أمتهم التي يخالطونها ، وفهموا مواضع الحاجة منها ، فيضعون
مشروعا يفرغون فيه جهدهم متعاونين متساندين ، ثم يبرزونه لفئة أخرى
تهذب ، ثم أخرى تنفذ ، وهكذا تسلمه فئة إلى فئة حتى يخرج ، وهو
عصارة أفكار قوم هم صفوة أمتهم فيعتمدونه قانونا لهم .

فكم يمكنكم ؟ .

هل ترى قانونا يمضى عليه عشر سنين إلا دب إليه سوس التغيير
والتبديل ؟ وما أنت ترى قانونا جاء به فرد واحد ، لم يدرس قوانين أمم
أخرى ، فقد كان أميا نشأ بين أميين منفصلين عن سائر الأمم ، فجاء هذا
القانون صالحا لكل أمة في كل زمان ، وفي كل مكان ، وكل طور من أطوار
الحضارة والبداءة ، فإذا كنت من رجال القانون فما رأيك في هذا القانون ؟
أبقى عندك شك في أنه معجزة قانونية ؟

كن من رجال الطب : واقرا قوله تعالى : ﴿ بلى قادرين على أن نسوي
بنانه ﴾ ^(١) وانظر لماذا اختار البنان من سائر أعضاء الإنسان ؟ إذا كنت
عالما بالتشريح فأنت أقدر مني على بيان عظام الأنامل وتقسيمها ،
وعضلات الأنامل ووظيفتها ، وسهولة انزلاقها ونمطها حتى يزاوئ بها صاحبها
أدق الصناعات وأصعبها وأعصاب الحس والحركة في الأنامل وعظم شأنها ،
بل في بشرتها وجلاتها ، وما طابع الإبهام منك ببعيد ^(٢) .

ولست الآن بصدد الكلام عن خصائص القرآن ومحتوياته ، وإعجازه
العلمي أو البياني أو النفسي . . . إلى آخر ما أفاض فيه العلماء قديما

(١) سورة الفيل : ٤

(٢) الإسلام دين الفطرة ٨٢ - ٨٥

وحديثاً^(١) ، وإنما هي كلمة موجزة عن هذه المعجزة الكبرى التي أكرم الله بها سيدنا محمداً ﷺ ، ولعل خير ما نختم به هذه الكلمات قول النبي ﷺ : « مامن الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيه وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »^(٢) .

(١) انظر : إعجاز القرآن للأديب المسلم مصطفى صادق الرافعي والها العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز
ومطراوت في القرآن للشيخ محمد الغزالي
(٢) رواه الشيخان ..

وجوب الإيمان بما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم جُملةً وتفصيلاً

وإذا انشرح صدر العبد للإيمان بالله - تبارك وتعالى - خالفاً للكون ومافيه ، مدبراً له ، له الخلق والأمر ، وانشرح صدره للإيمان برسله عليهم الصلاة والسلام وبما أنزل عليهم من كتب ، وآمن على الخصوص بمحمد ﷺ خاتماً للأنبياء ، وبشريعته ناسخة للشرائع ، وبكتابه مهيمنا على الكتب ، فإنه يبقى عليه بعد ذلك أن يؤمن تفصيلاً بما تضمنه القرآن الكريم ، وأخبر به النبي الأمين من أمور الغيب ، وأحوال الآخرة ، وما يسبقها من أحوال البرزخ ، وهى ما اصطلاح أهل العلم على تسميته : بالسمعيات وذلك لأن العقل لاسبيل له إلى إدراكها ، وإنما مستندها السماع من المعصوم صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين .

ومعرفة السمعيات والإيمان بها تأتى تبعاً للإيمان بالرسول - عليهم الصلاة والسلام - فإنهم قد أخبروا بها وأكدوها ، وموضعهم من الصدق والأمانة فى ما يبلغونه عن ربهم ، وفى سائر أحوالهم فوق الشك والريبة فإنهم المصطفون الأخيار ، المطهرون المقربون .

اليوم الآخر

فمن السمعيات التى يجب الإيمان بها ، والتى أخبر بها النبي ﷺ اليوم الآخر الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، وتسأل كل نفس : عما اعتقدت من إيمان وكفر ، وعما اقترفت من حسنات وسيئات ، وعما وقفت عنده أو تعدته من حدود ، وعما قابلت به نعم الله عليها من شكران أو جحود ،

ويحاسب كل امرئ على ما قدم وأخر ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ،
ونسألن المرسلين ، فلنقصن عليهم بعلم ، وما كنا غائبين ﴾ (١) .

وقد استفاض ذكر اليوم الآخر في الكتاب الحكيم وأخذ أوصالا
متعددة ، وأسما مختلفة : - ما منها من اسم إلا وهو منبئ عن حال من
أحواله ، أو موقف من مواقفه . -

فهو يوم القيامة ، وهو يوم البعث ، وهو يوم الحشر ، وهو يوم
الحساب ، وهو يوم الدين ، وهو يوم الفصل ، وهو يوم التغابن ، ومن
أسمائه الواقعة ، والقارعة ، والحاقة ، والطامة والصاخة .

وقد ذكره النبي ﷺ وذكر أحواله وأحوال الناس فيه ، واختلاف شأنهم
عند ربهم بما لا يتسع لذكره المجال ، وقد كان النبي ﷺ حريصا على تبليغ
أمره إلى أمته لأول عهده بالجهر بدعوته إذ قام صلوات الله وسلامه عليه على
جبل الصفا فنادى في الناس « يا بنى فلان . يا بنى فلان » . فلما اجتمعوا
عليه استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم : « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا
وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ » قالوا : نعم ،
ما جرنا عليك كذبا فقال : « والله إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس
كافة ، والله الذى لا إله إلا هو لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ،
ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ،
ولإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » . .

وللإيمان باليوم الآخر أثره الطيب على المؤمن في عبادته وأخلاقه
ومعاملاته ، فهو يجعله أصبر على الشدائد ، وأقدر على الكفاح ، وأتقى
الله ، وأصدق لسانا ، وأقوم سلوكا ، وأرعى للأمانات ، وأشد أرواء عن
الحرمات ، إنه يعمل وهو يعرف ربه ويعلم أنه ملاقيه ، فيقصد به عمله ،

(١) سورة الأعراف : ٦ ، ٧ .

ويتوجه به إليه وحده على المنهاج الذى رسم ، والطريق التى أوضح ،
والمعالم التى بين . والقادة والرواد فى هذا السبيل إنما هم الرسل الكرام ،
وخاتمهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . .

إن المؤمن بالله واليوم الآخر لا تراه إلا راضيا مقوضا ، فهو لا يضيق
بحياته ، ولا يسأم من وجوده ؛ لأنه يدرك إدراك العلم والبصيرة ، والشعور
والوجدان : أن بقاءه فى هذه الحياة بقاء موقوتا ، وأنه فى مرحلة عمر
لامستقر ، وأن الحياة الحقيقية إنما هى حياة الآخرة تلك الحياة التى ينعم
فيها المتقون بما لا يخطر لأحد على بال ، أو يدور منه بخيال : نعيم لا يؤس
فيه ، وعافية ليس معها بلاء ، وأمن لا يزعجه خوف ، وعطاء لا ينقص
ولا يغيب ، وزيادة من العطاء ، ورضوان مع الله أكبر ، مع أحباب الله
وأوليائه من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين .

يقول الله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون فى نصيحته لقومه :
﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار من عمل
سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾^(١) .

أما الكافرون باليوم الآخر وما يتضمنه من إثابة أهل الإحسان ،
وعقوبة أهل الإساءة ، فهم أشد الناس فى هذه الحياة بؤسا ، وأضيقهم
أفقا ، وأقلهم عقلا وأكثرهم تعاسة وشقاء ، أهدافهم فى الحياة محدودة
بشهواتهم ولذائذهم وغاياتهم واقفة عند رغائبهم وأهوائهم فهم كما قال
القرآن عنهم : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار
مشوى لهم ﴾^(٢) ، هم فى شقاء وحيرة ، وقلق واضطراب لأنهم فارقوا الحق
والخير ، وأصموا آذانهم عن صوت الفطرة فى أعماق نفوسهم بأن هذه الحياة

(١) سورة غافر : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة محمد : ١٢ .

ليست نهاية المطاف ، ولكن لابد من حياة أخرى يثاب فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المجرم المسيء على إساءته . ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ ^(١) .

أترى من العدل والإنصاف أن يسوى ربك بين المؤمنين والكافرين ، والمتقين والفجار ؟ . . أيسرق السارق وينهب الناهب ويقتل القاتل . . ثم تنتهى الحياة ولا يؤخذ للمظلوم من الظالم ، ولا يفصل بين العباد ؟ .
كلا ثم كلا . . إن الذى يقتضيه العقل أن يحكم الله بين عباده ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴿ ليس بأمانىكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾ ^(٢) .

وهذا منطق العقل السليم ، وخبر الدين القويم ، وحاشا لله أن يسوى بين المتقين والفجار ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ﴾ ^(٣) .
﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ﴾ ^(٤)
﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون ﴾ ^(٥)

فالحياة الدنيا لاتصلح أن تكون دار جزاء وبقاء ، وإنما هى دار اختبار وبلاء ، على هذا أطبقت الشرائع السماوية ، أطبقت على تقرير عقيدة

(١) سورة يونس : ٧ ، ٨

(٢) سورة النساء : ١٢٣ ، ١٢٤

(٣) سورة ص : ٢٨

(٤) سورة الجاثية : ٢١

(٥) سورة القلم : ٣٥ ، ٣٦

البعث والجزاء منذ أهبط الله آدم وزوجه من الجنة ﴿ قال : اهبطا منها جميعا
فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض
عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾^(١) .

وحين قرر النبي ﷺ تلك القضية التى تتضمن البعث بعد الموت
وعودة الحياة إلى الأجساد بعد طول سبات ورقاد ، بل بعد البلى والتمزق
والتفرق ظن المشركون أن هذه نقطة الضعف فى دعوته ، وحسبوا فرصة
سانحة للنيل منه ومن دعوته ، وصد الناس عن سبيله ، فقابلوه
بالسخرية ، والاستهزاء ، والإنكار ، وليس لهم من دليل يستندون إليه إلا
مجرد الاستبعاد العقلى والاستمسك بالآلف والعادة . حكى القرآن عنهم
﴿ وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق :
إنكم لفى خلق جديد ، أفترى على كذبا أم به جنة ﴾ وقد رد الله عليهم
بقوله : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾^(٢) .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى . مقالات منكرى البعث وشبهها بهم
وفندها ، وأقام الحجج الواضحة على إمكان البعث الجثمانى ووقوعه فعلا .

قال تعالى : ﴿ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ
فَقَالَ الْكَافِرُونَ : هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ؟ ذَلِكَ رَجْعٌ
بَعِيدٌ . . ﴾

هكذا حكى الله مقالتهن ، ثم رد عليهم : بأن ذلك سهل على العليم
الخبير القادر المقتدر .

﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾^(٣) .
ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أفبعينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من

(١) سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤

(٢) سورة سبا : ٧ ، ٨

(٣) سورة ق : ١ - ٤

خلق جديد ﴿^(١)﴾ أى : ما عجزنا عن الخلق الأول الذى لا يستطيعون إنكاره ، وأنه كان من لاشيء ، فكيف نعجز عن الخلق الثانى ومواده موجودة ، وصورة قائمة ؟

ولا يمكنكم الإنكار ولكنكم تتبجحون وتعاندون ، والإعادة أهون من البدء . فإلى أين تذهبون ؟ وذلك بحسب ما تتصوره عقولكم ، وهو يخاطبكم بمقتضى عقولكم ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾ ^(٢) .

وإن كانت الحقيقة لدى المؤمن أن القدرة الإلهية ليس أمامها ما يوصف بسهولة أو صعوبة ، وإنما هو أمر يتوجه من القادر المقتدر فإذا ما أراد الله كائن متحقق :

﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون ﴾ ^(٣) . ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ ^(٤) . ونحو هذه الآية قوله تعالى فى سورة مريم ﴿ ويقول الإنسان أنذا مامت لسوف أخرج حيا ؟ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ ^(٥)

ولم يكتف القرآن بإقامة الحجة على إمكان البعث ، بل بين أن البعث الجسائى قد وقع فعلا فى هذه الحياة الدنيا فى مناسبات شتى ، نكتفى منها بمناسبتين وكلتاها فى سورة البقرة :

يقول تعالى : ﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ - فأما الله مائة عام ثم بعثه -

-
- (١) سورة قى ١٥
(٢) سورة الروم ٢٦ ، ٢٧
(٣) سورة النحل : ٤٠
(٤) سورة يس : ٨٢
(٥) سورة مريم : ٦٦ ، ٦٧ .

قال : كم لبثت ؟

قال : لبثت يوماً أو بعض يوم : قال : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ولتجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴿^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وإذ قال إبراهيم : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟

قال : أولم تؤمن ؟

قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي .

قال : فنخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴿^(٢)

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إنكم محشورون إلى ربكم حفاة عراة غرلا ، وإن أول الخلاق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، أما إنه سيجاء بأناس من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يارب أصحابي ، فيقال لي : إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .^(٣)

إن الموت ليس فناء تاما ، ولا هو نهاية أبدية ، وإنما هو نقلة من حال إلى حال ، ومن دار إلى دار ، هو نقلة من دار الفناء إلى دار البقاء ، حيث يلقي كل ساع سعيه ويوفى كل عامل عمله إما نعيم مقيم أو عذاب أليم : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ﴾^(٤) . .

(١) سورة البقرة : ٢٥٩

(٢) سورة البقرة : ٢٦٠

(٣) متفق عليه .

(٤) سورة الانعام : ١٢٣ ، ١٢٤ .

ونعيم الأبرار كعذاب الفجار كلاهما يتناول الحس والنفس ، والجسد والروح ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون . إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال : إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ﴾ (٢) .

ويجأ أهل النار ويضرعون ﴿ قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

فيجيبون ﴿ قال : اخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ (٣) . وإذا كان في الرضوان من النعيم مافيه . ففي مواجهة أهل النار بهذا الخطاب من الألم النفسى مافيه .

على أنه ينبغي أن نُقرَّ أن الشعور في بقاء آخر للنفس الإنسانية بعد هذه الحياة أمر لا يستقل باعتقاده والإيمان به أهل الأديان الإلهية وحدهم ، وإنما هو اعتقاد طوائف كثيرة من البشر ، وإن كانوا يختلفون في حقيقته ،

(١) سورة الزخرف : ٦٧ - ٧٨

(٢) سورة آل عمران : ١٥

(٣) سورة المؤمنون : ١٠٦ - ١٠٨

وبيان مداه ، والاختلاف هنا أمر بدهى ، فإن الأمور التى لا يستقل العقل بإدراكها لابد أن يتخبط فيها من أثر السير على هواه بغير هدى من الله .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ملينين وفلاسفة - إلا قليلا لا يقيم لهم وزن - على : أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وأنها لا تموت موت فناء - أى زوال مطلق - وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازلهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون فيه وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه .

فمن قائل : بالتناسخ فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام .
ومن ذاهب إلى : أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال .

ومنهم من قال : إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة ، حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها .
ومنهم من رأى : أنها تتعلق بأجسام أثرية ألطف من هذه الأجسام المادية .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، والمُتَّبَعُ فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيتها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو من الالهامات التى اختص بها هذا النوع .

فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا - وإن شد أفراد منه أنكروا ذلك أو شكوا فيه - كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وإن لم يدرك كنهه .

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء يشعر كل نفس أنها خلقت
مستعدة لقبول معلومات غير متناهية ، من طرق غير محصورة ، شبيقة إلى
لذات غير محدودة ، ولا واقفة عند غاية ، مهياة لدرجات من الكمال
لا تحدها أطراف المراتب والغايات (١) .

ويقول باحث آخر : كيف يسيغ العقل أن ينفض سوق هذه الحياة
وقد نهب فيها من نهب ، وسرق فيها من سرق ، وقتل فيها من قتل ، وبغى
فيها من بغى ، وتجبر فيها من تجبر ، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه ، بل
تستر واختفى ، فأفلت ونجا ، أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر
والجبروت ؟

وفي الجانب الآخر : كم أحسن قوم وضحووا وجاهدوا ، ولم ينالوا جزاء
ماقدموا ، إما لأنهم كانوا جنودا مجهولين ، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس
يتنكرون لهم ، بلا أن يعرفوا فضلهم ، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا
بثمرة ما عملوا من خير ، وكم من قوم دعوا إلى الحق ، واستمسكوا به ،
ودافعوا عنه ، فوقف الظالمون في طريقهم ، وأوذوا وعذبوا ، واضطهدوا
وشردوا ، وسقطوا صرعى في سبيله ، وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية ، بل
في ترف ونعيم .

ألا يسيغ العقل - الذي يؤمن بَعَدَالَةِ الإله الواحد - بل يطلب أن
توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؟
هذا ما تنطق به الحكمة السارية في كل ذرة في السموات والأرض ﴿ وما
خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ، ولكن
أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ (٢) .

(١) رسالة التوحيد ص ٩٨ - ١٠٠

(٢) سورة الدخان : ٢٨ - ٢٠ .

﴿ وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ،
فهويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات
كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ .^{(١) (٢)}

وجوب الإيمان بالملائكة

من الأمور التي أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ ، والتي يجب الإيمان
بها التصديق بالملائكة كما أخبر الله عنهم ، وكما وصفهم سبحانه وتعالى في
كتابه ، وصح في سنة رسوله ﷺ والكلام في الملائكة وعنهم مستفيض في
القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وما نذكره عنهم إنما هو في نطاق ما علمناه
من صريح القرآن وصحيح السنة مع الاكتفاء والاقتصار .

فالملائكة خلق من الأنواع التي خلقها الله ، لهم خصائصهم ،
وظائفهم ، ومعرفتهم برهم ، يقبلون على طاعة ربهم في غير تقصير ولا
فتور ، يتشكلون بالأشكال الحسنة ولبعضهم القدرة على الأفعال الخارقة .

م خلق الملائكة ؟

وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الملائكة خلقوا من نور ، قال عليه الصلاة
والسلام : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم
مما وصف لكم » .^(٣)

وهم مفلحون على عبادة الله وطاعته ، وخشيته وتعظيم أمره ، والرحمة
بعباده والنصيحة لهم قال تعالى :

﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾^(٤)

(١) سورة ص ٣٧ - ٣٨

(٢) الدكتور يوسف القرضاوي في كتاب العلم والإيمان ص ٤٣ .

(٣) جزء من حديث رواه مسلم

(٤) سورة الانبياء : ٢٠

وقال : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾^(١)
 وقال : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم
 وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾^(٢) .
 يسكن غالبهم السماء ، ومنهم من يسكن الأرض ، ينزلون بالوحي من ربهم
 لإبلاغه لعباده ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾^(٣) .
 ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عبادة أن أنذروا
 أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾^(٤) .

كما ينزلون على المؤمنين بالبشريات عند احتضارهم قال تعالى : ﴿ إن
 الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا
 ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا
 وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾^(٥) .

وهم يوجهون إلى عباد الله نصائح لطيفة ببيان الحق والخير والدعوة
 إليهما ، والكشف عن الباطل والشر والتحذير منها قال عليه الصلاة
 والسلام : « إن للشيطان لمة بابن آدم وإن للملك لمة : فأما لمة الشيطان :
 فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك : فأيعاد بالخير وتصديق
 بالحق ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء
 والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾^(٦) . وهذا الحديث رواه
 الترمذى والنسائى وابن ماجه

نعم : إن صلتهم بالبشر طابعها الشفقة عليهم ، والرحمة بهم ، فهم
 يسألون المغفرة لأهل الأرض عموما .

(١) سورة التحريم : ٦

(٢) الانبياء ٢٧ ، ٢٨

(٣) سورة الحج : ٧٥

(٤) سورة النحل : ٧٢

(٥) سورة فصلت : ٣٠ ، ٣١

(٦) سورة البقرة : ٢٦٨

قال تعالى : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ .^(١)

ويستغفرون للمؤمنين خصوصا ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسَّعَتْ كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .^(٢)

كما أنهم يتنزلون بالنصر والتأييد للمؤمنين ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أئني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ .^(٣)

والملائكة يصلون على رسول الله ﷺ كما يصلون على المؤمنين ، ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .^(٤)

﴿ هو الذي يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ .^(٥) وللملائكة وظائف كلفهم الله بها ، وأقدرهم عليها فمنهم : الموكل بالوحي وهو جبريل عليه السلام وله أسماء منها : روح القدس ، والروح .

قال تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ .^(٦)

(١) سورة الشورى : ٥

(٢) سورة غافر : ٧ - ٩

(٣) سورة الأنفال : ١٢

(٤) سورة الأحزاب : ٥٦

(٥) سورة الأحزاب : ٤٣

(٦) سورة النحل : ١٠٢

ومنهم ملك الموت قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .^(١) وقد جاء فى بعض الآثار أن اسمه عزرائيل واشتهر هذا على الألسنة ولكنه لم يأت من وجه صحيح يطمأن إليه .

ومنهم رضوان خازن الجنة ومالك خازن النار ومنهم إسرافيل وهو الموكل بالنفخ فى الصور لإماتة الخلق ثم لإحيائهم وبعثهم .
قال عليه الصلاة والسلام : « كيف أنعم وإسرافيل قد التقم الصور واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ » ، فكان ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ .

فقال لهم : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .^(٢)

ومنهم حملة العرش وهم أربعة فى الدنيا وثمانية يوم القيامة لعظم تجل الحق سبحانه وتعالى ، قال سبحانه : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يؤمّون تعرضون لآنحصى منكم خافية ﴾ .^(٣) وقد سبق حديث القرآن الكريم عنهم .

ومنهم الحفظة والكتبة ، وهل هما نوعان أو الحفظة هم الكتبة ؟ الظاهر أنهم صنف واحد قال تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ .^(٤)

كما نؤمن بأن من خصائص الملائكة أنهم لا يأكلون ولا يشربون ، ولا ينامون ولا يتناكحون لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، من وصفهم بأنوثة كفر ، ومن وصفهم بذكورة فسق ، بل هم عباد مكرمون . .

(١) سورة السجدة : ١١ .

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

(٣) سورة الحاقة : ١٧ - ١٨ .

(٤) سورة الانفطار : ١٠ - ١٢ .

موقف البشر من الملائكة :

وموقف البشر بإزاء الملائكة مختلف ، فمنهم من آمن بهم كما أخبر القرآن الكريم عنهم ، وكشفت السنة عن أحوالهم ، وهم المؤمنون بالإسلام ، وبما ثبت عن نبيه عليه الصلاة والسلام .

ومنهم من جحدهم وأنكر وجودهم إنكارا تاما .

ومنهم من زعم أنهم بنات الله .

ومنهم من اتخذهم آلهة وعبدتهم من دون الله .

والقرآن الكريم أشار الى هذه المقالات الضالة ، ونعى على معتقبيها ، وبين مبلغ ضلالهم ، وسوء حالهم ، وانعكاس فطرتهم ، وظلام بصائرهم .

قال تعالى : ﴿ فاستفتهم : أَلربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ^(٢) .

والملائكة سوف يتبرأون يوم القيامة ممن عبدتهم في الدنيا واتخذهم آلهة من دون الله ، قال الله سبحانه : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا : سبحانه أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ ^(٣) . .

وقد يتمثل الملائكة في صورة البشر كما ثبت في الصحيح عن عمر بن

(١) سورة الصافات : ١٤٩ ، ١٥٤

(٢) سورة النجم : ٣٧ ، ٣٨

(٣) سورة سبا : ٤٠ ، ٤١ .

الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟ »

فأجابه النبي ﷺ ،

ثم سأل : عن الإيمان والإحسان والساعة وفي كل ذلك يجيبه عليه الصلاة والسلام .

فلما أدبر قال النبي ﷺ : « ردوا على الرجل » . فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً

فقال عليه السلام : « أتدرون من السائل ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » ^(١) .

وفي حديث آخر عن النبي ﷺ : « أن رجلاً زار أخاه في الله في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية .

قال : هل لك من نعمة تربها عليه ؟

قال : لا غير أنى أحببته في الله تعالى .

قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحببك كما أحببته فيه » ^(٢) .

الإيمان بالقدر

من تمام الإيمان بالله سبحانه الإيمان بالقضاء والقدر .

فما هو القضاء ؟ وما هو القدر ؟

ثم ما علاقة القضاء والقدر بأعمال العبد ؟

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم .

وهل يسوغ له أن يتعلل بالقضاء والقدر لتبرير تقاعسه عما كلف به من واجبات ، أو الوقوع في مانهى عنه من سيئات ؟ هذه الأسئلة التي يثيرها هذا البحث جديرة بالدرس المتأنى ، والفهم الواعى ، والنظر العميق ، والاستنارة فيها بنور الله سبحانه وتعالى ونور رسوله ﷺ من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ثم بما جاء عن الصحابة والتابعين والعلماء العاملين رضوان الله عليهم أجمعين .

ولنبداً بالكلام عن القضاء والقدر ما هما فنقول : القضاء : هو عبارة عن وجود الأشياء على الوجه الأكمل في علمه تعالى على وجه كلى .
والقدر : إيجاد تلك الأشياء في عالم الظهور على وجه تفصيلي يوافق القضاء السابق .^(١)

ومن صفات الله تبارك وتعالى التفصيلية - وهو المتصف إجمالاً بكل كمال ، المنزه المتعالى عن كل نقص - العلم الواسع المحيط ، والإرادة الشاملة ، والقدرة الكاملة .

فصفة العلم : انكشف بها كل شيء مما كان أو سيكون أو هو كائن ، فالله قد أحاط بكل شيء علماً ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير ﴾ .^(٢) ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾^(٣) ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾^(٤) . ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر

(١) الشيخ يوسف الدجوى : مجلة الأزهر - العدد الرابع ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ هـ واسمها نور الإسلام إذ ذلك .

(٢) سورة الحديد : ٤

(٣) سورة التغابن : ٤

(٤) سورة يونس : ٦١

والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴿١﴾ .

ولما كان وجود الله تعالى أعلى الوجودات فإن علمه أعلى العلوم ، وهو علم أزلي لا يفتقر إلى غير ذاته ، ولا ينتهى بالجهل أو الفناء كما هو شأن البشر وأشبهاهم من الخلق ، وتبارك الذى أثنى على نفسه فقال : ﴿ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ (٢) ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون ﴾ (٣) .

والإرادة : صفة تخصص فعل العالم ، أما غير العالم بشيء أبدا فلا يعقل أن تكون له إرادة لشيء دون شيء آخر لأن المجهول المطلق لا تتوجه إليه إرادة (٤) .

١ - وقد ثبت أن واجب الوجود هو موجد هذه الكائنات ، وأنه عالم بها وأن ما يوجد من الممكنات لا بد وأن يكون مطابقا لعلمه بها فإنه يلزم من ذلك ثبوت الإرادة له .

ذلك أن خلقه لتلك الكائنات الممكنة على وجه معين دون ما يقابله من الوجوه ، ويحىء خلق تلك الممكنات على ذلك الوجه المعين مطابقا لعلمه بها يدل على أنه أراد فعله على ذلك النحو المطابق لعلمه بها دون غيره من الأنحاء إذ لو لم تأت أفعاله عن علم سابق بها لما كان مريدا .

فالنائم الذى يطوح بذراعه فيحطم شيئا لا علم له بما فعل ، ومن ثم لم يتطابق فعله هذا مع علم سابق به ، ولهذا لا نصفه بالإرادة أثناء نومه ، بل نصف أعماله بأنها غير إرادية . .

(١) سورة الأنعام : ٥٩

(٢) سورة الرحمن : ٢٦ ، ٢٧

(٣) سورة القصص : ٨٨ .

(٤) العقيدة الإسلامية والأخلاق ص ٤٨

٢ - كل كائن مخلوق على قدر معين وصفة خاصة ، وله زمان ومكان محددان ، وهذه وجوه قد اختص بها دون غيرها من الوجوه الممكنة ، وتخصيصه بها جاء على نحو مطابق للعلم بالضرورة ، وتخصيص الكائن ببعض الوجوه المتقابلة عن علم سابق بها هو حقيقة الإرادة ﴿^(١)﴾ .

القدرة : وهى صفة بها الإيجاد والإعدام أى صفة يوجد بها الفاعل ما يوجده ، من الأشياء والأفعال ، وبعدمها ما يعدم منها .

والدليل على ثبوت صفة القدرة لله - سبحانه وتعالى - أن : (واجب الوجود هو مبدع هذه الكائنات وخالقها على مقتضى علمه وحكم إرادته أى على وفق علمه بما ستكون عليه من أحوال وإرادته لتلك الأحوال . ولما كان كذلك فلا شك أن بداهة العقل تحكم بأنه قادر ، لأن فعل العالم المريد فى تلك الكائنات التى يعلمها وعلى النحو الذى يريد لها فعلا يحقق علمه وإرادته فيها - إنسا يكون بسلطة له على التصرف فى تلك الكائنات ، ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان على الأفعال) ﴿^(٢)﴾ .

أما اختيار الله سبحانه فمعناه : إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم ، وحكم الإرادة أى : إيجاد الفاعل لأفعاله بقدرته على نحو ما يقتضيه علمه بها ، وتحكم به إرادته بحيث تأتى الأفعال مطابقة للعلم ، والإرادة معا ﴿^(٣)﴾ .

على الصفات المتقدمة قامت عقيدة القضاء والقدر ، فالله العليم المريد القادر إذا أراد شيئا فإنما يقول له : كن فيكون ، فيما إن تتوجه الإرادة إلى هذا الشيء وتتعلق بإبرازه حتى يوجد على أكمل الوجوه التى أرادها

(١) المرجع السابق - صفحة ٤٩ .

(٢) العقيدة الإسلامية والأخلاقي ، صفحة ٥٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

وقدرها العليم الخبير : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحانه الله وتعالى عما يشركون ﴾ ^(١) .

بهذا الهدى الكريم ندخل بعون الله فيما نحن بصدده في القضاء والقدر .

هناك أمور تحدث ويتم بمحض القدرة العليا على وفق المشيئة الإلهية وحدها ، وهى تنفذ فى الناس طوعا وكرها ، سواء شعر بها الناس أم لم يشعروا .

فالعقول ومقدار ما يودع فيها من ذكاء أو غباء .

والأمزجة وما يلبسها من هدوء أو عنف .

والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر ، وجمال أو قبح .

والشخصيات وما تطبع عليه من امتداد أو انكماش ، والزمان الذى تولد فيه ، والمكان الذى تحيا به : والبيئة التى تنشأ فى ظلها ، والوالدان اللذان تنحدر منهما ، وما تتركه الوراثة فى دمك من غرائز وميول ، والحياة والموت ، والصحة والمرض ، والسعة والضيق ، ذلك ومثله لايد للإنسان فيه ، فاصابع القدر وحدها هى التى تتحرك ظاهرة وباطنة لتوجه الحياة كما يريد لها صاحب الحياة ﴿ إن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ ^(٢) .

وغنى عن البيان أن شيئا من هذا ليس موضع مؤاخذه ، ولا موضع حساب ، وإنما لفتنا النظر إليها لتعرف أن الجنسية التى تنتمى إليها ، واللغة التى تنطق بها ، بل نوع التكوين الذى يوجد الإنسان عليه ذكراً كان ، أو أنثى ، هذا شئ من الخصائص التى لا قبل لنا بها ، ولا سبيل

(١) سورة القصص : ٢٨

(٢) سورة آل عمران : ٦٠ ، ٥

لنا إليها ، وفي مثلها يساق قول القرآن الحكيم : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ ^(١) .

والإيمان بهذا الضرب واجب ، والأدلة عليه متظاهرة من العقل والنقل ^(٢) فالكون وما يحدث فيه محكوم بضوابط محكمة وضعها ونظمها الحكيم العليم الذي أحاط بكل شيء علما ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ^(٣) .

وعلى المسلم أن يسلم بما قدره الله مما لا حيلة له فيه ، ولا قدرة له على دفعه ، فمثلا إذا نزلت بالمؤمن نازلة ، أو ألم به مكروه ، أو خاب له أمل رأيته مفوضا لربه ، راضيا بقضائه ، شاكرا لنعمائه ، فإيمانه يعصمه ، وبقينه يحميه ، لأنه يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم ﴾ ^(٤) .

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » ^(٥) .

(١) سورة القصص : ٦٨ - ٧٠

(٢) عقيدة المسلم : ١٢٣ - ١٢٥

(٣) سورة القمر : ٤٩

(٤) سورة التغاين : ١١ -

(٥) أخرجه مسلم في كتاب القدر.

وعقيدة المسلم على هذا الأساس الواضح المستقيم تجعله رضى النفس ، قوى الإيمان يندفع لأداء واجبه ، وهو حريص على تحقيق الخير ونصرة الحق في دنيا الناس غير مبال أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، لأن شعاره تلك الآية الكريمة : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ^(١) . فلا ترى المؤمن بحال من الأحوال هلوفاً أو جزوعاً ، وكيف وهو يقرأ قول الله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ ^(٢) .

أفعال العباد

وما تقدم هو الذى يعتقدونه المسلمون على اختلاف منازلهم ، ويدعون الله به ، لا خلاف بين أحد منهم في شيء منه ، فلا خلاف بين أحد منهم في إثبات القدر السابق ، ولا في أن كثيراً مما يحدث في الكون ويجرى على الخلق لا يد للعباد فيه أصلاً من قريب أو بعيد ، وإنما هو محض فعل الباري سبحانه وتديره ، وأثر أمره وتسخيره ، ولا عبرة بما ذهب إليه نفاة القدر الذين قالوا : - كلمتهم المشهورة - (لا قدر والأمر أنف) فإنه رأى ساذج ، ومذهب غث لا يستند إلى دليل أو شبه دليل من عقل أو نقل ، أو قرآن أو سنة .

بل العقل والنقل ، ونصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة متظاهرة متواترة صريحة في إثبات القدر السابق ، وفي إثبات الصفات التى قامت عليها وهى : العلم ، والإرادة ، والقدرة ، وكل هذا أثبتته القرآن الكريم ،

(١) سورة التوبة : ٥١

(٢) سورة الحديد : ٢٢ ، ٢٣ .

وتابعته السنة في ذلك في صراحة وحسم ، لا تدع فرصة لمتروك ، أو متشكك .

ولكن الذى اشتد حوله الجدل ، وكثر فيه القيل والقال هو أفعال العباد ، وبعبارة أوضح : أفعال العباد الاختيارية ، فقد انقسمت الأمة بشأنها شيعة وأحزابا ، لكل منها وجهته ، فهناك :

الجبرية الذين جردوا الإنسان من كل إرادة واختيار ، وذهبوا إلى التسوية بين ما نطلق نحن عليه الأفعال الاضطرارية ، والأفعال الاختيارية ، وقالوا : إن الإنسان مقهور في كل ما يأتى ويذر ، وما يحدث منه من طاعة أو معصية ليس إلا خضوعا لسيطرة الإرادة والقدرة الإلهية .

ومن الجبرية من قال : بخلق الله لجميع أفعال الإنسان ، وأن ما يفعله الإنسان هو مقارنة قدرته لقدرة الله في خلق تلك الأفعال .

وفي القول بالجبر إبطال للشرائع ، وتهرب من المسئوليات بإسقاط التكاليف ، ولو كان الأمر كما زعموا لكان إرسال الرسل عبثاً ، ووجود الشرائع لا معنى له ، لأن الشرائع قائمة على تكليف الإنسان بالأحكام الشرعية ، وتحديد المسئولية ليشاب المطيع ، ويعاقب المسيء ولا معنى للثواب والعقاب إلا إذا كان للإنسان قدرة واختيار على إتيان ما يريد ، ولو كان مجبوراً لكان تكليفه تكليفاً بالمحال .

وأصحاب هذا الرأي مفترون باطلا على دين الله وهم يريدون إشباع غرائزهم الدنيا ثم يتعللون بالأقدار ، ويحكمون على العقل بالإعدام ، إذ المجهور كالسجين ، لا حرية له ولا تصرف ، وفي هدم العقل هدم الدين ، وفي ذلك من الفساد ما لا يحتاج إلى بيان .

وهناك القائلون بسيطرة الإنسان المطلقة على جميع أفعاله وخلقها ، وهذا الرأي يقف على طرفي نقيض مع القول الأول .

وفي هذا القول من الغرور ما فيه ، إذ يحمل الإنسان على الاعتقاد بأنه مستقل عن قدرة الله تعالى وإرادته وسيطرته - سبحانه على الكون كله بجميع ما فيه ، وهذا الإنسان ليس إلا ذرة مما في الكون ، فكيف يخرج عن الحكم الألهي ؟

وإذا كان القولان السابقان يمثلان جانبي الإفراط والتفريط - وكلاهما ذميم - فإن الرأي المعتدل المستقيم الذي تتضافر على إثباته نصوص القرآن والسنة ، وبراهين العقل والنقل هو أن للإنسان قدرة وإرادة واختياراً في إطار المشيئة الإلهية بها يختار وينفذ ويحقق ما ارتآه ، أو يحجم عن تنفيذه ، فهو له الحرية في الاختيار والترك إلا أن هذا الاختيار لا يخرج عن إطار ما قدره الله وأراد ، على نحو ما قال الله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ (١) .

بهذه الحرية التي منحت له ، والتي يشعر بها شعوراً لا يخامره شك أو شبهة ، وبذلك الاختيار الذي يقدم به على إثارة الشيء دون غيره ، والإقدام على الأمر دون سواه ، فيسلك طريق الخير إن شاء أو طريق الشر إن شاء يكون الثواب والعقاب ، فللإنسان الجانب الكسبي والجانب السببي ، ولكنه - كما سبق أن قلنا - ليس مستقلاً ولا مستغنياً .

وإذا كانت الأشياء الجهادية لها تدخل في الأشياء كما قال تعالى في حق الماء : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ (٢) فجعل الإنبات به كما جعل الإحياء به في الآية الأخرى ، فكيف لا يكون لنا تدخل فيما يكون منا ؟ هل السبب الآلي أقوى من السبب المفكر المختار الذي يستطيع أن يغلب الأسباب الآلية ويسيرها في أي طريق شاء وهو أعظم منها فإنها مسخرة له وهو مالكها ، فكيف لا يعطى ما

(١) سورة التكاوير : ٢٨ ، ٢٩

(٢) سورة النحل : ١٩

أعطيته من الأحكام وهو أقوى الأسباب وأعظمها ؟
ولماذا لا يجعلون من الأسباب التي يتوقف عليها الفعل نظر الإنسان
وإرادته واختياره وترجيحه ؟

هل يكون لغير العاقل المقهور من التدخل في الفعل مالميس للفاعل
المختار ؟ اللهم إن ذلك غير معقول فلم يبق إلا التحديد وبيان مقدار
ماللعبد من ذلك وهو غير ضروري للعلم الإنساني بل غير ممكن ، فإن
اكتناه الأشياء كما هي غير مستطاع للإنسان ولا داخل في متناول قدرته ،
فهذا الغذاء الذي هو من أظهر الأشياء لا نعرف من أمره إلا الظواهر التي
لا تسمن ولا تغفى من جوع ، أما كيفية انقلابه إلى أعضاء مختلفة فلا
نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها ^(١) .

فالقول بكون الإنسان مجبرا لا مختارا قول بإسقاط كل تبعة ، وكل
مزية وجراءة على التسوية بين الخبيث ، والطيب ، وهو أمر يناقض العلم
اليقيني ، وينافي البدهيات الأولية . ويعجبني قول من قال : كيف تزعم
أنك جبري مع أنك تجري لأحضار الطبيب لمريضك ، وتدافع عن
وطنك ، وتستدعي رجال المطافئ لإطفاء حريق بيتك ، وتعمل على وقف
النار التي بدأت تشب من شرارة أصابت أوراقك في حجرة عملك ، وإن
لديك عقلا ، وإنك لتنتفع به فيما تريد ولا سبيل إلى إنكار ذلك ، فالأشياء
تقع بأسبابها ، ومنها الإرادة الإنسانية فهي بعض الأسباب العاملة في سير
الحوادث في هذا الوجود .

ثم نقول : يوجد أعمال كبيرة لكبار الرجال ، فمن الذي يستطيع أن
يقول : إنه لا فضل لهم في إحداثها ، أو ليس لهم تدخل فيها ؟ أو بعبارة
أخرى : أليسوا من أسبابها ؟ أو ليسوا هم أعظم أسبابها من حيث كونهم

(١) مجلة نور الإسلام - الشيخ الفجوي ، صفحة ٣٠٠

رجالا ذوى عزيمة صادقة ، وإرادة قوية ، وأفكار حرة ؟ لا من حيث كونهم آلات مسخرة لا تستحق حمداً ولا شكراً .

ولا تستطيع أى سفسطة أن تزيل منا ذلك الاعتقاد أو تزعجنا عنه ، وهو الذى نعتقد أنه يمتلك كل نفس ، ويسيطر على كل عقل ، حتى عقول الأطفال وعقول الجهاال ، فإن كل واحد منا يعتقد اعتقاداً لا يدافع أن له أثراً أو تسبباً فى كثير من الأشياء ، فنحن نعمل ونعتقد أننا فاعلون لا منفعلون ، ونعتقد أننا نبني صرح المستقبل فى الدنيا والآخرة ، وإن كان ذلك على حد محدود ، وعلى قدرة وهبنا الله تعالى ، فكيف يصح أن يقال : إننا كمية مهملة فى الوجود مع أننا أكبر عوامله التى تعطيه الرواء والبهاء ؟

والنتيجة لهذا كله أن للإنسان تأثيراً فى وجود الأشياء ، فإنه حلقة كبيرة من حلقات سلسلة الوجود ، بل هو أعظم حلقاتها ، ولكنه غير مستقل استقلالاً تاماً فى المسألة ، فيجب أن يكون عليه من المسؤولية بقدر ماله من الأثر فى ذلك بذلك الفعل ، والتدخل فيه ، حتى إذا صار مكروهاً أو مجبراً فإنه يكون غير مسئول بالمرّة ، فليس العبد مجبراً ، ولا آلة صماء ، كما يحس إحساساً لا يعارض عندما يعرض له أمر خطير ، بل عندما يسعى لرزقه ، أو جاهه ، ووظيفته ، وشهادته .

ومن العجب أنه فى أموره الدنيوية يكون معتزلاً متطرفاً ، وفى أموره الدينية يكون جبرياً متطرفاً اتباعاً لما تهوى الأنفس : ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾^(١) .

ومع كوننا نقول : إنه غير مجبر نقول أيضاً : إنه لا غنى له عن الله تعالى ، فإن علمه قاصر ، وقدرته قاصرة ، ولا سلطان له على الأمور الخارجية ، ولا على تميم الموجبات لما يريد ، ولا منع الموانع عما يريد ،

(١) سورة النجم : ٢٣

فمن الموانع التي يجوز أن تحدث مالا يدخل تحت علمه وقدرته ، وأنت تعرف أنك حر ههنا ، ولكن كونك حرا لا يقتضى أن تكون غير مقيد بالقوانين ، ولا خاضع للدساتير . . الى آخر ما تعلم ولا تجهل .
فالأشياء يجب أن توضع في مراكزها ولا تتعدى حدودها ، فإن الاستقلال التام يتبع القدرة القاهرة والعلم المحيط ، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى (١)

والسدى نراه - بداهة وعقلا - : أننا نريد فعل الشيء ، أو تركه بمحض اختيارنا ، ونرجح هذا على ذاك ، ونحس بالحرية في حركاتنا وسكناتنا وفي إرادتنا للأكل والشرب والنوم وسائر الأفعال ، ومع هذا كله فنحن نعلم بالبرهان العقلى أن مرد الأمور إلى الله وهو المالك لزمانها ، والمتصرف فيها فيما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ والله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه ﴾ (٢) .

وإحساسنا بحرياتنا بديهية وعقلا يؤكده ويقويه القرآن ، فالله تعالى يسند الأفعال إلى العباد وهو سبحانه قد كلفهم ، وما كان ليكلفهم ما هو خارج عن استطاعتهم أو ليس في متناول قدراتهم ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (٣)

فالقرآن لا يخلى الإنسان من المسؤولية على ما يحصل منه :
﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن إهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ (٤) .

فها أنت ذا ترى : أنه نسب إليه ما كسب وما اكتسب ، ونسب إليه

(١) مجلة نور الإسلام - العدد المشار إليه سابقا

(٢) سورة هود : ١٢٣

(٣) سورة البقرة : ٢٨٦

(٤) سورة يونس : ١٠٨

الهداية والضلال ، ولكن مع ملاحظة ، واستحضار أن قدرة الله هي المرجع في كل الحالات لجميع الكائنات ، ومن آثارها الخيلولة بين العبد وبين إتمام ما يريد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾^(١)
وعلى العبد الأخذ في الأسباب ، وإحكام الأمور وتدبيرها ، معتقداً أن المعين هو الله رب العالمين ، فلا حول ولا قوة إلا به .

والعمل يسند إلى الله على أنه الفاعل له ويسند للعبد على أنه سبب فيه ، يقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾^(٢) . ففي الإمكان أن تسمى الفلاح زارعاً لأنه سبب ، وتسمى الحق زارعاً لأنه تولى الإنبات . فازرع خيراً تحصد خيراً ، وأزرع شراً تحصد ما زرعت .

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامةً ولحصد الزرع إِيَّانُ
﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٣)

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾^(٤) .

فمستولية الإنسان إذن إنما تكون عن فعله سواء كان قليلاً كالإيمان والكفر والإخلاص والرياء ، والكبر والتواضع ، والحب والكراهية أو عملياً بتعلق بالجوارح كالعبادات والطاعات ، أو الموبقات والسيئات من نحو

(١) سورة الأنفال : ٢٤

(٢) سورة الواقعة : ٦٣ ، ٦٤

(٣) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨

(٤) سورة طه : ٧٤ ، ٧٥

الكذب والسرقة وشرب الخمر ونحوها من أعمال الجوارح .

والثواب أو العقاب مبنيان على ما اختاره العبد وارتضاه :

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره
لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره
للعسرى ^(١) .

فكل إنسان يختار لنفسه طريقها ، والله ييسر له ما اختار من غير جبر
ولا قهر :

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ : أى أعمال العباد التى اكتسبوها والتى هم
بصدد اكتسابها متضادة ومتخالفة ، فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا قال
تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أى أعطى ما أمر بإخراجه واتقى فى
أموره ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى بالمجازاة على ذلك . قاله قتادة .
وقال خصيف : بالثواب ، وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو صالح
وزيد بن أسلم : ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى بالخلف .
وقال أبو عبد الرحمن السلمى والضحاك : ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى
بلا اله الا الله .

وفى رواية عن عكرمة : ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى : بما أنعم الله
عليه .

وفى رواية عن زيد بن أسلم : ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : الصلاة
والزكاة والصوم وقال مرة ، وصدقة الفطر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان بن صالح
الدمشقى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا زهير بن محمد ، حدثنا من
سمع أبا العالية الرياحى يحدث عن أبى بن كعب قال : سألت رسول الله
ﷺ : عن الحسنى ؟ قال : (الجنة) .

(١) سورة الليل : ٤ - ١١ .

وقوله تعالى : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ قال ابن عباس : يعنى للخير ،
وقال زيد ابن أسلم : يعنى للجنة ، وقال بعض السلف : من ثواب
الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ؛ ولهذا قال الله
تعالى : ﴿ وأما من بخل ﴾ أى : بما عنده ﴿ واستغنى ﴾ قال عكرمة عن
ابن عباس : أى بخل بياله واستغنى عن ربه عز وجل ، رواه ابن أبى
حاتم .

﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أى : بالجزاء فى الدار الآخرة ﴿ فسنيسره
للعسرى ﴾ أى : لطريق الشر .
كما قال الله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول
مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .
والآيات فى هذا المعنى كثيرة دالة على : أن الله يجازى من قصد الخير
بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدور .

قال الإمام أحمد : حدثنا على ابن عباس ، حدثنا العطاء بن
خالد ، حدثنى رجل من أهل البصرة عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن
بن أبى أبكر الصديق عن أبيه قال : سمعت أبى يذكر : أن أباه سمع أبا
بكر وهو يقول : قلت يا رسول الله ، أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر
مؤتلف ؟ قال : « بل على أمر قد فرغ منه » قال : فقيم العمل يا رسول
الله ؟ قال : « كل ميسر لما خلق له » اهـ ^(١) .

فالله سبحانه وتعالى - وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة - قد هدى
الإنسان النجدين وبين له السبيل إما شاكرا وإما كفورا ، فمدار الأمر على
ما يختاره الإنسان لنفسه ، فإن اختار طريق الخير وفقه الله وأعانه ، وإن
اختار طريق الشر يسر الله له ما اختار .

قال تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين يتقضون عهد الله

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٥١٨ .

من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون ﴿^(١)﴾

وقال تعالى : ﴿ فلما رآغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم ، وساءت مصيرا ﴾ ^(٣) .

وفي جانب الهداية والضلال معا يتحدث القرآن الكريم فيقول : ﴿ قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ، الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ^(٤) .

فمسئولية الإنسان إنما هي على نفسه بعد اختياره الحر لما يريد ، وسلوكه سبيله كما قال الحق جل وعلا ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ﴾ ^(٥) .

التعلل بالأقدار لا معنى له

ولقد زعم المشركون أن الله رضى منهم الشرك ، وأنه لو شاء لحملهم على الإيمان وقد تجاهلوا ما وهبهم الله من استعداد للخير والشر والهداية والضلال ، وقد حكى الله في كتابه مزاعمهم ، وبين بطلانها ، وعدم جدواها .

قال سبحانه : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمتنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين

(١) سورة البقرة : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الصف : ٥ .

(٣) سورة النساء : ١١٥ .

(٤) سورة الرعد : ٢٧ ، ٢٨ .

(٥) سورة القيامة : ١٤ ، ١٥ .

من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ، ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، إن نحصر على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ، وما لهم من ناصرين ﴿ ١ ﴾ .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآيات : يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتججين بالقدر بقولهم : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء . أى : من البحائر ، والسوائب ، والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم مما لم ينزل به سلطانا .

ومضمون كلامهم أنه لو كان الله تعالى كارها لما فعلنا لأنكروا علينا بالعقوبة ولما أمكننا منه ، قال تعالى - رادا عليهم شبهتهم - : ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أى : ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ، ونهاكم عنه أكد النهى ، وبعث في كل أمة أى : في كل قرن ، وطائفة من الناس رسولا ، وكلهم يدعون الى : عبادة الله ، وينهون عن : عبادة ما سواه : ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

فلم يزل الله تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بنى آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم محمد ﷺ الذى طبقت دعوته الجن والإنس في المشارق ، والمغرب وكلهم كما قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٢) .

(١) سورة النحل : ٣٥ - ٣٧ .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٥ .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾^(١)

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ ؟ .

فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين ، والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة بالغة ، وحكمة قاطعة^(٢) .

وقد زيف القرآن أباطيل المشركين وافتراءاتهم ، يقول الله تعالى : ﴿ سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ﴾^(٣) .

وهم يزعمون : أن الله لو كان غير راض عما نحن فيه لحال بيننا وبينه ، فلما لم يفعل دل ذلك على رضاه بذلك .

يقول الله تعالى : ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ . يدل على : زعمكم ويؤيدكم في اتجاهكم ، وليس لهم من ذلك شيء . ولذا يقول سبحانه : ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ أى : الوهم والخيال ، والمراد بالظن ههنا : الاعتقاد الفاسد : ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ أى :

(١) سورة الزخرف : ٤٥

(٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٥٦٨ ، ٥٦٩ .

(٣) سورة الأنعام : ١٤٧ ، ١٤٨ .

تكذبون أشد الكذب على الله فيما تدعون وفيما تزعمون .

بقى سؤالان لا متناص لنا من التعرض لهما والإجابة عليهما . .

الأول : ما السر في أننا نرى بعض الناس قد أعطى من المواهب ما لم يعط غيره ، ونال من التوفيق ما لم ينله سواء ؟
والثاني : إذا كان الله تعالى قد علم كل شيء أزلاً وقدره على عباده ولا بد أن تكون الأعمال مطابقة للعلم الإلهي السابق ، أفلا يكون معنى هذا أن الإنسان مضطر في ما يأتي ويذر ، ولا اختيار له ؟

والجواب عن الأول :

إن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والفضل لاحجر عليه ، وأما قوله تعالى : ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ ^(١) فهذا من باب العدل ، وأما الفضل فإن الله تبارك وتعالى قال : ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ ^(٢) .

والجواب عن الثاني :

إن صفة العلم صفة انكشاف ، وليست صفة تأثير فهذا العلم الشامل المحيط لمدخل له في اتجاه الإنسان الذي يصدر عن اختيار ، وإرادة ، وحرص منه ، وذلك أن العلم لا علاقة له بالجب ، والاختيار ، فعلم الله ليس ملزماً للإنسان ، ولا مانعاً من فعل ما يريد بمحض إرادته واختياره .

القدر سر لا يستطيع إدراكه

وقد أراد الله بنا وأراد منا : أراد بنا ما قدره علينا ، وأراد منا ما كلفنا

(١) سورة النجم : ٢٩

(٢) سورة آل عمران : ٧٤ ، ٧٣

به ، فلا ينبغي أن نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ، والقدر سر استأثر الله به ، ووقع في السنة التحذير من الخوض فيه .

قال - ﷺ - : «إذا ذكر القدر فأمسكوا» ^(١) وكلامنا فيه - معشر البشر - إنما هو وقوف بساحله ، أما لجته فمن خاضها هلك ، سئل رجل من الصالحين عن رأيه في القدر فقال : رأى فيه رأى ابنتي وكانت طفلة صغيرة لا تدرك شيئاً من هذا فكأنه يقول : لا رأى لي .

وقد سأل الإمام علياً رضي الله عنه وكرم الله وجهه شيخ - بعد انصرافه من صفين - فقال أخبرني عن مسيرنا إلى الشام : أكان بقضاء الله وقدره ؟ فقال : والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما وطننا ولا هبطنا وادياً ، ولا علونا تلمة إلا بقضاء الله وقدره .

فقال الشيخ : فعند الله أحسب عنائي ، ما أرى لي من الأمر شيئاً . فقال له : (مه أيها الشيخ عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ، ولا إليها مضطرين .

فقال الشيخ : فكيف ساقنا القضاء والقدر ؟ قال : وبحك . لعلك ظننت قضاء مجبراً ، وقدرًا قاسراً ، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهي ، ولم تأت لائمة من الله المذنب ، ولا محمداً لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبدة الأوثان ، وجنود الشيطان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسراً ، لم يعص مغلوباً ، ولم يطع مستكراً ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق

(١) جزء من حديث رواه الطبراني

السموات والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار^(١)

ومن دعوات العارف بالله تعالى أبى الحسن الشاذلى رحمه الله وأثابه :
(اللهم إني أتوسل بك إليك ، اللهم إني أقسم بك عليك ، اللهم كما كنت دليلى عليك ، فكن شفيعى إليك .

اللهم إن حسناتى من عطائك ، وسيئاتى من قضائك فجد اللهم بما أعطيت على ما به قضيت حتى تمحو ذلك بذلك . لا من أطاعك فيما أطاعك فيه له الشكر ، ولا لمن عصاك فيما عصاك فيه له العذر ، لأنك قلت وقولك الحق : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾^(٢) .

اللهم لولا عطاؤك لكنت من المساكين ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين ، وأنت أجل وأعظم ، وأعز وأكرم من أن تطاع إلا بإذنك ورضاك ، أو تعصى إلا بحكمك وقضائك ، إلهى ما أطعتك حتى رضيت ، ولا عصيتك حتى قضيت أطعتك بإرادتك والمنة لك على ، وعصيتك بتقديرك والحجة لك على ، فبوجوب حجبتك وانقطاع حجتي إلا مارحمتنى ، وبفقري إليك وغناك عنى إلا ما كفيتنى يا أرحم الراحمين^(٣)

(أما بعد) فالإيمان بالقدر : يملأ نفس المؤمن بالطمأنينة ، وقلبه بالسكين لله ، ويحفزه إلى قوة العزيمة ، ويخلق الشجاعة ، وفضائل الصبر والرضا والثبات ، لأنه يعلم أنه لا يملك الحياة إلا واهبها ، ولا يملك الرزق والعطاء إلا مانحه ومسديه وهو المنعم الوهاب سبحانه .

وأن ما قدر له أو عليه فإنه مصيبه لا محالة ، فلا يهلع ولا ينجزع ولا يحسد

(١) مجلة نور الإسلام - العدد المذكور سابقاً

(٢) سورة الأنبياء : ٢٢

(٣) كتاب أبى الحسن الشاذلى - للدكتور عبد الحليم عمود ١٩٦٨ - ١٩٦٩ .

ولا يحقد ، ولا يشمت ولا ينافق ، بل يواجه الحياة بوجه باسم ، وصدر
منشرح وقلب نقى رضى ، واندفاع لعمل صالح يسعده في دنياه ، وتحسن
به عقباه .

يقول ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ،
وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن
بالقدر » .

الباب الثالث **العبادة وأثرها في الفرد والجماعة**

الفصل الأول

أثر العبادة في صلاح الفرد

يجدر بنا - قبل أن نتحدث عن أثر العبادة في صلاح الفرد ، وتقويم أخلاقه وتزكية نفسه ، وتهذيب وجدانه ، وتوجيهه الوجهه النافعة - أن نشير إلى الغاية من وجود هذا الإنسان ، والحكمة التي من أجلها خلقه ربه وسواه ، وأمدّه بالعلوم والمعارف ، وسخر له الكائنات ، وهي غاية سبق أن تناولناها في مناسبات عدة ، إلا أننا نجد أنفسنا ملزمين بمعاودة التذكير بها هنا لأنها مدخل لا بد منه لما نريد أن نتكلم فيه ، ونصل إليه .

الغاية من خلق الانسان

إن الغاية من خلق الناس هي أن يعبدوا ربهم مخلصين له الدين ، ويتعرفوا إليه بطاعته وعبادته ، وذكره وشكره ، وإن منازلهم عنده تتحدد على ضوء هذه العبادة . وهذا التعرف . ولاعبرة بها وراء ذلك من علوم ومعارف ، أو أعمال وعبادات إذا جهل العبد ذلك ، أو أعرض عنه وتهاون فيه .

فلو افترضنا أن إنسانا من الناس أتيح له من العلم والمعرفة أقصى ما يتاح لبشر ، ثم لم يعرف ربه فهو جاهل . ولو افترضنا كذلك أن رجلا قام بكل ما كلف به من واجبات في : بيته وعمله ونحو وطنه وأعرض عن واجبه نحو ربه فهو مقصر ، بل من أشد الناس تقصيرا .

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية النبيلة فإن الله سبحانه أوصى عباده بالفضائل ، وحذرهم من الشرور والردائل ، لقد أوصاهم بذلك إجمالا في مواطن كثيرة نذكر منها : قول الحق سبحانه : ﴿ إن الله يأمر بالعدل

والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ،
يعظكم لعلكم تذكرون ﴿١﴾ .

وأوصاهم بذلك على التفصيل فى مواطن كثيرة كذلك من كتابه
الكريم ، وعلى لسان خاتم رسله ﷺ : لقد أوصى سبحانه بالإخلاص ،
وحذر من الرياء وأمر بالتواضع ، وحذر من الكبر ، لقد حث على الجود
والساحة ، وحذر من الشح والبخل ، وهكذا . .

إنه ما من مكرمة إلا بينها الدين ودعا إليها ، ورغب فيها ، وأشار إلى
بركاتها وما من رذيلة إلا نهى عنها ، وحذر منها ، وأشار إلى شؤمها وغوائلها ،
وسوء عاقبتها .

ونستطيع أن نتخذ من هذه الغاية مقياسا نحكم به على الأفراد
والجماعات ، فمن تحققت له هذه الغاية فى التعرف إلى ربه ، وامتنال أمره
ونبيه ، والوقوف عند حدوده ، وارتقت مشاعره ، فصار يحب الله ، ويبغض
الله ، ويعطى الله ، ويمنع الله ، فإنه يعتبر من وجهة نظر الدين قد صلح
أمره ، واستقام حاله ، ورجى خيره ، وأمن شره ، وهذا الصنف من الناس
هم الذين يصفهم القرآن الكريم بالعقل فهم أولو الألباب دون سواهم ،
لأن العاقل من عقل عن الله أمره ونبيه . قال سبحانه وتعالى : ﴿ فبشر
عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم
الله ، وأولئك هم أولو الألباب ﴾ (٢)

إنهم الذين يتفكرون بعقولهم وقلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ،
فيذكرون ربهم مستحضرين ماله من جلال وجمال ، وإحسان وكمال ،
ويتفكرون فى مخلوقاته وبديع آياته ، ويبتهلون إليه ، ويتوكلون عليه ،

(١) سورة النحل : ٩٠

(٢) سورة الزمر : ١٨، ١٧

تتحصر في الآخرة هممتهم وتلهج بالخير ألسنتهم ، قال سبحانه تعالى : ﴿ إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ، رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رِسَالِكَ رَسُولِكَ وَلَا تَحْزُنْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تَخْلُفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١) .

وأما من حالت شهوته وهواه ، وإيثاره لهذه الحياة على ابتغاء مرضاة مولاه والرغبة فيها عنده ، وعجز عن تحقيق هذه الغاية والتحقق بها فإنه يعتبر من وجهة نظر الدين فاشلاً ، خسر الدنيا والآخرة ، وضيع حياته سدى ويتحدث القرآن الكريم عن هؤلاء الحمقى ، فيقول : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (٢) .

ويحذر المؤمنون من صنيعهم ويذكر سوء عاقبتهم ويقارن بينهم وبين أهل الإخلاص والإيمان والاستجابة فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ، لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

وقد يكون لبعض هؤلاء الأشقياء حسن تصرف في جمع المال واقتنائه وتثميره ، وكسب الجاه والوصول إلى المناصب ، ومعرفة ما يستجلبون به ذلك كله ، وقد يشنى عليهم الناس بالعقل ، ويصفونهم بالنجاح ، ولكن

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) سورة التوبة : ٦٧ .

(٣) سورة الحشر : ١٨ - ٢٠ .

الدين ينظر إلى هؤلاء نظرة تختلف عن هذه النظرة القصيرة ، فلا عبرة بما قد يكون لهم من علم أو عمل ، وأى قيمة لعلم من يجهل ربه ، وأى عمل لمن جحد حق مولاه ؟ إن هؤلاء هم الذين عناهم القرآن الكريم حين قال : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ ^(١) . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالانعام ، بل هم أضل سبيلاً ^(٢) .

وفي حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدثنا : « أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » .

ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الكوت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل المجمل ، كجمر دحرجته على رجلك فتراه مُتَتَرّاً ، وليس فيه شيء ثم أخذ حصى فدَحْرَجَهُ على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً ، وحتى يقال للرجل : ما أجَلَدَهُ ، ما أَظْرَفَهُ ، ما أعقله ، وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » ، ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت : لئن كان مسلماً ليردنه على دينه ، ولئن كان نصرانياً ، أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، وأما اليوم فما كنت إلا لأبائع فلاناً وفلاناً ^(٣) .

ويحذر القرآن الكريم من الاغترار بما يفتح على هؤلاء من زهرة الحياة الدنيا ، وما يفتنون به من مال وبنين ، وجاه وسلطان ، فإن ذلك كله إلى

(١) سورة الروم : ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الفرقان : ٤٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ١٦٩ / ٢ .

زوال ومن اغتر به وركن إليه ، واطمأن إليه ، وحصر همته فيه كان مصيره النار ، وبشس القرار قال سبحانه وتعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم ، وبشس المهاد ﴾ .^(١)

ويقتلع القرآن ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن الخير الدنيوي الذي غمروا فيه ، وتمعوا به دليل على كرامتهم على الله ، وفضيلتهم عنده ، مبينا أن الخير كل الخير ، والعطاء الحقيقي إنما هو في الاستجابة لأمر الله ، وإنشراح الصدر بطاعته ، وإبتغاء مرضاته ، ووجل القلوب من خشيته يقول سبحانه : ﴿ أيحسبون أننا نمدهم به من مال وبينن نसारح لهم في الخسرات ؟ ، بل لا يشعرون ، إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم برهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون في الخيرات ، وهم لها سابقون ﴾ .^(٢)

وفي حديث ابن مسعود رضى الله عنه عند الإمام أحمد مرفوعاً يقول عليه الصلاة والسلام : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه » .^(٣)

دور العبادة في إصلاح الفرد

وللعبادة دورها الفعال ، وتأثيرها القوي في إصلاح الفرد ، وتقوية إيمانه وشعده عزيمته ، وتربية كالأخلاص والصدق ، والحلم والتواضع

(١) سورة آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) سورة المؤمنون : ٥٥ ، ٦١

(٣) أخرجه الإمام أحمد

والإحسان ، والسماحة والكرم ، واليقين والتوكل ، والصبر والرضا ،
والقناعة والعفاف ، وتطهيره من الصفات المردولة مثل الشك والرياء ،
والنفاق والمداينة ، والكبر والعجب ، والحسد والحقد ، والغل والبغضاء ،
والفحش والكذب ، والشح والبخل وغير ذلك من الصفات .

وقد أشار القرآن الكريم إلى بركات العبادة وثمراتها إجمالاً حين قال :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

كما أشار إلى أثر الصيام في ذلك على وجه خاص فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

وتحدث عما تثمره الصلاة فقال : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٣) .

وبين ما ينبغي أن يكون عليه من أراد الحج من مكارم الأخلاق ،
ومحاسن الصفات فقال : ﴿ الْحَجُّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ
الْحَجَّ فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ،
وَتَزُدُّوا فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ (٤) .

وأوضح عليه الصلاة والسلام الحج الذي يقبله الله ويثيب عليه أجل
الثواب فقال : « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » (٥) .

(١) سورة البقرة : ٢١

(٢) سورة البقرة : ١٨٣

(٣) سورة العنكبوت : ٤٥

(٤) سورة البقرة : ١٩٧

(٥) متفق عليه

التقوى

لكن ما هى التقوى التى جعلها الله سبحانه غاية للعبادة ؟ والتى بين أن منازل العباد عنده سبحانه تابعة لها ، فكلما ازدادت التقوى لدى عبد أصبح كريها على ربه أكثر من غيره ممن أقل منه شأنًا فى أمر التقوى حسبها قال جل شأنه : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ^(١) .

ورتب على التحقق بها ألوانا من العطاء الجزيل فى الدنيا والآخرة ، وأوصى بها المتقدمين والمتأخرين فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ ^(٣)

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ^(٤) .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٥) .

وبين أوصاف المتقين فى أروعائهم عن الشر ، وسرعة مبادرتهم إلى الخير فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ^(٦) .

وقال : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا

(١) الحجرات : ١٣

(٢) سورة الطلاق : ٣

(٣) سورة الطلاق : ٥

(٤) سورة الأحزاب : ٧٠ : ٧١

(٥) سورة الأنفال : ٢٩

(٦) سورة الأعراف : ٢٠١

الكتساب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض ، وكان الله غنيا حميدا ﴿^(١)﴾ .

لقد عرض العلامة ابن رجب الحنبلي في كتابه : (جامع العلوم والحكم) لبيان معنى كلمة (التقوى) ، وأورد آثارا للصحابة وأتباعهم من السلف رضوان الله عليهم أجمعين - في بيان حقيقتها ، وتوضيح معناها ، وآثارها وثمراتها وذلك في أثناء شرحه لحديث معاذ بن جبل مرفوعا « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » رواه الترمذي وحسنه .

قال رحمه الله : وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه ، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه ، وسخطه ، وعقابه - وقاية تقيه من ذلك ، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه .

وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله عز وجل كقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴾ ^(٢) . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ ^(٣) .

وإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه فالمعنى : اتقوا سخطه وغضبه ، وهو أعظم ما يتقى ، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوى والأخروى .

قال تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ ^(٥) فهو أهل أن يخشى وهاب ويحل ويعظم في

(١) سورة النساء : ١٣٦ .

(٢) سورة المائدة : ٩٦ .

(٣) سورة الحشر : ١٨ .

(٤) سورة آل عمران : ٣٠ .

(٥) سورة المائدة : ٥٦ .

صدور عباده ، حتى يعبدوه ويطيعوه لما يستحقه من الإجلال والإكرام
وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش وشدة البأس .

وفي الترمذى عن أنس عن النبي ﷺ في هذه الآية : ﴿ هو أهل
التقوى وأهل المغفرة ﴾ قال : قال الله تعالى : (أنا أهل أن أتقى ، فمن
اتقانى فلم يجعل معى إلها آخر ، فأنا أهل أن أغفر له) ^(١)

ونارة تضاف التقوى إلى عقاب الله وإلى مكانه كالنار ، أو إلى زمانه
كيوم القيامة قال تعالى : ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ ^(٢) وقال
تعالى : ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ^(٣)
وقال تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ ^(٤) . ﴿ واتقوا يوما
لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ ^(٥) . .

ويدخل فى التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات
وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات ، وهى أعلى
درجات التقوى .

قال الله تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ،
الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، والذين
يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ ^(٦)
وقال تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة
والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن
السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم

(١) أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب .

(٢) سورة آل عمران ١٣١

(٣) سورة البقرة : ٢٤ .

(٤) سورة البقرة : ٢٨١

(٥) سورة البقرة : ١٣٣

(٦) سورة البقرة : ١ - ٤

إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴿ ١ ﴾ .

قال معاذ بن جبل : ينادى يوم القيامة أين المتقون ؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب منهم ولا يستتر .
قالوا له : من المتقون ؟

قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا لله بالعبادة .

وقال ابن عباس : المتقون : الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفونه من الهدى ، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به .

وقال الحسن : المتقون : اتقوا ما حرم الله عليهم ، وأدوا ما افترض الله عليهم .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس تقوى الله بصيام النهار وقيام الليل ، والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله فمن رزقه بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير .

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله .

وعن أبي الدرداء قال : تمام التقوى أن يتقى الله العبد ، حتى يتقيه من مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما ، يكون حجابا بينه وبين الحرام ، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ ^(١) . فلا تحقرن شيئا من الخير أن تفعله ، ولا شيئا من الشر أن تتقيه .

(١) سورة البقرة : ١٧٧

(٢) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨

وقال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

وقال الثوري : إنما سموا متقين لأنهم اتقوا ما لا يتقى . قال موسى بن أعين : المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام فسماهم الله متقين .

وقد سبق في حديث : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس »^(١) ، وحديث : « من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه »

وقال ميمون بن مهران : المتقى أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه .

وقال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾^(٢) قال : (أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر)^(٣) . والشكر يدخل فيه جميع فضل الطاعات .

ومعنى ذكره فلا ينسى : ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته وكلما فيه يمثلها ، ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها .

وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى فقال : هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ فقال : نعم . قال : فكيف صنعت ؟

(١) رواه الترمذى

(٢) سورة آل عمران : ١٠٢

(٣) أخرجه الحاكم مرفوعاً ، والموقوف أصح .

قال : اذا رأيت الشوك عدلت عنه ، أو جاورته ، أو قصرت عنه .
قال ذلك التقوى .

وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال :

خل الذنوب صغيرها	وكبيرها فهو التقى
واصنع كما شئت فوق	أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرون صغيرة	إن الجبال من الحصى

وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقى .

قال حون بن عبد الله : تمام التقوى أن تعلم علم ما لم تعلم منها إلى ما علمت منها .

وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس قال : كيف يكون متقيا من لا يدري ما يتقى ؟ ثم قال معروف الكرخي :

إذا كنت لا تحسن تتقى أكلت الربا .

وإذا كنت لا تحسن تتقى لقيتك امرأة فلم تغض بصرك .

وإذا كنت لا تحسن تتقى وضعت سيفك على عاتقك .

وقد قال النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة : « إذا رأيت أمتي قد اختلفت فاعمد إلى سيفك فاضرب به أحدا » .

ثم قال معروف : ومجلسي هذا لعله كان ينبغي لنا أن نتقيه ، ثم قال : وبجيثكم معي من المسجد إلى ههنا كان ينبغي لنا أن نتقيه ، أليس جاء في الحديث أنه فتنة للمتبوع ، مذلة للتابع « يعني : مشى الناس خلف الرجل » .

وفي الجملة فالتقوى هي وصية الله لجميع خلقه ، ووصية رسول الله ﷺ لجميع أمة .

وكان ﷺ اذا بعث أميرا على سرية أو صباه - في خاصة نفسه - : بتقوى الله ، ويمن معه من المسلمين خيرا .

ولما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله وبالسمع والطاعة لأئمتهم ..

ولما وعظ الناس قالوا له : كأنها موعظة مودع فأوصنا .

قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ... » .

وفي حديث أبي ذر - الطويل - الذي أخرجه ابن حبان وغيره .

قلت : يارسول الله أوصني .

قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة » ^(١) .

وخرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري .

قال : قلت : يارسول الله أوصني .

قال : « أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد

فإنه رهبانية الإسلام » ^(٢) .

وأخرجه غيره ، ولفظه : قال : « عليك بتقوى الله ، فإنه جماع كل

خير » .

وفي الترمذي عن يزيد بن سلمة أنه سأل النبي ﷺ قال : يارسول الله

إنني سمعت منك حديثا كثيرا فأخاف أن ينسيني أوله آخره ، فحدثني

بكلمة تكون جماعا .

قال : « اتق الله فيما تعلم » ^(٣) .

ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها ..

(١) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح

(٢) رواه الإمام أحمد

(٣) رواه الترمذي وفيه ضعف .

وكان أبوبكر الصديق رضى الله عنه يقول فى خطبته : أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله ، وأن تتشوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا ، وأهل بيته فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر دعاه فوصاه بوصية ، وأول ما قال له اتق الله يا عمر .

وكتب عمر إلى ابنه عبد الله : أما بعد ، فإنى أوصيك بتقوى الله عز وجل ، فإنه من اتقاه وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، واجعل التقوى نصب عينيك ، وجلاء قلبك .

واستعمل على بن أبى طالب رجلا على سرية فقال له : أوصيك بتقوى الله عز وجل الذى لا بد لك من لقائه ، ولا منتهى لك دونه ، وهو يملك الدنيا والآخرة .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل : أوصيك بتقوى الله عز وجل التى لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يشب إلا عليها ، فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل ، جعلنا الله وإياك من المتقين .

ولما ولى . خطب فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإن تقوى الله عز وجل خلف من كل شىء ، وليس من تقوى الله من خلف .

وقال رجل ليونس بن عبيد : أوصنى . فقال : أوصيك بتقوى الله والإحسان ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . وقال له رجل يريد الحج : أوصنى .

فقال : اتق الله فمن اتقى الله فلا وحشة عليه .
وقيل لرجل من التابعين عند موته أوصنا .
فقال : أوصيكم بخاتمة سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ^(١) .

وكتب رجل من السلف إلى أخ له : أوصيك وأنفسنا بتقوى الله ،
فإنها أكرم ما أسررت وأزين ما أظهرت ، وأفضل ما ادخرت ، أعاننا الله
وإياك عليها ، وأوجب لنا ولك ثوابها .

وكتب رجل منهم إلى أخ له : أوصيك وأنفسنا بالتقوى ، فإنها خير زاد
الآخرة والأولى واجعلها لكل خير سبيلك ، ومن كل شر مهريك فقد تكفل
الله عز وجل لأهلها بالنجاة مما يحدرون ، والرزق من حيث لا يحتسبون .

وقال شعبة : كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم : ألك حاجة ؟
فقال : أوصيك بها أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل : « اتق الله حيثما
كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن » .
وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك
الهدى والتقوى والعفاف والغنى » ^(٢) .

وقال أبوذر : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجًا ﴾ . ثم قال : « يا أباذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها
لكفتهم » ^(٣) . انتهى

ونستطيع بعد هذه النقول - التي أوردها العلامة ابن رجب الحنبلي -
رحمه الله تعالى - عن هؤلاء الصفوة من الصحابة والتابعين وغيرهم رضوان

(١) سورة النحل : ١٢٨

(٢) رواه الإمام أحمد وصححه والترمذي وغيرهم .

(٣) رواه أحمد - وأصح تفسيره كثير ج ٤ ص ٣٧٩

الله عليهم أجمعين - أن نتبين : المعانى التى تتضمنها كلمة التقوى ،
فهى : الإيمان القوى ، والعلم النافع والإخلاص والصدق ، والرضا
واليقين ، وهى اجتناب المعاصى والمخالفات ، والمصارعة إلى القربات
والمبرات ، وهى الشدة فى أمر الله ، والغيرة على حرماته ، وحفظ حدوده ،
وصدق الإنابة إليه ، ودوام الإقبال عليه .

إنها مراقبة الله وخشيته ، وحب الله وإجلاله ، وإحسان الظن به ،
وحيل التوكل عليه ، إنها أم الفضائل النفسية والاجتماعية ، ومنبع
المكارم ، ومبدأ الإحسان إنها الباعث على كل خير ، والزاجر عن كل إثم ،
والقائد إلى كل فضيلة .

إنها سلاح النصر على الأعداء ، وملهم الصبر فى البأساء ، والمعين
على الرضا بالقضاء .

إنها بركة العلم ، ونور الفهم ، وجلاء البصيرة ، وصفاء السريرة .
إنها نور القلوب والشفاء لما فى الصدور .

إنها عطاء الرحمن لمن تعرف إليه ، وهبة المنان لمن أقبل عليه .
إنها النعمة العاجلة ، والمثوبة الآجلة .

إنها السكينة فى الاضطراب ، والأنس فى الحيرة والاغتراب .

إنها شعور العبد بالرقابة الإلهية ، وإحساسه بالعطايا الربانية ، إنها
مصدر الذكر والشكر ، ووسيلة البر والإحسان .

إنها ثمرة الاعتصام بحبل الله ، والاستنارة بنوره ، والتحقق بالحق
الذى أنزله .

إنها ولاية الله لعبده إذا أقام عليها ، ووصلته به إذا استند إليها .
بها يجاب الدعاء ، ويكشف البلاء ، ويضاعف العطاء . .

أثر العبادة في تربية الدعاة

من أجل هذه الآثار التي تؤدي إليها العبادة ، بالتقوى التي هي ثمرة من ثمراتها ، والفضائل النفسية والاجتماعية التي تفرسها التقوى ، وتحرك دواعيها في النفوس ، وتثير بواعثها في الضمائر كان لابد للدعاة إلى الله من العبادة ، لأنها تقوى أرواحهم وتشحذ عزائمهم ، وتورث قلوبهم الصفاء والإشراق ، وتشرح صدورهم لما ندبهم الله إليه من دعوة الناس إلى الخير ، وتحذيرهم من الشر ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وتقديمهم بفيض غامر من السكينة والطمأنينة ، إلى جانب أنها تديم تذكيرهم بالله جل جلاله ، بعظمته وجلاله وإحسانه وكماله ، وتحليهم بالعفة والزهد ، والتواضع والسماحة وهي صفات إذا كانت كمالاً بالنسبة للمؤمن في خاصة نفسه ، فإنها ضرورية له إذا ما تصدى لدعوة الناس إلى ربهم ، وتبصيرهم بشئون دينهم .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى الصفات التي تؤهل المؤمن لنيل شرف الدعوة إلى الله ، والظفر بالإمامة في الدين ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ ^(١) .

وإنما يتحقق الصبر بتحقيق أنواعه الثلاثة وهي : الصبر على البلاء : في البأساء والضراء حتى لا يكون هناك جزع ولا اضطراب ، ولا سخط ولا ضجر ، بل تسليم كامل ، وتفويض مطلق ، اقتداء بأولئك الصفوة الذين امتدح الله مسلكهم في كتابه ، ونوه بمواقفهم بين أوليائه وأحبابه فقال سبحانه : ﴿ وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا :

(١) سورة السجدة : ٢٤

إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون ﴿١﴾ .

والنوع الثانى وهو الصبر على الطاعة ، أى : المداومة عليها ، والإقبال على الله فيها وإرادة الله عز وجل بها ، وسرعة النهوض إليها ، وأداؤها على أكمل وجوها . .

والنوع الثالث وهو الصبر عن المعصية ، وهو نوع من جهاد النفس يحتاج إلى قوة إيمان وصدق يقين ، وخشية من الله ، وزهد فى الدنيا وزهرتها .

والصبر على البلاء يحتاج إلى قوة يقين ، والصبر عن المعصية يحتاج إلى شدة خشية ، والصبر على الطاعات يحتاج مع ذلك إلى قوة رغبة فى الآخرة . .

وفى الحديث الشريف : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا . . . الحديث » . (٢)

والصابرون درع الأمة فى القتال ، وسيفها فى النضال ، ولا يغنى أحد فى المعامع غناءهم ، ولا يبلى غيرهم من الناس بلاءهم ، فالواحد منهم بكثير .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ : إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ، الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا

(١) سورة البقرة : ١٠٥-١٠٦

(٢) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن

فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا
ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴿^(١)﴾ .

والله سبحانه وتعالى مع المتقين بالنصر والتأييد ، والمعونة والتثبيت :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ
غُلَظَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٢)
والصابرون يحبهم الله ، ويثبت أقدامهم ، يجزيهم ما هم أهل له من
التأييد .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا
لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ ﴾^(٣) .

وحينما كلف الرسول ﷺ بتبليغ رسالة ربه ، وإنذار قومه ، وخلعهم
من عبادة الأوثان إلى عبادة الملك الديان وهي مهمة شاقة تتطلب جهدا
جهيدا ، وعزما شديدا ، أوصاه ربه بطائفة من الفضائل والعبادات يقوى
بها العزم ، وتهون معها الشدائد ، وتنطلق بها الهمم ، ويثبت بها القلب .
قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكْبِرْ ، وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ ،
وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾^(٤) .
كما أوصاه في فاتحة سورة المزمل بقيام الليل والإقبال على ربه بالعبادة
له ، والتوكل عليه ، والاستعداد منه .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نَصُفَّهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ
قَلِيلًا أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ

(١) سورة الأنفال : ٦٥ ، ٦٦

(٢) سورة التوبة : ١٢٣

(٣) سورة آل عمران : ١٤٦

(٤) سورة المدثر : ١ - ٧

الليل هي أشد وطأ وأقوم قليلا ، إن لك في النهار سبعا طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴿^(١) .

وذلك لأن قيام الليل له أثره القوي في قوة اليقين ، وصدق التوكل ، لما يورثه من صفاء النفس ، ورقة القلب ، وخشية الرب ، وشدة الحب له ، وعظم الرجاء فيه .

وحين واجه النبي ﷺ المستهزئين والمتعنتين والمنكرين ، وواجهوه بالكذب له ، وإشاعة الأراجيف من حوله ومن حول دعوته ، ومن حول الكتاب الذي نزل عليه فقالوا عنه تارة : إنه ساحر ، وتارة يقولون : كاهن . وطورا يقولون : إنه مجنون .

ويقولون عن القرآن الكريم مرة : إنه سحر ، ومرة هو كهانة ، وتارة : هو أساطير الأولين ، وقالوا : إنها يعلمه بشر ، ويقصدون رجلا روميا ليس بعربي اللسان ولا الأرومة حين واجه النبي ﷺ ذلك وضاق به صدره لما فيه من كفر بالله ، وصد عن سبيله ، ومحاربة لأوليائه نزل عليه قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ^(٢) .

إن الله سبحانه وتعالى يأمره بالإعراض عن أذى هؤلاء الفجرة . الكفرة والإقبال على مولاه بالعبادة والتسبيح والصلاة ، فإن ذلك عون له على تحمل أذاهم ؛ حتى يقضى الله فيهم قضاءه ، ويمضي فيهم حكمه ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، الأمر أمره ، والحكم حكمه ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

(١) سورة المزمل : ١ - ٨ .

(٢) سورة الحجر : ٩٧ - ٩٩ .

العبادة والخلق

وقد يكون من المناسب هنا أن نبين : أن هناك علاقة وثيقة بين العبادة وبين الخلق ، فكما أن العبادة الصالحة لها تأثيرها القوي في تقويم الأخلاق وتزكية النفوس ، وشحذ العزائم ، إلى جانب أنها تزكى في العبد ملكة المراقبة لربه ، وترقى به إلى درجة المشاهدة والإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه . فإن التمسك بالأخلاق الفاضلة : من الصبر والعفة ، والجود ، والسخاء ، والصدق ، والتوكل ، والبعد عن الأخلاق المذمومة ، والأفعال القبيحة ماظهر منها ومايطن ، ما تعلق منها بالقلب كالكبر ، والعجب ، والحسد ، والبغضاء والضعينة ، أو بالجوارح كالزنا والسرقه وشرب الخمر ، والكذب وشهادة الزور ومقارفة الآثام عامة إن البعد عن ذلك كله ، يجعل العبد موفقا للخيرات معانا على الطاعات والعبادات ، ينشأ عن هذا قول النبي ﷺ : « اتق المحارم تكن أعبد الناس » . الحديث ^(١) وذلك لأن التمسك بالأخلاق الفاضلة ، وسلوك المسالك الطيبة ، وتجنب المعاصي ، والمنكرات يبقى النفس على فطرتها النقية ، ويحفظ للقلب بصفاء الجوهر ، وللبصيرة بنورانيته التي جبلت عليها ، ثم هو يزيد القلب نقاء والنفس صفاء ، والبصيرة نورانية .

وهذه الحياة التي نعيشها على هذه الأرض إنما هي سلسلة من المتاعب والفتن ، ولا بد أن يختبر المؤمن بالشهوات ، والشدائد تمحيصا لدينه ، واختباراً لمدى قوة إيمانه ، ويقيته فمن الناس القوي التقى ، الصابر المصابر الذي تزيده الفتن صفاء : يصقل التمسك بالخير قلبه ، ويزكى نفسه ، ويعبد في طريق الله مسلكه .

ومن الناس الضعيف المتزلزل الذي لا يثبت عند فتنة ، ولا يصبر في

(١) رواه أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة

عنة : إذا ابتلى بالدنيا بشهواتها وزهرتها سال لها لعبه ، وتغير بها خلقه ،
واعوجج بها مسلكه ، وإذا ابتلى بشدائدها وضيقها ضجر وسخط وتبرم
وتأفف ، فلا هو في السراء شاكر ، ولا هو في الضراء صابر .

يقول عليه الصلاة والسلام : « تعرض الفتن على القلوب عودا
عودا ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت
فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تنضره
فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مربادا ، لا يعرف معروفًا
ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه » .^(١)

وقد يكون المراد بالفتن في هذا الحديث ما يعرض للقلوب من الشكوك
والشبهات في شئون الدين ، وأخبار الغيب من نحو البعث ، والحشر ،
والحساب ، والعقاب ، وقد يكون المراد بها : ما هو أعم من ذلك فتشمل
ما يطرأ على القلوب من الميل إلى الشهوات ، والركون إلى الملذات ، وهذا
هو الذي أطمئن إليه ، وأعول عليه .

وإنما كان إنكار الفتن ، والإعراض عنها ، والنفور منها مقويًا
للإيمان ، مصلحاً للقلوب وكان القلب الذي يقبل هذه الفتن ، ويشربها
قلباً منكوساً ، منحرفاً ، لأن القلوب هي موطن الإرادات ، ومنطلق
العزائم ، بها تستقيم الجوارح ، وتصلح الحركات ، وبها كذلك يكون
الاعوجاج والانحراف ، والطغيان والاعتساف .

وفي الحديث الذي رواه الشيخان : « الحلال بين والحرام بين وبينهما
أمور مشتهيات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ، وعرضه ، ومن
وقع في الشبهات كراع يرمى حول الحمى يوشك أن يواقع » ، إلا وإن لكل
ملك حمى ، إلا وإن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة

(١) أخرجه مسلم من حديث حليقة في كتاب الإيمان ٢ / ١٧٢ بشرح النووي

إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .^(١)

ولواقعة الحرام ، ومقارفة الآثام ، تأثير سىء على القلوب والبصائر ، والإرادات والعزائم ، فبالإضافة إلى الحديث الذى رواه حذيفة وأوردناه منذ قليل فهناك أحاديث أخرى فى ذلك . يقول عليه الصلاة والسلام : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر صقلت ، فإن عاد زيد فيها حتى تملو قلبه ، فهو الران الذى ذكره الله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ﴾ .^(٢) »

وقد أخبر الله فى كتابه عن طائفة من المسلمين فروا يوم أحد ، وبين أن الشيطان قد استدرجهم بسبب ذنوبهم السالفة فقال : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم ﴾ .^(٣)

والشرور والآثام هى طريق الشيطان ، ومن سار فيها ضل ضلاله ، وساء حاله ولايزال به ذلك حتى يصبح على شاكلة أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ وجعلناهم أممته يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لاينصرون ﴾ .^(٤) قال الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ماركى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى منكم من يشاء والله سمیع علیم ﴾ .^(٥)

(١) رواه الشيخان من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما .

(٢) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٣) سورة آل عمران : ١٥٥ .

(٤) سورة القصص : ٤١ .

(٥) سورة النور : ٢١ .

وبصلاح الفرد واستقامته يصلح كل شيء : تصلح الأسرة ، وتصلح الأمة وتصلح سائر الشئون ، إن الفرد إذا كان في موطن القدوة والأسوة والهيمنة : أباً أو أستاذاً أو حاكماً فإنه يصلح بصلاحه كثير ، ويندفع شر مستطير ، وقد تكون القوانين واللوائح محققة للمصالح التي تحتاجها الجماعة ، وتنشدها الأمة ، مثبتة لأركان العدالة .

ولكنها إذا تولت أمرها أيد غير صالحة وضماير غير نقية ، وذمم غير مستقيمة انحرفت بها السبل ، وتعثرت بها الأمور ، وتقدم في ظل ذلك من حقه التأخر ، وآخر من حقه أن يقدم ، وأسندت الأمور إلى غير أهلها ، وكوفئ من يستحق العقوبة وعوقب من يستحق المكافأة ، فعادت الأمور منحلة ، والأحوال مختلة ، وذلك ضرر بليغ ، وشر فظيع ، إذا ابتليت به أمة تفتتت أواصرها ، وانحلت روابطها ، وسادها الفساد ، وسيطر على أمورها العسف والاستبداد . .

- نعم : إن السلطان إذا كان في يد أمينة تراقب الله وتخشاه ، وترعى حقوق الناس فإنه يضحى عدلاً ورحمة وكفاية ، ومساواة وطمأنينة ، وبذلك يزداد الخير ، ويتقدم المجتمع ، ويسود بين الناس الحب والتعاون ، والفضل والإيثار .

وعلى العكس من ذلك إذا كان الأمر في يد غير أمينة ، لا تخشى الله ولا تراقبه ، ولا ترجو لقاءه فإن المجتمع يضطرب ، والفوضى تستشري ، ويتقدم الأشرار والمنافقون وتحرم البلاد من الكفايات وأهل الإخلاص والصدق . . وويل لقبيلة يسودها أراذلها ، وتباً لمجتمع تكون الكلمة العليا في تصريف أموره لمن قل دينهم ، وضعف إيمانهم ويقينهم : من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، وينصرون القوى على الضعيف ، والغنى على الفقير ، ويسرون في المجتمع بالهوى لا بالحق والعدل ويحلون لأنفسهم وبطانتهم ما حرم الله عليهم .

- والمال عصب الحياة وقوامها ، وهو خير معين على عبادة الله والتقرب إليه ، وفيه يقول الصادق المصدوق عليه السلام : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ^(١)

لكنه إنما يكون خيرا إذا كان في حوزة الرجل الصالح المستقيم السخي الذي يهتم بمصالح إخوانه وجيرانه وقرباته وبلده ودينه ، الذي يأخذه من حله ، وينفقه في محله ، ويؤمن بأنه مسئول عنه حسبا قال النبي صلى الله عليه وآله : « لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » . ^(٢)

وأما إذا كان في يد مسرفة ملوثة منحرفة فإنه يصير وبالا على صاحبه وعلى المجتمع لأنه لا يراعى الله ولا يتوخى في كسبه ، وتنميتة وجوه الحلال ، ولا في إنفاقه الوجوه المشروعة ، وكم اعوجبت به أخلاق ، وانحرفت به مسالك ، وبه كان الشر والفجور ، والعجب والغرور ، والعسف والفساد ، والطيش والاستبداد .

وقد تلقى الأمة عدوها في معركة ، وقد يكون السلاح في يدها بتاراً ، وقد يكون متطوراً ، وقد يكون كثيراً ، ولكنه إذا وضع في أيدي مرتعشة ، وصرفته قلوب مظلمة وعقول من الخير والهدى معتمة فإنها تسيء استعماله ، ويعود ضرره أكثر من نفعه وهكذا ما من نعمة من النعم إلا وتقامها وبركتها في معرفة الله والتعريف إليه ، وبدون هذا التعريف تنمحى بركتها ، وتنعكس آيتها ، وتغدو حسرة ووبالا ، وعذاباً ونكالا . .

وإلى هذه الحقائق تشير آيات كريمة من القرآن الكريم ، يقول الله

(١) رواه أحمد وابن منيع عن عمرو بن العاص رضي الله عنه . كشف الخفا ٢ / ٢٤٢

(٢) رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح واللفظ له (الترغيب والترهيب ٤ / ٧٥٧)

تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربى
أكرم من ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن ،
كلا ﴾ ^(١) . فانظر كيف سوى سبحانه بين النعمة الواسعة : والعيش
الوارف ، وبين ضيق الرزق ، وقلة ذات اليد فجعلها جميعا ابتلاء يختبر به
العبد لتكشف حقيقة أمره إما شاكراً وإما كفوراً . . وإنما يوفق في الحالين
المؤمن العابد الصابر الذى يشكر لدى العطاء ويصبر عند البأساء ،
ويرضى في سائر الأحوال بالقضاء .

وقريب من هذه الآية قول الحق جل وعلا : ﴿ كل نفس ذائقة
الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ^(٢) . فقد جعل
سبحانه وتعالى الشر بمعناه الواسع الشامل للفقر والضيق والمرض وألوان
البلاء في النفس والولد والأحباب ابتلاء للعبد واختبارا كما جعل الخير بمعناه
الشامل للمال والجاه والعافية وألوان النعم التى لا تحصى عددا ابتلاء للعبد
 واختبارا كذلك .

وقد ترى بعض الناس صابرا في الشدائد ، ساكنا في المحن والنوائب
لا يجار ولا يش ، ولكنه حين يبتلى بالنعم والشهوات فقد يميل بعض الميل .
وللرسول ﷺ في هذا المعنى كلمات مشرقة جديرة بالتأمل والتدبر . . فعن
أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر
وجلسنا حوله . فقال : « إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة
الدنيا وزيتها » ^(٣) .

وعن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث
أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بعزيتها فجاء بهال من
البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول

(١) سورة الفجر : ١٥ - ١٧

(٢) سورة الانبياء : ٣٥

(٣) متفق عليه

الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ؟ »

فقالوا : أجل يا رسول الله .

قال : « أبشروا وأملوا مايسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .^(١)

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يخشى على أصحابه من فتنة الفقر والإقلال ولكنه كان يخشى عليهم مايسط عليهم من زينة الدنيا وزهرتها ، فيؤدى بهم ذلك إلى استعذاب مذاقها ، والركون إليها ، والتنافس فيها بها هو مشروع حيناً وبها هو ممنوع أو مشتبه أحياناً أخرى ، وبها يحجر ذلك من تطاحن وتقاتل وعداوة وبغضاء ، حتى ليصبح المال هو منتهى غايات بعض الناس ، ومبلغ آمالهم ، ورياء بذلوا في سبيل الظفر به ، والا مستحواذ عليه الدين والشرف ، وقطعوا لأجله ما أمر الله به أن يوصل ألم يقل النبي ﷺ : « بادروا بالأعمال الصالحة ، فستكون فتن كقطع الليل المظلم : يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً : يبيع دينه بعرض من الدنيا » .^(٢)

وقد قصد النبي ﷺ من النصيحة : بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة أن يكون للمرء بها الصلة الوثقى بربه ؛ ليدراً عنه بذلك شرور فتن الحياة ، ونوائبها على نحو ما جاء في حديث ابن عباس رضى الله عنهما . قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال لى : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله يحفظك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت

(١) متفق عليه

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح

فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

وفي رواية أخرى لهذا الحديث : « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .^(١)

(١) رواه عبد بن حميد في مسنده . انظر جامع المعالم وأحكام ٢٠٩/١

الفصل الثانى

أثر العبادة فى صلاح الجماعة

سبق أن عرفنا ما للعبادة من أثر طيب في إصلاح الفرد ، وتقوية إيمانه ، وتربية إرادته ، وشحذ عزيمته ، وتوجيهه الوجهة النافعة ، وتأهيله ليتسنى له مقام الإمامة في الدين ، ويصبح قائدا ورائدا للمصالحين المتقين ، وبذلك فإن من اليسير علينا أن ندرك أثر العبادات في صلاح الجماعة ، ودعم روابطها ، وبناء علاقاتها على أسس راسخة من العدل والإخاء ، والبر والإحسان ، والتقدير والتوقير ، والاعتراف لكل ذي فضل بفضله ، فها الجماعة التي ينشدها الإسلام الإطائفة من الأفراد يشدها رباط الدين ، ويؤلف بينها التآخي القائم على العدل والمساواة ، والإحسان والإيثار والبر والرحمة ، والتعاون على جلب الخير ، ودفع الضرر .

ولقد يكون من المفيد أن نلقى نظرة في كتاب الله عز وجل ، ثم في سنة محمد صلى الله عليه وسلم لتبين - على وجه التفصيل - : الصفات ، والسمات التي يريد بها الإسلام ويرضاها للجماعة المؤمنة .
ثم نبين : دور العبادات في غرس هذه السمات وتزكية هذه الصفات ، ثم نعرض لنماذج وقضايا تتضح بها الفكرة ، وتقوم بها الحجة .

إن الجماعة التي ينشدها الإسلام ، والتي يمكن وصفها بأنها جماعة صالحة ، وبأن مجتمعا مجتمع كريم لا بد لها من أوصاف وفضائل توثق الصلة بينها وبين ربها وتوثق الصلة فيما بينها ، وتعينها على رؤية الأشياء ومعرفتها كما هي دون اغترارها ، أو تهوين لها ، وتجعلها مرهوبة الجانب ، مرفوعة الرأس ، عزيزة المثال .

إن السمة الأولى للجماعة التي ينشدها الإسلام أنها جماعة مؤمنة ، تؤمن بالله ورسوله وبما جاء عنه : تستجيب لربها : وتتوكل عليه ، وتسلم وجهها إليه ، قال الله تعالى : ﴿ هو آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ،

والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴿ ١ ﴾ .

إنها الجماعة التي تؤلف بين قلوبها ، وتجمع بينها رابطة الإيمان بالله والاهتداء بهديه ، والاعتصام بحبله ، والتسابق في مرضاته ، والتعاون على منافع الدنيا والدين ، والعاجلة والآجلة ، يقول الله سبحانه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض : يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتُونَ الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ ^(١) . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ ^(٢) .

إنها الجماعة التي يحكمها العدل والإنصاف ، وتنبذ الجور والاعتساف يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ ^(٣) .

إنها الجماعة التي لا يصرفها يومها عن غدها ، ولا أولها عن آخرها ، بل إنها تعمل للآخرة ، وتراقب الخالق ، وترجو رحمته وتخاف نقمته ، وتؤمل عطاءه في العاجلة والآخرة ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا

(١) سورة البقرة : ٢٨٥

(٢) سورة التوبة : ٧١

(٣) سورة آل عمران : ١٠٢ ، ١٠٣

(٤) سورة النساء : ١٣٥

لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول : رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خير بما تعملون ﴿ ١ ﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ؟ يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) .

إنها الجماعة التي تؤمن بأنها مسئولة ومحاسبة بين يدي ربها وولي نعمتها ، قبل أن يكون أعضاؤها مسئولين أمام الرؤساء والقوانين .

إنها الجماعة التي يقودها خيارها ، ويتولى أمرها حكماؤها وعلماؤها .
إنها الجماعة التي يأمن فيها كل فرد على نفسه وأهله وماله وورقه وعرضه ، ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ (٣) .

إنها الجماعة التي تتواصى بالخير والحق ، وتتعاون على البر والتقوى وتتناصر على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الصفات ، يقول سبحانه : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ﴾ (٤) . ويقول ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا

(١) سورة المائدة : ١١٩

(٢) سورة النور : ٥٥

(٣) سورة قريش : ٤ ، ٣

(٤) سورة العنكبوت : ٢٤

يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ﴿ ١١ ﴾ .

إنها الجماعة التي تستعذب الجهاد في سبيل الله ، وتقدم النفس والنفس والأهل والولد ابتغاء مرضاة الله ، ورفعاً لدينه ، وإعلاء لكلمته ، ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة : يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ .

إنها الجماعة التي اصطفاها الله لرسالته ، وخصها بكرامته ، وأسبغ عليها العطاء ، وأجزل لها النوال ، فشعرت بمنة الله عليها وفضله ، وإحسانه وجوده ، فشكرت أنعمه بحسن السمع والطاعة ، وكريم الأدب والإجابة فارتقت إلى منصب العدالة ، وتسمنت درجة الشهادة ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ .

وهذه الجماعة ليست خيالا ، ولا شيئا محالا ، وإنما ظهرت إلى عالم الواقع في العصر النبوي الكريم وعصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ولهذا فقد أثنى الله عليهم في كتابه ، ورفع أقدارهم بين عباده وأحبابه فقال : ﴿ كتتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

(١) سورة المائدة : ٧٨ ، ٧٩

(٢) سورة التوبة : ١١١

(٣) سورة الحج : ٧٨

عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴿ ١ ﴾ .

وأشار إلى ماسيكون لهذه الأمة من رفعة طالما كانت مؤمنة برها ، متمسكة بكتابه ، مستضيئة بنوره ، فقال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا : يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ (٢) .

وعن صلاح النفوس واستقامتها بالإسلام وشعائره ، وعباداته ، عبر الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب أفضل تعبير ، فبين : ما كان عليه الناس في الجاهلية من فساد في العقيدة ، وضلال عن الإيمان ، وانحراف في المعاملات ، وشذوذ في نواح كثيرة من الحياة ، ثم ما أحدثه الإسلام من صلاح في العقيدة ، واستقامة في الأخلاق ، ومساواة في الخيرات وعزوف عن القبائح ، وإرعاء عن المفسد والموبقات ، حتى استحقوا من الله أحسن الثناء ، وأجزل العطاء .

قال رضي الله عنه - أمام النجاشي : ملك الحبشة : عندما سأله عن هذا الدين الذي فارق فيه قومه ولم يدخل به في دينه ولا في دين أحد من الناس ؟ : (أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ونأكل القوي منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا لتوحيد الله وأن لا نشرك به شيئا ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام .

(١) سورة آل عمران : ١١٠

(٢) سورة التور : ٥٥

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام . . .) وعدد عليه أمور الاسلام .

قال جعفر : (فآمنّا به وصدقناه وحرّمنا ما حرم علينا ، وحلّلنا ما أحلّ لنا ، فعمدّا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا في ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك ، على من سواك ، ورجونا أن لا نظلم عندك) .^(١)

وهذه السمائل الطيبة ، والأخلاق الفاضلة التي حث عليها الدين ، وأوصى بها جماعة المسلمين ، والتي من شأنها أنها تزيد المسلمين تماسكا ، وتربطهم ، وتراحما ومودة ، وتثمر لهم القوة ، والعزة ، والمنعة ، وتجعلهم كما كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ، هذه الأخلاق إن كان الدين الحنيف قد أمر بها ، وأبرز آثارها ، وأشار إلى بركاتها وثمراتها . وبين : ما ينطوي عليه الإعراض عنها والتهاون بها من شرور وآثام في نحو قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾^(٢) . ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾^(٣) . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ،

(١) قال الشيخ محمد ناصر الدين : أخرج هذه القصة ابن اسحاق في المغازي (١١/١ - ٢١٣ من ابن هشام) وأحمد (رقم ١٧٤٠) من طريق ابن اسحاق بسند صحيح من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ . (فقه السيرة للشيخ محمد النزال) . . .

(٢) سورة النحل : ٩٠

(٣) سورة الحجرات : ١٠ .

وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته
لعلكم تهتدون ﴿^(١)﴾ . وفي نحو قول الرسول ﷺ : (إن الله أوحى إلى
أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد) ﴿^(٢)﴾ .
« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص
ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام
من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » ﴿^(٣)﴾ .

« الدين النصيحة »

قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين
وعامتهم » . ﴿^(٤)﴾

« أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » ﴿^(٥)﴾

« إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على
العنف ، وما لا يعطي على شيء سواه » . ﴿^(٦)﴾

« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند
الغضب » ﴿^(٧)﴾ « أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم
رفيق القلب . لكسل ذى قربى ومسلم ، وعفيف ذو عيال » ﴿^(٨)﴾ .
« لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » ﴿^(٩)﴾ .

نقول : إن هذه الأخلاق الكريمة التى يصلح بها الفرد ، وتقوى بها

(١) سورة آل عمران : ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه الترمذى .

(٦) رواه مسلم .

(٧) متفق عليه .

(٨) رواه مسلم .

(٩) رواه مسلم .

الجماعات ، وتسعد بها الأمم إن كان الله قد أمرها في محكم كتابه وعلى لسان خاتم أنبيائه ورسله - عليه الصلاة والسلام - فإن هذه العبادات المتنوعة التي شرعها هي التي تغذيها وتنميها وتثبتها ، وتمدها بمدد قوى لا ينفد من التذكير بها ، والترغيب فيها .

ولقد مر بنا في مناسبات سابقة ما تثمره العبادات في النفوس من فضائل ومكarm ، وما تورثه للقلوب من خشية وتقى ، وما ترقىهم إليه من صفاء وإشراق ، وما تمدهم به من عزائم قوية وبصائر نافذة يستجيبون بها لأمر ربهم ، ويسارعون بها في مرضاته ، ويقفون بها عند حدوده ، ويجاهدون بها في سبيله ، فلانعود إلى القول فيه ، وإنما هي لمحات نوردها بمناسبة هذا المقام الذي نتكلم فيه ، وهو أثر العبادة في صلاح الجماعة لبيان وإبراز الأثر الاجتماعي الذي تحققه بقدر ما يتسع له المجال ، وهما هي ذى بعض العبادات نسوقها مع ما يتصل بها من شعائر لنكشف عما فيها من خير للجماعة في دينها ودنياها ، وأولها وآخرها ، وعن دورها في بناء الفضائل الإيمانية وتقوية الروابط الاجتماعية ، والسمو بأهداف الجماعة وغاياتها والسير بها إلى معارج الكمال .

الصلاة

الصلاة هي الفريضة الأولى بعد الإيمان بالله ورسوله وما بحث به ، وهي عماد الدين ، ومكانتها في الدين ، ومنزلتها بين أركانها وشعائره أوضح وأظهر من أن تحتاج إلى بيان ، فمن وفق إليها ، وأعين عليها ، فهو الموفق السعيد ، ومن حرم منها فهو الشقى البعيد . وإذا تحدثنا عن الصلاة وبركاتها وثمراتها فإننا نريد بها الصلاة التي يخشع فيها الفؤاد ، ويطمئن بها القلب ، ويرقى بها المؤمن إلى الخلق الحميد ، والمسلك السديد .

ومثل هذه الصلاة التي يخشع فيها صاحبها ، ويحافظ على روحها

وأدائها لا يقتصر دورها على أجر يثاب عليه المؤمن ، وعذاب ينجو منه ، وإنما تحفظه وتنقى عنه الشرك الظاهر والخفى ، وتعود به إلى صفوف المتواضعين إن كان فيه شئ من الكبر ، وترقى به إلى درجة الأعزاء إن كان فيه شئ من الذلة والخنوع .

فالحاكم والمحكوم ، والرئيس والمرعوس ، وأصحاب الثروة والقوة والنفوذ والسلطان والذين ليس لهم من ذلك شئ : كل هؤلاء متساوون في الوقوف بين يدي الله ، والإقبال عليه ، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بمقدار ما في قلبه من تقوى ، وما تثمره هذه التقوى من خيرات ، وما تحجز عنه من موبقات ، فكل أعمال الصلاة وسائر تلاوتها وأذكارها ترجع الأمر كله لله : يقف العباد بين يدي ربهم مؤتمنين بإمام واحد كأنهم بنيان مرصوص ، يعلنون ، ويهتفون : الله أكبر ، وإنها لنعم الكلمة تفتح بها تلك العبادة السامية : إنها إعلان بأن الله أكبر من كل شئ : إنه أكبر من سائر الخلق ، وإن جلّت مناصبهم وتعاضل نفوذهم ، واشتدت سطوتهم : إنها نفى لكبر المتكبرين ، وذل الأذلاء وإعادة للأمر كله إلى من يملكه وهو رب الأرض والسماء : إنها نفى للخوف والتردد ، وإبعاد لشبح الهلع والفرع ، والجبن والخور ، نعم الكلمة شعارا للجنود الظافرين ، وسلاحاً وضعه الله في أيدي الغالبيين .

ثم إنهم يتوجهون إلى ربهم قائلين : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، فلانعمة على الحقيقة إلا من الله ، ولا بقاء لها إلا به ، ولا بركة لها إلا بتوفيقه ، فلا رب غيره ، ولا حمد لسواه .

وإنهم يقولون كذلك : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ لا عبادة لغير الله ، ولا استعانة بسواه ، فهو الحقيق بالعبادة ، الجدير بأن يستعان به ، ويتوكل عليه ، إذ الأمور كلها بيده ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ . (١)

ثم إنهم يدعون ربهم قائلين : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إن هذا الطلب إذا صدق فيه قائله فلا بد أن يؤتاه ، ويعان على أسبابه . وصدق التوجه معونة وتوفيق ، وفوز وفلاح ، وحاشا لله أن يتوجه إليه عباده مخلصين ، ويردهم خائبين .

ثم إن الصلاة بركوعها وسجودها ، وقيامها وقعودها تعويد للنفس على طاعة الله فيها أمر ونهى ، وإن لم تدرك معناه ، ولم تحط بسره ومغزاه ، وهى كذلك تعظيم للمولى القدير ، وتذكر لنعمه ، وتعرف إليه ، وإلى شريعته ، واستمطار لعطائه ، ومحبة ومواصلة بين عبادة السابقين واللاحقين وموالة لأوليائه ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وأزمانهم وأجناسهم .

لذلك كان المؤمنون الذين يحققون الحِكَمَ التى يمكن أن ثمرها هذه الصلاة من أكثر النيات إخلاصا ، وأرسخهم يقينا وأفضلهم إيمانا ، وأكرمهم أخلاقا ، وأعزهم جانبا ، وأجرئهم على كلمة الحق ، وأكثرهم تعاوناً على البر والتقوى ، وأبعدهم عن التعاون على الإثم والعدوان .

لقد هيا الله سبحانه بتشريع وحكمته للصلاة جوا طيبا من الإجلال والتعظيم ، والخشوع والركة ، والوقار والسكينة ، والتعاون والاجتماع .

* الأذان : فشرع للدعوة إليها ، والجمع عليها نداء لم تتجل فيه مقاصد الصلاة ومعانيها فحسب ، بل تجلت فيه كذلك مقاصد الإسلام ، وشعار التوحيد ، وروح الدين بوضوح وبلاغ وإيجاز ، أصبح بها هذا النداء الذى يرفع به المؤذن صوته من مكان عال خمس مرات كل يوم دعوة

(١) سورة فاطر : ٢

مركزة إلى الإسلام تعريفاً بمقاصده وتعليقاته ، قد يؤثر في نفوس كثير من الناس ، فيشرح صدورهم للإسلام ، وليس لهذا النداء الذي يجمع بين الجمال والبساطة نظير في أساليب الدعوة والإعلام بالعبادات والديانات الأخرى : إنه النداء الديني الوحيد الذي ابتعد عن كل مظهر خارجي ، وعن استعانة بالآلات والإغراءات ، وجاء فيه لباب الدين وخلاصته .

* إنه يضم الإعلان بعظمة الله وكبريائه ، وأنه أكبر من كل كبير ، ويضم الشهادتين : شهادة « أن لا إله إلا الله » وشهادة « أن محمداً رسول الله » ، ثم الدعوة إلى الصلاة وحضورها في جماعة في المسجد ، ثم الإخبار بأنها وسيلة الفلاح في الدنيا والآخرة ، وأنه لافلاح بدونها ، فأصبح بذلك كله كلمة جامعة ، ودعوة كاملة ، ونداء بليغاً ، يخاطب العقل والقلب ، ويلفت المسلم وغير المسلم ، وينشط الكسلان ، وينبه الغافل .

يقول حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي رحمه الله :
واقترضت الحكمة الإلهية أن لا يكون الأذان صوت إعلام ، وتنبيه بل يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رؤوس الخامل والنبه ، تنويهاً بالدين ، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله ، فوجب أن يكون مركباً من ذكر الله ومن الشهادتين ، والدعوة إلى الله ليكون مصرحاً بما أريد به ^(١) .

* شرع الله للصلاة الطهارة الكاملة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ

(١) الأركان الأربعة لأبي الحسن النعماني ص ٥١ ، ٥٢

الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم
لعلكم تشكرون ﴿١﴾ .

وذلك لأن الطهارة إذا كانت منبعثة عن إيمان بالله وتصديق بوعدِهِ
وإبتغاء لمرضاته ، فإنها توقف النفس من سيئاتها وتنبيهها من غفلتها ، وتورثها
مزيد اهتمام ، وتبيئها لمناجاة الله ، واستقبال الصلاة وما فيها من ذكر ودعاء
وتضرع ومناجاة ، ونور وسكينة أكرم استقبال .

* وفرض الله للصلاة الطهارة الباطنة كذلك بالإقبال على الله فيها ،
والإعراض عن الدنيا وفتنتها ، والتوجه الكامل للذى خلق فسوى وقدر
فهدى ، فكانت النية ، وكان الإحرام ، ثم كانت تلاوة فاتحة الكتاب بما
فيها من حمد لله ، وثناء عليه ، واستمداد منه ، واستعانة به ، وطلب
لهدايته ، وتفويض تام له .

* ثم أقيمت لها المساجد : تلك البيوت التى أذن الله : أن ترفع
ويذكر فيها اسمه ، والتى يتجلى فيها الوقار ، والسكينة ، والخشوع ،
والخضوع ، مهبط الرحمت ، وملتقى الصالحين ، وموضع نظر الله فى
أرضه : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو
والأصباح ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء
الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ (١) .

لقد كانت هذه المساجد مركز حياة المسلمين وتعلمهم ودراستهم ،
ومصدر الإصلاح والتوجيه : تعالج فيها قضايا المسلمين الدينية ،
والاجتماعية ، ويعرفون فى ساحاتها كل ما يرفع من شأنهم فى حياتهم ،
ويكتب لهم السعادة بعد مماتهم ، وكان رسول الله - ﷺ إذا حدث حدث

(١) سورة المائدة : ٦

(٢) سورة التور : ٣٦ ، ٣٧

أو نزل بالمسلمين أمر وكانوا في حاجة إلى توجيه جديد أمر أن ينادى في الناس : (الصلاة جامعة) ، فيفضي إليهم بالنصح والتذكير ويعلمهم الكتاب والحكمة ويصبرهم بما يصلح من حالهم ، ويوقظ من قلوبهم ، ويشد من عزائمهم .

وظلت المساجد هكذا ، تؤدي رسالتها العظيمة في خدمة الإسلام بدعم وحدة المسلمين ، فكانت القطب الذي تدور حوله رحي الحياة ، تنفجر فيها ينابيع العلم والهداية ، وتنبثق منها أنوار الإصلاح والإرشاد ، وتنطلق منها موجات الكفاح والجهاد ، ولا يزال المسجد على الرغم مما عرا المسلمين من بعد عنه وعن روحه وتأثيره يؤدي دوره الذي لا ينكره إلا مكابر أو جاحد ، ولا بد لنهضة المسلمين ورفعتهم التي يرجونها أن تعود إلى هذه المساجد جلالتها وروعيتها التي كانت لها من قبل ، وتصبح المركز الأول للتوجيه والإرشاد والشورى في الحياة ، فإن العودة إليها عودة إلى الله ، واهتداء لسييله ، واستشعار لرقابته ، واستمداد من فضله ، واستعانة صادقة به .

والمساجد تتجلى فيها عظمة الله وحده ، فلا عظمة فيها لمخلوق ، ولا اختصاص لعظيم أو كبير ، ولا فضل لذي حسب أو نسب ، وهو مكان مشاع يتساوى فيه الناس جميعا الحر منهم والعبد ، والحاكم والمحكوم ، والغنى والفقر ، يذكرهم بقول الحق في كتابه العزيز : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾^(١)

* وشرع الله الجماعة للصلاة ، وأبان الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن فضلها ، فقال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع

(١) سورة الحجرات : ١٣

وعشرين درجة»^(١) . وقال : « صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسا وعشرين ضعفا ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تنزل الملائكة تصلى عليه ما لم يحدث ، تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة »^(٢) .

وقد توعد النبي - ﷺ - على تركها ، والتخلف عنها ، وأشار إلى أن ذلك من سمات النفاق ، فقال : « والذي نفسى بيده لقد هممت أن أمر بحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم أمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم »^(٣) . وبين أنه ما يتركها جماعة إلا من استحواذ الشيطان عليهم ، وتمكنه منهم ، فقال : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الجماعة إلا قد استحواذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فإنها يأكل الدُّب من الغنم القاصية »^(٤) .

وحدث أصحابه رضى الله عنهم - على الجماعة وحذر من تركها أو التهاون بها ، وبين : أن في الحرص عليها الهداية ، وفي الإعراض عنها الضلالة ، يقول ابن مسعود رضى الله عنه : (من سره أن يلقي الله تعالى مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبييكم ﷺ - سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصل هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد

(١) متفق عليه

(٢) متفق عليه

(٣) رواه الشيخان

(٤) رواه أبو داود

كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف (١) .

وفى هذه الجماعة حكم جليلة ، ومصالح جمة : بعضها اجتماعى ،
وخلقى : كالوحدة والاجتماع ، والتعارف ، والتعاون تحت راية الدين ،
وفى ظل رقابة رب العالمين .

وبعضها دينى أخروى : كالمحافظة على الصلوات ، والتنافس فى
إحسانها وإتقانها والاستكثار منها ، وإصلاح ما لعله يطرأ عليها من فساد
أو خلل عند الانفراد ، ومعرفة ما فات من : أحكامها وآدابها ، وأذكارها
وقراءتها ، والتأسى بالعلماء العاملين ، والفقهاء المخلصين ، والعباد
المخبتين ، ومنها : أن إخلاص المخلصين وإخبات المخبتين وخشوع
الخاشعين يؤثر فى الجماعة كلها ، ويسرى نوره من خلالها ؛ فيوقظ النفوس
الخاملة ، ويحرك الهمم القاترة ، وقد يكون سببا فى قبول عبادة الجميع ،
وجبر ما فيها من نقص وخلل ، وإكرام الله بعض الناس ببعض أمر تفره
قواعد الشريعة ، ويشهد به قول الرسول - ﷺ - فى الحديث المشهور :
« هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (٢) .

نعم إن لاجتماع المسلمين راغبين راغبين خائفين طامعين سرا عجبيا
فى نزول البركات وتدفق الرحمت ، وهذا هو السر فى دعاء الاستسقاء
وجماعتها وفى جمع الحج ، وقد كان رسول الله - ﷺ - شديد الاهتمام بتسوية
الصفوف ، كثير الترغيب فى إقامتها ، ووصلها ، وسد خللها شديد الإنكار
على الإخلال بها والتفريط فيها ، ذلك لأن فوائد الجماعة لا تتحقق ولا
تكتمل إلا بالمحافظة عليها وقيام المسلمين فيها كالبنيان المرصوص ، ولأن
الصلوة والجماعة تربية للحياة كلها ، فمن لم يحسن القيام بها لم يحسن شيئا
من عمل الدنيا أو الآخرة . .

(١) رواه مسلم

(٢) جزء من حديث قدس طويل رواه البخارى وغيره

* وشرع الله صلاة الجمعة واختصها بشروط وآداب : تزيد في جلالها ، وترفع من شأنها ، وتورث مزيدا من الاهتمام بها ، وتعين على النفع بها في عبادة الله والتعرف عليه ، والتقرب إليه ، وتذكر هديه والانتصاح بنصائحه ، وجمع شمل المسلمين تحت راية الدين ، وهيمنة رب العالمين .
يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

وفي الحديث الشريف : « ليتتهين أقوام عن ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » ^(٢) .

وفي الحديث كذلك : « من ترك ثلاث جمع تهاونا بها طبع الله على قلبه » ^(٣) . وفيه كذلك : « لقد هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ رَجُلًا لِيَصَلِّيَ بِالنَّاسِ ثُمَّ أَحْرَقَ عَلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ بَيْوتَهُمْ » ^(٤) .

* وشرع الله في يوم الجمعة : الاغتسال ، واستعمال السواك ، والتطيب ، والنظافة ، التامة ، وبين ما يترتب على ذلك من عطاء أخرى إلى جانب ما نلّمسه من أثر صحى ، واجتماعى .

فقال - صلوات الله وسلامه عليه - : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ، ويدهن من دهنه ، أو يمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » ^(٥) .
ويشير قوله - عليه الصلاة والسلام - : « فلا يفرق بين اثنين » إلى أن

(١) سورة الجمعة : ٩

(٢) رواه مسلم

(٣) أصحاب السنن

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه البخارى

صاحب هذا الفضل قد بكر إلى الجمعة بحيث لا يحتاج إلى أن يفرق بين اثنين بالمرور ، أو الصلاة ، وذلك ما صرح به حديث آخر . قال عليه الصلاة والسلام : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنبات ، ثم راح في الساعة الأولى فكأنها قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنها قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنها قرب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنها قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنها قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » ^(١) .

وما منا من أحد إلا وهو محتاج إلى يوم تتحرك فيه همته ويتفرغ فيه قلبه لعبادة الله والتقرب إليه وجلاء القلب وصقله فيسرى نوره في سائر الأيام ، ويمتد بإشراقه سرا سارياً في الشهور والأعوام ، ولقد كان ذلك يوم الجمعة في الأسبوع ، وليلة القدر في رمضان ورمضان في سائر الشهور : (إنه اليوم الذي يستحب التفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام ميزة بأنواع العبادات واجبة ، ومستحبة وقد جعل الله لأهل كل ملة يوماً يتفرغون للعبادة ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا فيوم الجمعة يوم عبادة ، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان ، ولهذا من صبح له يوم الجمعة وسلم سلمت له سائر جمعه ، ومن صبح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته ، ومن صحت له حجته وسلمت صبح له سائر عمله ، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع ، ورمضان ميزان العام والحج ميزان العمر وبالله التوفيق) ^(٢) .

لقد أكرمنا الله تعالى معشر المسلمين وخصنا بهذا اليوم العظيم وهو يوم الجمعة وهدانا إليه بعد أن ضل عنه من قبلنا من اليهود والنصارى يقول النبي ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب

(١) رواه الشيخان

(٢) زاد المعاد : ١٠٦/١

من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلقوا فيه فهدانا الله له ،
فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد » (١) .

وعن فضل يوم الجمعة يقول النبى - ﷺ - : « خير يوم طلعت فيه
الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج
منها » (٢) . وقال : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا على من
الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على »

قالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟
قال : يقول بليت ، قال : « إن الله حرم على الأرض أجساد
الأنبياء » (٣) .

* وقد شرع الله كذلك للمسلمين صلاة العيدين : عيد الفطر ،
وعيد الأضحى .

يأتى عيد الفطر بعد شهر كامل يقضيه المسلمون بين الصيام والقيام ،
والتلاوة والذكر ، والبر والرحمة ، لقد جعله الله ميقاتا للعطاء والتشرف
بضيافة الله .

وأما عيد الأضحى : فإنه يأتى فى آخر عشر ذى الحجة وهى أيام لها
فضلها ، ومزيتها ، وفيها ذكريات جليلة توقظ المشاعر ، وتبعث الهمم :
إنها ذكريات إبراهيم ، وإسماعيل ، ومحمد - عليهم جميعا الصلاة
والسلام .

وإذا كانت الأعياد فى الشعوب والأمم وعند سائر الملل والنحل مواسم
تحرر وانطلاق ، ومناسبات للذة وتمتع ، واتسمت عند أهلها بخلع العزار ،
وطرح أردية الحشمة والوقار ، والإسراف فى اللهو والتسلية ، حتى أصبحت

(١) رواه البخارى :

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

بعيدة كل البعد ، تتناقض أشد التناقض مع العبادات ومفهومها ، فإن هذين العيدين عند المسلمين الذين شرعا في الإسلام يختلفان عما عهده الناس وتوارثوه في أمر الأعياد ، إنها عيدان يبدأان بالصلاة لله رب العالمين بشعار : هو التكبير لدى الذهاب إلى الصلاة وفي انتظارها ، وفي الخطبة بعدها .

ثم صدقة الفطر قبل صلاة العيد لإحراز فضيلتها ثم الأضحية بعد الصلاة ، وقد شرع في هذين العيدين الصلاة بالمصل خارج البلد إظهاراً لشوكة المسلمين وكتباً لعدوهم ، وغياً لِسَانِيَهُمْ ، وتكثيراً لجمعهم ليعظم لهم العطاء .

لقد كان للجمعة والجماعة ومحافظة المسلمين عليها في الأمصار ، والأقطار فضل كبير في حفظ هذا الدين ، وسلامة الشريعة الإسلامية والأوضاع الدينية ، وبقائها على ما تركها عليه رسول الله ﷺ - وأصحابه ، وبعدها عن تحريف المحرفين ، وعبث العابثين ، فلو كان المسلمون - أعاذهم الله من ذلك - تركوا الجمعة ، والجماعة ، وانفردوا بعبادتهم ، وصلواتهم في بيوتهم وقاموا بها منفردين منعزلين ، موزعين مشتتين ، لحرفت هذه الصلوات ومسخت مسخاً كبيراً أفقدها أصالتها ووضعها الأول ، وتنوع المسلمون فيها وصاروا فرقا وأقساماً كما في كثير من مظاهر حياتهم المدنية ، وآدابهم الاجتماعية ، وكان للصلاة أنماط ونماذج محلية وفردية ، كما هو حاصل لدى اليهود والنصارى ، لقد كانت هذه الجماعة عاملاً كبيراً من عوامل وحدة المسلمين في العبادات ، وعاصماً لإحكام الدين من التحريف

ولقد بلغ اهتمام الإسلام بالجماعة : أنه رغب في إقامتها ، والحرص عليها حتى في أوقات المحن ، والشدائد حين يلقي المسلمون عدوهم ، ويواجهون خصمهم ، لأن الصلاة في ذاتها سبب المعونة الربانية ، ومصدر الإصلاح الإلهي ، ومنبع العطاء العاجل والآجل . قال سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(١) .

ولأن في إقامتها مع الجماعة مزيداً من العون والعطاء تتضاعف به بركاتها وتكثر به خيراتها ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ^(٢)

ولم تجز الشريعة الإسلامية ترك الصلاة أو تأخيرها عن ميقاتها في أمن أو خوف ، شدة أورخاء ، صحة ، أو مرض ، سفرًا وإقامة ، إلا أنه قد جعل لكل حالة من الحالات وضعاً خاصاً يتلاءم مع تلك الحالة ، يتحقق به التيسير ورفع الحرج الذي أكرم الله به هذه الأمة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) .

٢ . الصدقات والنفقات :

لعل من نافلة الحديث أن نقول : إن المال مهم غاية الأهمية للأفراد والجماعات وأنه قوام الحياة وأساسها ، وعليه تقوم النهضة ، وتتقدم الحضارات ، وبه صيانة الحرمه ، وقوة الشوكه ، والعزة والمنعة ، فذلك أمر

(١) سورة البقرة : ١٥٣

(٢) سورة النساء : ١٠٢

(٣) سورة البقرة : ٢٣٨ ، ٢٣٩

واضح لا يحتاج إلى بيان . ويكفى أن يصفه القرآن الكريم بأنه قيام الحياة ، وينصح بالتوسط فيه إن ملكه المرء فلا يسرف حتى يقف عاجزا عن التصرف ، ولا يقتر حتى يتعرض للسخط والملامة . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ ^(١) . ويقول : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ ^(٢) .

ويشئ على فريق من عباده بالتوسط في النفقة بين الإسراف والتقتير فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ^(٣) .

ولما كانت للمال هذه الأهمية في إعداد العدة ، واتخاذ الأهبة في درء الأخطار ، واتقاء الأضرار ، وجهاد الكفار كان الجهاد بالمال مقدما في القرآن الحكيم على الجهاد بالنفس . قال الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ، تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ ، وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) .

وكان للنفقة في سبيل الله امتيازها عن الإنفاق في الوجوه الأخرى بزيادة أجرها ، وكثرة أضعافها ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ ، فِي كُلِّ صَنْبُلَةٍ مِائَةٌ

(١) سورة النساء : ٥

(٢) سورة الإسراء : ٢٩

(٣) سورة الفرقان : ٦٧

(٤) سورة الصف : ١٠ - ١٣

حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ﴿^(١)﴾

ثم لما كان للمال الأهمية البالغة في دفع الحاجات ، وتفريج الكروب بإطعام الجائع ، وكسوة العارى ، وفك ضائقة المحتاج فإن الله أوصى بالبذل في هذه الوجوه ، وفرض من ذلك نصيباً معلوماً في أموال الأغنياء يرد على الفقراء ، وسمى ذلك زكاة تارة ، وصدقة تارة ، مشيراً بهذه الأسماء إلى أمور اتسم بها البذل والإنفاق في الإسلام ، فقد سماها الله زكاة ، لأن الزكاة لغة : التطهير والنماء .

وهذا الجزء القليل الذى يبذله المؤمن الغنى من ماله يظهر صاحبه من الرذائل : من رذائل الشح ، والبخل وقلة المبالاة بالناس ، وعدم الاهتمام بهم ، ثم يحليه بطائفة من الفضائل كالسخاء ، والإيثار وحب الخير للناس ، ورعاية المجتمع ، ويظهر المال كذلك ، وينميه ، ويجعله مباركاً طيباً ، ولا تمتد إليه أيدي السراق والخونة ، ولا يسطوبه الظلمة والمجرمون ، قال الله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم ﴾ ^(٢) .

وسماه الله صدقة ، لأن بذل المال لله ، وابتغاء مرضاته دليل الإيمان وآية اليقين ، وأمانة التصديق ، قال النبي ﷺ : « والصدقة برهان » نعم إنها برهان ساطع ، ودليل قاطع على إيمان صاحبها بالله وأن المال ماله هو المعطى أولاً والمستخلف ، ثم هو الآخذ الوارث ، ثم هو الميثب على البذل والإنفاق ، المعاقب على البخل والتقتير ﴿ آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ، ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله ، والله ميراث السموات والأرض ، لا يستوى منكم

(١) سورة البقرة : ٢٦١

(٢) سورة التوبة : ١٠٣

من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ، من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم ، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم ﴿^(١)﴾

والصدقات فى الإسلام تقوم بوظائف شتى ، وكلها تخدم الأغراض السامية ، والأهداف النبيلة التى أوصى بها الدين ، وبشر بها سيد المرسلين ، ولهذا فقد كان القرآن الحكيم حريصاً على بيان مصارفها بياناً قاطعاً حتى لا تتجاوز الأهداف التى توجهاها الإسلام ، وحتى لا تتسرب إلى أيدي الأغنياء ، والكهنة ، وبعض ذوى الحسب والنسب كما آل إليه الحال بالنسبة للديانة اليهودية ، إذ آل كثير من أموال الصدقات إلى الأحرار والرهبان ، وذوى الأحساب ، والأنساب ، وحرّم منها فى كثير من الأحيان من هم فى أشد الحاجة إليها من الفقراء والمساكين ، ففسد حال هؤلاء ، وحال هؤلاء ، فساداً اقتصادياً وفساداً اجتماعياً لئلا يصدد شره والكشف عنه ، فإنه قد يعرف ببيان ما أثره الإسلام فى قصر إعطاء الصدقات لفئات بعينها دون ماعداها .

قال الله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم ﴾ ^(٢)

فلا ينبغى أن تخرج الصدقات فى الإسلام عن هذه الأصناف الثمانية ، ولئلا الآن بصدد تفصيل القول عن كل صنف من هذه الأصناف ، فقد تكلفت كتب الفقه ببيان ذلك وأفاضت فيه إفاضة لا مزيد عليها .

(١) سورة الحديد : ٧ - ١٢

(٢) سورة التوبة : ٦٠

وإنما الذى نريد أن ننبه إليه : ما ينطوى عليه نظام الصدقة من تكافل اجتماعى بين المجتمع الإسلامى بمواساة الغنى للفقير والمسكين ، ومراعاة المجتمع للذين يتفرغون لشئون المجتمع ، وإعانتهم على القيام بما ندبوا إليه من ذلك خير قيام .

ثم إعطاء المؤلف قلوبهم ، وهم الذين دخلوا فى الدين ، ولم يتمكن من نفوسهم التمكن الكامل ، ولا زالوا يعبدون الله على حرف ، وذلك لتشرح للإسلام صدورهم ، وتقربه أعينهم ، وذلك مثل الطفل تمنحه قطعة من الحلوى مقابل استذكار درس ، أو إقامة صلاة ، فإذا مرن على ذلك ، وعرف فائدته ، وذاق حلاوته ولذته كان قيامه بواجبه دينياً أو دنيوياً أحب إليه من كل شيء .

ثم يعطى المكاتبون ؛ لا ستخلاص رقابهم ، وشراء حريتهم من سادتهم ، وفى هذا أكبر دليل على أن الإسلام تواق إلى الحرية معين عليها ، مرغب فى منحها .

ثم من أحاطت به المغارم والديون جعل الله له فى ذلك المال نصيباً يسدد به دينه ، ويستأنف به حياته ، حتى يعود عضواً نافعا ، وإنساناً صالحاً .

أما ابن السبيل : وهو المسافر الذى نفذ ماله أوضاع فينبغى أن يعان من هذه الصدقات حتى يبلغ أهله ، فإنه فى هذه الحالة أخو الفقير والمسكين ، وإن كان فى بلده غنياً ، والله على كل حال فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

أما الإتفاق فى سبيل الله فهو قمة الإتفاق ، والصدقة عليه من أفضل الصدقات ، وقد مرت بنا آيات كريمة فى ذلك تبين أن الجهاد بالمال سابق ومقدم على الجهاد بالنفس ، وأنه سبب فى العطاء العظيم والأجر الوافر ، والنبي ﷺ يقول وهو المبلغ عن ربه والناطق بوجهه ، والذي شهد له ربه

بأنه ﴿ ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ^(١) « من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا » ^(٢) .

إن الصدقات شرعت في الإسلام : سداً لحاجات الفقراء والمساكين ، وتفريحا لكروب المحتاجين ، وتثبيتا للإيمان في القلوب ، وتحريرا للرقاب من ذل الرق ، وإعزازا لدين الله ، والدفاع عن حرمة الإسلام .

وهذا هو أحد جوانب الصدقات ، وهو جانب العطاء .
أما ما يترتب عليه ويتبع عنه ، وهو الذي يطلق عليه الجانب الاجتماعي : فهو الوجه الآخر لتشريع الصدقات ، ونستطيع أن نبين :
الأثر الاجتماعي للصدقات حين نطرح السؤال الآتي :
ماذا يكون الحال لو بخل الأغنياء ، وشحوا بأموالهم على الفقراء ، والمحتاجين ، وعلى البذل في الوجوه الأخرى ؟

إن صورة المجتمع تصبح صورة مخيفة مفرغة ، فالفقراء والمحتاجون تمتلئ صدورهم بالأحقاد ، والضغائن ، وتفيض نفوسهم بالشر ، وتمتد أيديهم إلى هذه الأموال التي لم يحصلوا عليها طواعية ، ليستولوا عليها بوسائل أخرى ، يفسد بها نظام الحياة ، ويصبح المجتمع طوائف متناحرة ، تترصد كل منها للأخرى ، وتعدو الحياة جميعا لا يطاق .

ولقد يقول قائل : إن الدول والحكومات تقوم بفرض ضرائب وجبايات ، وتبذل معونات وصدقات ، ألا تسد هذه مسد الزكاة ؟ ألا تصلح عوضا عنها ؟

والجواب على ذلك : أن ما يفرضه البشر على البشر لا يمكن أن يرقى إلى ما شرع الله لعباده ، فإن ما يفرضه البشر فيه قصورهم وأهواؤهم ، وربما

(١) سورة النجم ٤٠٣

(٢) متفق عليه .

حمل ألوانا من التسلط والابتزاز ، ثم هو في أغلب الأحيان يوضع في غير موضعه ، ويوجه إلى غير مستحقه .

أما الزكاة التي شرعها الحكيم العليم لعباده فإن لها خصائص وسمات تميزها عما عداها من ضرائب مفروضة ، ومعونات مبدولة ، فمن أبرز هذه الخصائص أنها قربة لله عز وجل ، ولا بد أن يصحبها . النية ، والإخلاص ، والاحتساب لتكون مقبولة ، ولا شيء من ذلك يقصد في الضرائب ، بل إنها في الأعم الأغلب تكون مصحوبة بروح السخط والمقت ، والاستئصال والاستكثار ، لأن دافع هذه الضرائب لا يعتقد أنها مشروعة من الله ، ولا يرجو عليها أجرا ولا ثوابا ، بل يعتقد أنها مفروضة عليه من أفراد وربما أقل منه وأنها تنفق في كثير من الأحيان في الأهواء ، والشهوات احتفاظاً بسلطة ، أو لخدمة أفراد محدودين ، ثم لا يرافقها شيء من الترغيب في الإخلاف ، والجزاء ، أو الترهيب من النكول والبخل ، بل إنها كثيراً ما تؤدي تحت ضغط التهديد والتغريم ، التي تزيد دافعها كراهية وسخطا .

ولهذه الحكمة البالغة ، والتي لا تتأتى إلا فيما شرع من الله جاءت الزكاة في القرآن الكريم والسنة المطهرة مشفوعة بما يرغب في إخراجها بطيب نفس ، وصدق نية ، وكريم احتساب ، وذلك ببيان ما يترتب على إخراجها من نتائج ، وثمرات في الدنيا والآخرة ، من إخلاف ، وثواب ، ونمو ، وبركة .

يقول الله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢

ويقول : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ ^(١) .

ويقول النبي ﷺ : « من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ، ثم يريها لصاحبها كما يري أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » ^(٢) .

ويقول : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » ^(٣) ويقول : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط متفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » ^(٤) .

وينعى القرآن على أولئك الذين استولى الشح ، والحرص على نفوسهم فصاروا يعيشون في الحياة ولا هم لهم إلا الجمع والمنع : يأخذونه من غير حله ، ولا يضعونه في محله ، فويل لهم حين أخذوه ، وويل لهم حين يخلوا به ومنعوه ، وويل لمن سلك في الجمع والمنع مسلكهم . يقول الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنزتم تكنزون ﴾ ^(٥) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - له زبيبتان - يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ

(١) سورة الحديد : ١٨

(٢) متفق عليه

(٣) رواه مسلم

(٤) متفق عليه

(٥) سورة التوبة : ٣٤ ، ٣٥

بلهزمتيه - يعنى : شديقه - ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ثم تلا
﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون . . . الآية ﴾^(١) .

ومن هذه الخصائص : أنها تؤخذ من أغنياء الناس ، وترد على
فقرائهم ، فهي تؤخذ من الأغنياء الذين يستوفون شروط وجوبها ،
ويملكون النصاب الذى حددته الشريعة وتصرف فى مصارف عينها الله
سبحانه ، ولم يكل أمر تعيينها الى رأى حاكم أو عالم أو مشرع أو مقنن ،
ويرى كثير من الفقهاء ، وجوب صرفها فى المكان الذى وجبت فيه ،
وإنفاقها على فقراء البقعة التى تجبى فيها ، وهذا بخلاف هذه الضرائب ،
والمكوس فإنها تؤخذ من الجميع : من عرق الكاديين مثلما تؤخذ من فضول
الموسرين ، ثم إنها تنفق فى وجوه إذا وزنت بميزان الشريعة تبين أنه إذا كان
فيها الكريم المشروع ، ففيها الخبيث المنوع .

لقد كانت الزكاة الإسلامية بهذا التسوية الإلهى ترعى : جانب
الفقير ، ومصلحة الغنى كذلك ، فإذا كان المرء بالشهادتين يدخل فى
الإسلام ، فإنه بالصلاة قد أوفى بالجانب المهم فى عهده مع الله ، وتوثيق
صلته بالذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره وهو بالزكاة والصدقات يبدأ
عهدا جديدا مع إخوانه فى الدين ، وشركائه فى المجتمع : عهداً ترفرف عليه
رايات الحب ، ويغمره التعاون والتراحم . .

ومن هذه الخصائص أنها وسيلة لتقويم مؤديها ، ورفعها إلى مقام المراقبة
والإحسان وتحليته بالفضائل النفسية الرفيعة ، والكمالات السامية ، فإن
الصدقات لون من العبادة يحتاج فى قبولها لمراقبة الله ، والبعد عن الرياء
والمن وأذى المتصدق عليه حتى يظفر المتصدق بأجره موفورا غير منقوص .
وكم أثنى القرآن الكريم على المخلصين فى صدقاتهم ، وحذر من

(١) رواه البخارى

الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى كما حذر من الرياء ، وبين : أن كل ذلك مبطل للعمل ، محبط للصدقة فقال : ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حلیم ، يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ ^(١) .

وثناء الله على المتصدقين من أجله ، والبالذلين لأموالهم ابتغاء مرضاته ، وذكره لأوصافهم ومشاعرهم تدل على ما وصلوا إليه من سمو لا يداني ، ولا يمكن أن يحصل فيها يشرع البشر للبشر يقول الله سبحانه : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زهريرا ﴾ ^(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ والذين يؤتُونَ ما آتوا وقلوبهم وجلة : أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات ، وهم لها سابقون ﴾ ^(٣) .

٣ . الصيام

لانتقد أنه بوسعنا ولا بوسع بشر - مهما أوتى من علم ، ورزق من حكمة - أن يحيط علما بأسرار الله التي تضمنتها العبادات التي شرعها ،

(١) سورة البقرة : ٢٦٢ - ٢٦٤

(٢) سورة الانسان : ٨ - ١٣

(٣) سورة المؤمنون : ٦٠ ، ٦١

والشعائر التي وضعها ، ولولا أن الله بمنه وكرمه أوضح من ذلك جوانب ، وأشار إلى أخرى إيناسا للنفوس ، وجذباً للقلوب ما كان لبشر أن يخوض في ذلك ، أويتكلم فيه ، والتسليم معيار الإيثار وميزان الإخلاص ، وليس بمؤمن من خامر قلبه في شيء من شرع الله شك أو تردد أو شبهة أوربية ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ (١) .

وهذا الركن الذي نحن بصدد الحديث عنه وهو الصيام : له آثاره البعيدة المدى على النفوس ، وله فوائده المحققة على المجتمع ، في كافة جوانبه وأحواله ، ونود - هنا - أن نورد في ذلك كلام عالمين جليلين لها المكانة العالية ، والمنزلة السامية ، والتجربة والمعرفة ، والذوق والإحساس ، أما أولهما فهو حجة الإسلام أبو حامد الغزالي . يقول رحمه الله : المقصود من الصوم : التخلص بخلق من أخلاق الله عز وجل ، وهو الصمدية ، والافتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات ، بقدر الإمكان ، فإنهم منزهون عن الشهوات ، والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه ، وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين ، والتحق بغمار البهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين ، والتحق بأفق الملائكة (٢) .

أما الثاني فهو العلامة ابن القيم ، يقول رحمه الله : المقصود من الصيام : حبس النفس عن الشهوات ، وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية ؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها

(١) سورة النور ٥١ ، ٥٢ .

(٢) إحياء علوم الدين : ٢١٢/١ .

ونعيمها ، وقبول ما تزكوه مما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجارى الشيطان من العبد بتضييق مجارى الطعام والشراب ، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها فى معاشها ومعادها ، ويسكن كل عضو منها ، وكل قوة عن جماحه ، وتلجم بلجامه .

فهو لجام المتقين ، وحنة المحارسين ، ورياضة الأبرار المقربين ، وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، وحمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التى إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها .

فالصوم : يحفظ على القلب والجوارح صحتها ، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات ، فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) .

وقال النبى ﷺ : « الصوم جنة » وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح - وله قدرة عليه - بالصيام ، وجعله وجاء هذه الشهوة ، والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة ، والفتوة المستقيمة شرعه الله لعباده رحمة لهم وإحسانا إليهم وحمية وجنة ^(٢) .

إن الفضائل النفسية ، والفوائد الاجتماعية التى يشمرها الصوم أجل من أن تحصر ، وإذا كان الصوم يشمر التقوى وعفة النفس ، واستقامة الجوارح ويقتلة الضمير ، ورحمة القلب ، وخشية الرب فإن هذه الفضائل تنعكس على المجتمع كله ، وتنشر بركاتها عليه ، وقد أشار كلام الغزالي

(١) سورة البقرة ٨٣

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد : ١٥٢/١ .

وابن القيم إلى كثير من هذه الآثار ، ومعظمها مستقى إما من القرآن الكريم ، أو من كلام النبي ﷺ .

والتقوى التي جعلها الله غاية للصيام ، والجنة التي وصف بها النبي ﷺ الصوم يمكن أن يندرج تحتها كل ما أدركنا وما لم ندرك من حكم الصيام ، فليس للتقوى حد تقف عنده ، أو غاية تنتهي إليها ، وكذلك الجنة قد تكون من التقصير ، والمخالفات ، وقد يرقى بها صاحبها فتكون من الشبهات ، وقد يزداد رقىا فتصبح جنة من الغفلات والخطرات .

ويشير ابن القيم في موطن آخر من كتابه القيم : « زاد المعاد في هدى خير العباد » إلى لون آخر من بركات الصوم فيقول : لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفا على جمعيته على الله ولم شعثه ، بإقباله بالكلية على الله تعالى ، فإن شعث القلب لا يلزمه إلا الإقبال على الله تعالى ، وكان فضول الطعام والشراب ، وفضول مخالفة الآثام ، وفضول الكلام ، وفضول المنام ، مما يزيده شعثا ، ويشتته في كل واد يقطعه عن سيره إلى الله تعالى ، أو يضعفه أو يعوقه اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى ، وشرعه بقدر المصلحة ، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وآخره ، ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والأجلة ^(١) .

إن المجتمع الذي يستقيم على شريعة الصوم يكون مجتمعا قويا في عقيدته ، قويا في استجابته لأمر ربه ، قويا بتماسكه وتراحمه ، قويا بأخلاقه الكريمة ، وشائله النبيلة .

إنه مجتمع تسوده مراعاة أمر الله ، وأداء أمانته ، والغيرة على دينه تسوده

(١) زاد المعاد : ١/١٦٨ .

الأمانة ، ويختفى فيه الجحود والخيانة ، يسوده الصدق ويندر فيه الكذب ، يسوده الصراحة والإخلاص ، ويقل فيه الكذب والمداينة .

إن تأثير الصوم لا يقف عند حد ، فإن الله سبحانه لا يقبل من الصيام إلا ما ابتغى به وجهه ، وأثمر لصاحبه بعدا عن الشهوات والموبقات ، واستمساكا بالخيرات والقربات ، يقول النبي ﷺ : « من لم يدع قول الزور ، والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ^(١) ويقول : « كم من صائم ليس من صيامه إلا الجوع ، وكم من قائم ليس من قيامه إلا السهر » ^(٢) .

شهر رمضان

وقد اختار الله سبحانه - بحكمته البالغة - شهر رمضان المبارك ليكون موسم الصيام المفروض على المسلمين من كل عام ، وقد أشار القرآن الكريم إلى السر في اختيار هذا الشهر لهذه الفريضة المباركة ، ذلك أنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيامٍ أُخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ ^(٣)

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه النسائي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري

(٣) سورة البقرة ١٨٣ - ١٨٥

يقول السيد أبو الحسن الندوى : وجعل الله الصوم في رمضان ، فجعل أحدهما مقرونا بالآخر ، مرتبطاً به ، فذلك قران السعدين ، والتقاء السعادتين في حكمة التشريع ، وذلك لأن رمضان قد أنزل فيه القرآن ، فكان مطلع الصبح الصادق في ليل الإنسانية الغاسق ، فحسن أن يقرن هذا الشهر بالصوم ، كما يقتزن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم ، وكان أحق شهور الله - بها خصه الله من يمن ، وسعادة ، وبركة ورحمة ، وبها بينه وبين القلوب السليمة من صلة خفية روحية : بأن يصام نهاره ويقام ليله .

وبين الصوم والقرآن صلة متينة ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر من تلاوة القرآن في رمضان ، يقول ابن عباس رضى الله عنه : (كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة) .

وينقل عن بعض رسائل العارف بالله ، العالم الربانى أحمد بن عبد الأحد السرهندى في بعض رسائله كلمات مشرقة في ذلك يقول :

إن لهذا الشهر مناسبة تامة بالقرآن ، وهذه المناسبة كان نزوله فيه وكان هذا الشهر جامعاً لجميع الخيرات والبركات ، وكل خير وبركة تصل إلى الناس في طول العام قطرة من هذا البحر ، وإن جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العام كله وتشتت البال فيه سبب لتشتت في بقية الأيام ، وفي طول العام ، فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك ورضى الله عنه ، وويل لمن سخط عليه ، فمنع من البركات ، وحرم من الخيرات ^(١) .

(١) رسائل الامام الربانى الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى ٨/١ الثوبى سنة ١٠٣٤هـ (الأركان الأربعة) لأبى الحسن الندوى صفحة ١٩٧)

ويقول في رسالة أخرى : (إذا وفق الإنسان للخيرات ، والأعمال الصالحة في هذا الشهر حالفه التوفيق في طول السنة ، وإذا مضى هذا الشهر في توزع بال ، وتشتت حال مضى العام كله في تشتت وتشويش)^(١) .

لقد أصبح رمضان بما شرع فيه من صيام ، وسن فيه من قيام ، ومارغب فيه من عبادة وذكر ، وتلاوة للقرآن الكريم ، وصدقات وتراحم موسماً فلذا من مواسم العبادة المتعددة المناحي ، المتشعبة الجوانب ، تلك العبادات التي تطبع النفوس بطابع الرحمة والخير ، وتغمر المجتمع كله بموجة جارفة من الحب والمودة ، والتعاون والتراحم وتذكر فيه الأمة واجبها نحو دينها ، ونحو كتاب الله الذي أنزل عليها .

نعم إن هذا الشهر يحدث تغيرات بعيدة المدى في حياة الناس ، ويعلمهم كيف يحيون ، وكيف يستعدون للحياة الآخرة . وكم من معرض عن ربه ، مقصر في واجبه نحو نفسه ، منحرف المسلك ، عاد بهذا الشهر وبالروحانية والإشراق والصفاء التي تغمر المجتمع فيه مقبلاً على ربه ، منشرح الصدر بطاعته ، مستقيم السلوك ، عف اليد ، طاهر القلب ، نقي الضمير .

وكم من عبيد كان يسير تارة ، ويعثر تارة ، يقبل على ربه حيناً ، ويعرض أحياناً ، لا يكاد يذوق لذة العبادة وصفاءها ، حتى يقع في مرارة التقصير وكدره ، أكرمه الله في ذلك الشهر بإقبال لا إعراض بعده وصفاء لا يشوبه كدر ، ورضاً لا يعقبه سخط .

كم لله فيه من عطاء لعباده بحسب أحوالهم ، وبحسب أعمالهم ، أحسنوا فأحسن الله إليهم ، وتقربوا إلى ربهم فتقرب إليهم ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

(١) رسالة (٤٥) أيضاً (الأركان الأربعة صفحة ١٩٧) .

القرآن الكريم

ومن العبادات التي لها التعلق الكامل ، والمناسبة التامة بالصيام ، وبشهر رمضان المبارك تلاوة القرآن الكريم ، وتدبر معانيه ، وإحياء القلب به ، وقد ورث المسلمون سنة الاهتمام بتلاوة القرآن في ذلك الشهر العظيم عن نبيهم محمد ﷺ ، فقد كان جبريل عليه السلام يدارسه القرآن في كل ليلة من ليالي هذا الشهر العظيم ، وكان لهذه العبادة ولهذا اللقاء أثرهما في تدفق الخير على يديه ﷺ ، وجريانه أضعافاً مضاعفة .

يقول ابن عباس رضي الله عنه : (كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة) .^(١)

والقرآن الكريم هو كتاب الله عز وجل ، وهو الذكر الحكيم ، وهو النور المبين وهو الحبل الذي من اعتصم به نجا ، وهو الروح الذي تحيا به القلوب ، وتستنير البصائر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا :

(١) رواه البخاري .

﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فأما به ﴾ من قال به صدق ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم^(١) .

هو هداية للقلوب بما اشتمل عليه من ألوان الإعجاز : اللغوى ، والبلاغى ، والنفسى ، والعلمى .

وما من متخصص فى فرع من فروع المعرفة إلا واجد فى القرآن الكريم دقائق وحقائق من العلم الذى تخصص فيه سبق القرآن إلى بيانها بأسلوب يتناسب مع كل عصر ، بحيث لا تقع به فتنة ، ولا تحدث به ريبة ، وذلك لون آخر من الإعجاز والحكمة ، والرحمة ، وقد يكون لبسط القول عن القرآن وعمما فيه من ألوان الإعجاز ، والهداية مواطن آخر ، ذلك أن الذى يهمننا هنا هو الأثر الذى يترتب على هذه التلاوة التى يحرص المسلمون عليها فى هذا الشهر الكريم ، يحتفلون بها أيا احتفال ونكتفى من هذه الآثار الطيبة بالإشارة إلى الأمور الآتية :

أولا : فى تلاوة القرآن الكريم معرفة الله عز وجل ، والتعرف إليه ، فما من كتاب إلا وهو يحمل روح صاحبه ، ويتضمن التعريف بواضعه ، وبخاصة إذا كان قد كتبه عن نفسه ، وعن آثاره وأسراره ، والقرآن الكريم تجلت فيه صفات الحق جل وعلا ، ومراضيه ومساخطه : ففيه يمجّد المؤمن صاحب القلب النقى ، والعقل المتدبر ، عظمة العظيم وسطوة الجبار ، وعفو الرحيم وإحسان المحسن ، ولطف اللطيف ، وحكمة الحكيم ، ومحبة السودود ، ولذلك فهو أجل أنواع الذكر ، لأنه ذكر الله بكلامه ، ووصف له بما وصف به نفسه ، وثناء عليه بما أثنى به على ذاته ، وبالطريقة التى اختارها وأحكمها ؛ ومن أجل ذلك فهو حياة القلوب ، ونور

(١) رواه الترمذى .

البصائر ، وباعث الهمم : به تطمئن القلوب ، وتشرح الصدور ،
ونسكن الخواطر ، وتسارع النفوس إلى ربها راغبة راغبة :

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين
يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله
يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾^(١)
﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾^(٢)
﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية
الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾^(٣) .

ثانيا : في تلاوة القرآن الكريم تذكر لشريعة الله ، وما يريد رب العباد
من : العباد من صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج ، ونسك ، وبر وتراحم ،
وتحاب وتآلف ، وصدق حديث ، وأداء أمانة ورعاية للعهود ، ووفاء
بالمواثيق ، وما يترتب على ذلك من أجر جزيل ، وثواب عظيم في العاجلة
والآجلة لمن أخلص ذلك لله وحده ، وابتغى به وجهه ، وقام به إيمانا
واحتراسا ثم تذكر لما نهى الله عنه ، وحذر منه من تقصير ومخالفات ،
وفسواحش وموبقات ، سواء تعلقت بالقلوب كالحقد والحسد وسوء الظن
والكبر والعجب ، والفخر والرياء وحب المحمدة ، أو بالجوارح كالكذب
والغيبة والسرقه ، والزنا ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر ، والسحر ، وقذف
المحصنات الغافلات ، وتذكر لما رصد الله على ذلك من عقاب ، ورتب
عليه من عذاب نفسي ، وجسدي ، وحرمان مادي وأدبي : منه ما يعجله
الله في الدنيا ، ومنه ما هو مرصود لمستحقه في آخرته جزاء وفاقا على ما
اكتسب من آثام ، وفرط في جنب الله .

(١) سورة الزمر : ٢٣

(٢) سورة ص : ٢٩

(٣) سورة الحشر : ٢١

ولا ريب أن للصيام أثراً عظيماً في إعداد المسلم للعبادة ، وتأهيله لجنى ثمراتها ، والانتفاع بخيراتها وبركاتها ، فإن النفوس به تصبح مستعدة للخير ، راغبة في البر ، كارهة للشر ، خائفة ونافرة من الفجور ، وإذا كانت التسلاوة عبادة لها ثمارها فإن هذه الثمار تكون أركى وأسمى وأبقى إذا كان القلب مستعداً والنفس متهيئة ، وكأنها كانت هذه الحكمة تجول في خاطر النبي ﷺ حين قرن بينهما في أنها يَشْفَعَان لصاحبهما ، وَيُشْفَعَان فيه ، يقول عليه الصلاة والسلام : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد : يقول الصيام : رب منعتك الطعام بالنهار فشفعني فيه ، ويقول القرآن : رب منعتك المنام بالليل فشفعني فيه قال : فَيُشْفَعَان » (١) .

الحج

الحج هو الركن الخامس في الإسلام ، وهو الفريضة التي تستوجب مفارقة المألوفات والعادات استجابة لرب الأرض والسماوات .

والحج تلبية لدعوة الله تبارك وتعالى التي كان أول من أعلنها في الناس إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين قال له ربه : ﴿ وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ ، وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (٢) .

ولهذا فإن المسلم حين يستعد لتلبية هذه الدعوة بالإحرام : الذي يفارق فيه العادات والمألوفات ، وبتطهير باطنه : بالتوبة الصادقة ، والتوبة النصوح ، وتطهير ظاهره : بالاغتسال فإنه يعلن استجابته لأمر ربه

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ

(٢) سُورَةُ الْحَجِّ : ٢٧ - ٢٩

الحج وما فيها من خير فقال : تحت عنوان (شعائر الله وحكمتها) - :
وقد اختار الله أمورا ظاهرة محسوسة اختصت به ، ونسبت إليه ،
وتجلت عليها رحمته ، وحفتها عنايته بحيث إذا رؤيت ذكر الله ، وارتبط بها
وقائع وحوادث ، وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه ، ودينه وتوحيده ،
وحسن بلاء أنبيائه ، وسماها (شعائر الله) التي جعل تعظيمها تعظيمه
والتفريط في جنبها تفريطا في جنبه ، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم
الكامن في نفوسهم ، ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة ، بل حث على
ذلك ، ودعا إليه فقال : ﴿ ذلك من يعظم شعائر الله فإنها من تقوى
القلوب ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند
ربه ﴾ ^(٢) .

إنه ما من مكان أو شعيرة في الحج إلا وهو يثير من الذكريات ويبعث
من العواطف ما هو كفيل بإحياء القلوب ، وتوجيهها إلى ربها ، وخلعها عما
يباعد بينها وبينه ، وغرس مشاعر الحب والحنان ، والتراحم ، والتناصر بين
المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، بل على اختلاف الأزمان التي
عاشوا فيها ، والمواطن التي ينتسبون إليها ، يحس المؤمن بحب ، وحنين
نحو إخوانه الذين سبقوه بالإيمان ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، ويذكر
بوقوفه على عرفات وقفته ووقفه الناس بين يدي ربهم يوم القيامة ، فتستيقظ
الضائير ، وتخشع القلوب .

ويذكر وقوف الرسول ﷺ بعرفة في حجة الوداع ومن حوله المهاجرون ،
والأنصار ، والمسلمون من كافة أنحاء جزيرة العرب ، وهو يخطب فيهم
خطبته المشهورة الجامعة :

« أيها الناس اسمعوا قولي فإنني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا

(١) سورة الحج : ٣٢

(٢) سورة الحج : ٣٠ ، الأركان الأربعة .

بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم ربوس أموالکم : لا تظلمون ولا تظلمون . قضی الله أنه لا ربا وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

إلى أن يقول : «أيها الناس : إن لكم على نسائکم حقاً ، ولهن علیکم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشکم أحداً تکرهونه ، وعليهن أن لا يأتین بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهین فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندکم عوان لا يملکن لأنفسهن شیئاً . وإنکم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت .

وقد تركت فيکم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بينا ، كتاب الله وسنة نبيه . . .

أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسکم ، اللهم هل بلغت ؟

قالوا : اللهم نعم .

فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اشهد» .

ويذكر كذلك إكمال الدين وإتمام النعمة على هذه الأمة حينما أنزل الله على رسوله ﷺ في هذا الموقف في يوم الجمعة عشية عرفة ﴿ اليوم أكملت

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ^(١) ﴿

ففى الحج يربط المسلم قلبه بذكرىات أبى الأنبياء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وما كان منه من : جهاد ، وتضحية ، وتقديمه أمر ربه على النفس ، والولد دون ما تردد أو جزع ، وإنها لعبرة أن يؤمر عليه الصلاة والسلام - وهو الأثير عند ربه ، الوفى بعهده - أن يذبح ولده الوحيد بيده بعد أن أصبح قرّة عينه ، وسكينة نفسه ، ولكنه يستجيب استجابة المؤمن بحكمة ربه ، ويعرض ذلك على ولده فيستجيب كذلك ، ويكون من أمر الله عز وجل ولطفه ، وعطائه ومنته ما ذكره سبحانه فى كتابه عبرة لمن أراد أن يعتبر ، وذكرى لمن أراد أن يتذكر : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى

قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟

قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .

فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ^(٢) ﴿

إن الحج بعث لهذه العبرة ، وإحياء لهذه الموعظة الفذة التى يسوقها الله تبارك وتعالى للمسلمين من خلال تلك القصة الفذة التى أجراها الله على نبيه وخليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

وفى الحج تذكر لنصائح القرآن الكريم التى اقترنت به ، وما فيها من حكم وأسرار ، نتذكر تلك الآية التى نزلت تنهى المسلمين عن تمكين المشركين من الحج بعد عامهم هذا - وهو العام الهجرى التاسع - وما كان

(١) سورة المائدة : ٣

(٢) سورة الصافات : ١٠١ - ١١٠

من توجيه الله لمن يعتمدون على هذا الموسم في معاشهم بأن حظر الحج على المشركين لن يضرهم في شيء ، وأن الرزق بيد الله يمنحه من شاء متى شاء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ (١) .

نتذكر أن المعاش بيد الرزاق فلا ينبغي أن يكثر بها انشغالنا ، وليكن على الله سبحانه اعتمادنا بعد أداء ما افترضه ، والقيام بما أوجبه ، وفي نفس المعنى يخاطب الله عز وجل نبيه - عليه الصلاة والسلام - في كتابه : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا ، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ .

ونتذكر كذلك أن الحج : إنما هو تعويد على مكارم الأخلاق ، ومقابلة السيئة بالحسنة ابتغاء وجه الله ، وإحسان إلى الناس طلباً للإحسان من الملك الديان ﴿ الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ، ولا فسوق ، ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب ﴾ (٢) .

والحق أن الحج بما فيه من أوضاع ، وشعائر ، ودعوات ، وإبتهالات ، وذكريات : مدرسة تملأ القلب رضا وسكينة ، وإيماناً وطمأنينة ، وتغمره بالخير من جميع نواحيه ، فيعود مسلماً مؤمناً حقاً وصدقاً ، مسارعاً للاستجابة لربه الذي خلق فسوى ، وقدر فهدى ، يصدق عليه قول الصادق المصطفى ﷺ : ﴿ ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ﴾ (٣) .

(١) سورة التوبة : ٢٨

(٢) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٣) رواه مسلم

والله من وراء القصد
وهو وحده ولى التوفيق ، والهادى لأكرم سبيل وأقوم طريق ،
لا حول ولا قوة إلا به ولا ملجأ منه إلا إليه .
نسأله ونضرع إليه أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته

★ ★ ★

خاتمة

وبعد هذه الجولات التي طوفنا فيها حول موضوع العبادة وما يتعلق بها.

وبيان ما لها من صلة وثيقة بالإيمان، والأخلاق والعمل والسلوك .
وبيان ما لها من تأثير على الناس أفراداً، وجماعات في حاضرهم،
ومستقبلهم : في المبتدأ من أمورهم، والمتنهي بطريقة تربط بين النصوص
والأذواق، وتحلل إشارات القرآن والسنة فإننى أجد الله تبارك وتعالى على
توفيقه ومعونته . فقد نبه هذا العمل إلى أمور كثيرة يحتاج إليها المؤمن
والعالم .

ويستطيع المتصفح لهذا الكتاب أن يضع يده على كثير من : المعارف
والعلوم التي يطمئن إلى قوة براهينها، ودقة استنباطها . وبحسبنا أن نضع
بين يدي القارئ بعض هذه المعالم البارزة :

- العبادة : اتجاه كامل إلى الله بالقلوب والجوارح .
- العبادة : شكر الله واعتراف بفضلله لأنه الخالق الرازق .
- ليس المنظور إليه في العبادة كثرتها ، وإنما المنظور إليه إخلاصها
لله ، ومدى الإقبال عليه فيها .
- القلوب : كالأبدان تعترها الأمراض والأمراض ، والصحة
والسقم .

- العبادة : مطلوبة ومشروعة لذاتها ، ولآثارها .
- العبادة : لا تسقط عن العبد بحال مادام أهلاً للتكليف .
- العبادة : شرف للعابدين ، وقدم صدق للمتقين .
- العبادة : سبب العطاء في الدنيا ، والنعيم في الآخرة .
- يتفاوت ثواب العبادة لاعتبارات كثيرة في معرفتها خير كثير .

- الإيمان والعبادة مقترنان : لاعبادة بدون إيمان ، ولا إيمان لمن أعمل العبادة .
- الإيمان : نعم الدافع إلى العبادة .
- العبادة : ضرورة للمداعية تصفية لقلبه ، وتطهيراً لنفسه ، وتقرباً إلى ربه .
- لكل عبادة سر خاص في إصلاح العبد فالعبادات للإنسان كالأدوية للأبدان .
- البعد عن الآثام ، والعزوف عن الحرام يجعل العبد موفقاً للطاعات ، معاناً على العبادات .
- إنكار الفتن ، وكراهيتها : يقوى الإيمان ، ويحصن الإنسان .
- العبادات : خير عاصم من شر فتن الدنيا .
- عبادات الإسلام : أسوار تحرس الدين ، وتصورن اليقين .
- من وفق إلى العبادات أعين على الفضائل .
- من رزق الفضائل ، وأبعد عن الرذائل أعين على العبادات .

النصائح

إن الإقبال على الدين ، وتبنى قضايا وإقامة شعائره في مدارسنا وجامعاتنا ومصالحنا وبمجامعنا ضرورى لرفعة شأننا في هذه الحياة مثلما هو ضرورى لسعادتنا حين نلقى الله .

لذلك فإنى أطالب : بأن يتبنى ولاية الأمور هذه القضية ، وينشروها بكل ما يستطيعون من وسائل النشر والإعلام ، نشر العارف بها ، الغيور عليها .

أطالب بأن يكون للصلاة - وهى عماد الدين - مكانها الرسمى بين كل جماعة في مدرسة ، أو جامعة ، أو لجنة : فى الجيش والشرطة ومعسكرات العمل ونحوها ، وأن يكون الكبار أسوة حسنة للصغار فى ذلك .

أطالب بأن نتخلى عن النظرة المادية الضيقة للأمور ، لننظر إليها نظرة المؤمن بربه الموقن بحكمته ، الراجى لرحمته ، الخائف من عذابه ، وذلك بأن نأخذ الشريعة وتعاليمها وآدابها مأخذ الجد فى حياتنا .

وأن نرفع شعار : الدين فوق المنفعة ، الشريعة لا الهوى حكمة الرحمن لا تحبط الإنسان .

وأسوق فى هذا إشارات :-

قوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ، وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ ^(١) .

لا ينبغي أن يكون تشجيع السياحة بما تجلبه من موارد مادية فى بعض

(١) سورة البقرة ٢٧٦

البلاد الإسلامية سبياً في إغضاء العيون عما يكتنفها من سوءات وموبقات .

لا ينبغي أن تقف السلطة على الحياد بشأن التيارات التي تخالف الدين ، وتحاربه بل عليها أن تتدخل - ولو بوسائل الإعلام على أقل تقدير- إن عليها كسلطة مسلمة أن تفهم الدين ، وتبني مافيه من حقائق ونصائح .

وأخيراً فليس هذا سبياً لانكماش اقتصادي أو اجتماعي أو دولي ، وإنما هو انفتاح إلى الخير والفلاح ، ويكفي : أن ننظر من حولنا إلى بلاد تحافظ على دينها ، وتغار عليه ، قد فتح الله لها أبواباً من السعادة والرفاهية لم تكن تحلم بها .

وأخيراً ماذا أقول ؟ وبم أختتم هذه الكلمات ؟
أسوق نصيحة نوح عليه الصلاة لقومه : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهارا ﴾^(١)

أم أذكر نصيحة مؤمن آل فرعون : ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾^(٢) ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾^(٣) أم أسوق هنا ما افتتح الله تبارك وتعالى به كتابه بعد فاتحة الكتاب .

(١) سورة نوح ١٠ - ١٢

(٢) سورة غافر ٣٩ ، ٤٠

(٣) سورة ق ٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن
رَّبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) . صدق الله العظيم

« اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كَمَا
صَلَّيْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ ، وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا
إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ » .

★ ★ ★

(١) سورة البقرة : ١ - ٥ .

المراجع

- إحياء علوم الدين : لحجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى - دار الشعب ،
- الإسلام دين الفطرة : للأستاذ إبراهيم الجبالى - تحقيق محمد موفق أبو اليسر البيانونى .. مكتبة الهدى - حلب ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب :
- للشيخ محمد ابن السيد درويش - المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- الإصابة فى تمييز الصحابة : للحافظ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ - نشر مكتبة الكليات الأزهرية .
- الإيمسان : الدكتور عبدالحليم محمود - دار الإسلام - القاهرة ١٩٧٢ م
- الإييان والحياة : الدكتور يوسف القرضاوى - مكتبة وهبة .
- البداية والنهاية : للحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير القرشى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ - مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده ، .
- بهجة النفوس : لابن أبى جرة .
- الترغيب والترهيب : للحافظ زكى الدين المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .
- التفكير فريضة اسلامية : الأستاذ عباس محمود العقاد - دار الهلال
- تفسير القرآن العظيم : الحافظ الفقيه المفسر : ابن كثير القرشى - دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاه .
- جامع العلوم والحكم : فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم :
- للحافظ : ابن رجب الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .
- تحقيق الدكتور محمد أحمدى أبو النور - مطابع الأهرام التجارية .
- حجة الله البالغة : للإمام الكبير الشيخ أحمد المعروف بشاه ولى الله أبى عبد الرحيم الدهلوى - تحقيق ومراجعة الشيخ سيد سابق . دار الكتب

- الحديثة بالقاهرة ، ومكتبة المثنى ببغداد .
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : للأستاذ عباس محمود العقاد - دار الهلال
- الرحمة المهداة في فضل الصلاة : للإمام النبهاني
- رسالة التوحيد : للإستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٦هـ .
- رياض الصالحين : من كلام سيد المرسلين : للإمام أبي زكريا محيي الدين النووي المتوفى سنة ٦٧١هـ مكتبة الجمهورية المصرية بالصناديق بمصر .
- زاد المعاد في هدى خير العباد : للإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر .
- صحيح الإمام مسلم بن الحجاج يشرح النووي : المطبعة المصرية ومكتبتها .
- صيد الخاطر : للعلامة أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - تحقيق الشيخ محمد الغزالي .
- العبادة : أحكام وأسرار : للدكتور عبد الحليم محمود - دار الكتب الحديثة . الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨ .
- العبادة في الإسلام : للدكتور يوسف القرضاوي - دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ثمانية ١٣٩١هـ - ١٩٧١م
- العبودية : للعلامة تقي الدين بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر .
- العقيدة الإسلامية والأخلاق :
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري :
- للحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ مكتبة ومطبعة

- مصطفى الحلبي مصر .
- فقه السيرة : للشيخ محمد الغزالي - خرج أحاديثه محدث الشام العلامة محمد ناصر الدين الألباني - نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة .
 - القاموس المحيط : للفيروز أبادي .
 - المطبعة الحسينية المصرية - طبعة ثانية سنة ١٣٤٤هـ .
 - كشف الحفا ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس : للشيخ اسماعيل بن محمد العجلوني المتوفى ١٣٦٣هـ - نشر وتوزيع مكتبة التراث الإسلامي - حلب .
 - لسان العرب : للعلامة جمال الدين بن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ - الدار المصرية للتأليف والترجمة .
 - مدارج السالكين بين منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » . للعلامة شمس الدين ابن القيم .
 - المسائل في أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل : للحارث المحاسبى .
 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي - دار الشعب .
 - المنقذ من الضلال - مع أبحاث في التصوف للدكتور عبد الحليم محمود - دار الكتب الحديثة .
 - المخصص لابن سيده
 - النبأ العظيم - نظرات في القرآن : الدكتور محمد عبد الله دراز - مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

مَوْقِعُ الطَّرِيقَةِ الدُّوْمِيَّةِ الْخَلَوْتِيَّةِ

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقدمة بقلم الشيخ: محمد زكى الدين محمد أبو القاسم	أ
مقدمة الكتاب	هـ
تمهيد	
الكائنات خلق الله	١
الكائنات مسخرة للإنسان	٥
الله على خلقه حق الطاعة	
وعليهم واجب الاستجابة	٩
الباب الأول	
العبادة وما يتعلق بها	١٥
تعقيب واستطراد	٢٢
شمول العبادة للإنسان بجميع جوانبه	٣٥
شمول العبادة للحياة وللمدين كله	٤٩
العبادة اتباع لقانون الله	٥٠
لمحات عن العبادة من القرآن الكريم	٥٦
الفصل الأول	
العبادة : حق الله على عباده	٦٣
الفصل الثانى	
تنوع العبادات وما فيه من حكم وأسرار ولطائف	٧٩
الحكم العامة من شرعية العبادة	٨٧

الموضوع	الصفحة
حكمة الصلاة	٩٥
صلاة الجماعة	١٠٠
حكمة الزكاة والصدقة	١٠٥
حكمة الصوم	١١١
حكمة الحج	١١٦
إذلال النفس عند الحج	١١٩

الفصل الثالث

ميزان قبول العبادة وسموها	١٣١
اختلاف ثواب العبادة وأسبابه	١٥٥
اختلاف ثواب العبادة باختلاف الأزمنة	١٦٤

الباب الثاني

العبادة والإيمان	١٧٧
الرسول عليهم الصلاة والسلام	١٩٣
الحكمة في اصطفاء الرسول عليهم الصلاة والسلام	١٩٨
اخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام	١٩٩
الرسالة الخاتمة	٢٠٢
وجوب الإيمان بما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ	
جملة وتفصيلاً	٢٠٩
وجوب الإيمان بالملائكة	٢١٩
الإيمان بالقدر	٢٢٤
أفعال العباد	٢٣٠
التعلل بالأقدار لا معنى له	٢٣٩

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث	
العبادة وأثرها في الفرد والجماعة	٢٤٧
الفصل الأول	
أثر العبادة في صلاح الفرد	٢٤٩
التقوى	٢٥٥
أثر العبادة في تربية الدعاة	٢٦٥
العبادة والمخلوق	٢٦٩
الفصل الثاني	
أثر العبادة في صلاح الجماعة	٢٧٧
الصلاة	٢٨٦
الصدقات والتفقات	٢٩٨
الصيام	٣٠٧
شهر رمضان	٣١١
القرآن الكريم	٣١٤
الحج	٣١٧
خاتمة	٣٢٥
النصائح	٣٢٧
المراجع	٣٣٠

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٢٨٤ / ٨٩

هذا الكتاب

كم كانت حاجتنا ، وحاجة الأجيال من بعدنا ملحة لكي نجد : من يبصرنا بحقيقة العبادة ، وصحة أدائها ، وصور قبولها .

.. خاصة في هذه العصور التي اختلفت فيها الموازين ، واضطربت القيم ، واختلطت المفاهيم ..

ومنهج البحث الذي نقدمه للقراء .. اليوم .. هو : نسيج متميز ، باعتباره : دراسة متخصصة موثقة مستوعبة لكل أطراف الموضوع ، وشتى آفاقه تلتزم المنهج العلمي الدقيق في : التعريف والتقسيم ، والاستدلال ، والاستنتاج .

بالإضافة إلى ما يميز به .. عن الدراسات الأكاديمية .. من : سلاسة الأسلوب ، وجاذبية العرض ، وإثراق المآخذ ، ووجدانية الاستنباط شأن مؤلفه : العلامة الفاضل : الأستاذ الدكتور علي عبد اللطيف منصور في مسيرة حياته ، وطبيعته الفذة المتميزة : بسعة الاطلاع ، وسهولة الأداء ، وقوة الإقناع .

وإذا كان القارئ الكريم يراه .. هنا .. في هذا الكتاب : كاتباً سلساً ، جذاباً ، ومفكراً : دقيقاً ، وعالمياً فاقها .

فقد عرّفته منابر الدعوة . في مصر ، وليبيا ، والكويت . ومقاصير العلم : في الأزهر ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وأجهزة الإعلام : في الإذاعات القرآنية ، والبرامج العامة في ليبيا ، والمملكة العربية السعودية ، والكويت .

عرّفته رجلاً متميز الأسلوب ، متميز العرض ، متميز الفكرة ..

ومن هنا كان هذا الكتاب .. الذي نقدمه للقراء .. : جماع ما يتطلع إليه الباحث عن مواطن الفهم ، والدارس المتفحص عن دقائق العلم ، والمسترشد إلى أفضل مناهج الدعوة : بما يحويه من استيعاب الكتاب ، وروح الكاتب .

سائلين الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه ، وثقلاً في ميزان حسنات مؤلفه ، وأن يجعله نافعاً .. لنا وله .. ولجميع المسلمين .

دار الصفاة

To: www.al-mostafa.com